﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ، وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا. وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾

صدق الله العظيم ـ سورة الحج ـ الآية ٤٠ .

الفصل الأول

الحروب الداخلية

- ١ ـ الموقف على جبهة الروم.
- ٢ ـ الموقف على الجبهة الإسلامية.
- ٣ ـ ثورة الزط ٢١٩ ـ ٢٢٠ هـ.
- ٤ ـ ثورة بابك الخرمي ٢٠١ ـ ٢٢٣ هـ.
- ٥ ـ ثورة الزنج ٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ.
  - أ ـ انتصارات الزنج وإحراق البصرة.
  - ب ـ الصراع المرير لانتزاع النصر.
  - ج ـ الأيام الأخيرة ـ والنصر الحاسم.
  - د ـ مع الشعر في نهاية ثورة الزنج.
- ٦ ـ القرامطة بعد الزنج ٢٧٨ ـ ٣٧٨ هـ.
  - أ ـ القرامطة يعيدون تنظيم أمورهم.
  - ب ـ ماذا حدث في مكة المكرمة.
- ٧ ـ الدولة الفاطمية ٢٩٦ ـ ٥٦٧ هـ.
  - أ ـ بناء الدولة والصراع مع مصر.
  - ب ـ المعز لدين الله في مصر والشام.
  - ج ـ العهد الجديد.
  - د ـ ضعف من بعد قوة.

الحروب الداخلية

١ - الموقف على جبهة الروم.

استطاع الأمويون إرغام الروم - البيزنطيين على اتباع سياسة دفاعية اقتصرت في مرات كثيرة على حدود العاصمة (القسطنطينية). كما أن انتزاع المسلمين للمجال البحري؛ حرم دولة الروم من حرية عملها العسكري في البر والبحر. وكان زوال الحكم الأموي هو الفرصة التي أفاد منها الروم لإعادة بناء قدراتهم العسكرية في البر والبحر؛ وسرعان ما ظهرت نتيجة ذلك بانتقال الروم من الدفاع الى الهجوم والإغارة على ثغور المسلمين. ولكن المحاولات الأولى للروم باءت بالفشل الذريع عندما اصطدمت بإرادة هٰرون الرشيد، ثم ابنه المأمون، ومن بعدهما المعتصم؛ فقد كانت الدولة العباسية خلال العصر الأول تمتلك قدرات هائلة وإمكانات ضخمة لا تمتلكها دولة الروم - البيزنطيين - ولكن ضعف وحدة القيادة العباسية، وتعاظم الحركات الاستقلالية للأقاليم، وظهور الحركات الداخلية القوية، قد أضعف من قدرة الدولة العباسية على تجريد الحملات الضخمة ضد الروم. وفي الوقت ذاته. كان ملوك الروم يتعرضون للأزمات ذاتها، فقد اتبعت دولة الروم تطبيق سياسة استقلالية في أقاليمها، فكان (الدمستق - نائب الملك) هو الذي يحكم الأقاليم الشرقية من بلاد الروم، ومن ضمنها الثغور المواجهة لثغور المسلمين. ونظراً لتوافر القدرة العسكرية في هذه الاقاليم، اكثر من سواها، باعتبارها الجبهة الأولى للصراع المسلح. فقد كان (الدمستق) هو الشخصية الأولى في الدولة، ولهذا لم يكن غريباً أن يطمع هذا الدمستق في الاستيلاء على السلطة كلما توافرت له الفرصة - على نحو ما فعله (نقفور) الذي انتزع السلطة وتزوج الملكة وحارب الرشيد. وجاء بعد ذلك عدد من القادة الذين عملوا بمثل ما عمل به نقفور. وكان هذا الاضطراب الداخلي على جبهتي الصراع هو من العوامل الأساسية التي كانت تسهم في تصعيد حدة التوتر على الحدود أحياناً، وتعمل على تهدئته في أحيان أخرى. ولقد عرف الروم والمسلمون أهمية الحاجة للتعايش السلمي

على الحدود. فأخذت فترات الحروب تتباعد تدريجياً، ليحل محلها نوع من الهدنة؛ بما يتوافق مع المرحلة الزمنية التي يمر بها الطرفان المتصارعان.

لقد كان لدولة الروم متاعبها أيضاً على جبهتها الغربية، فقد كان (البرجان - أو البلغار) يناصبونها العداء. وكانت الحروب على هذه الجبهة تسير بدورها في تصعيد وتهدئة تبعاً لتطورات الموقف على جبهة الروم الداخلية، أو على جبهتها الشرقية، وكثيراً ما اضطر ملوك الروم لإيقاف حملاتهم ضد الثغور الإسلامية، بسبب ظهور خطر على جبهتهم الغربية؛ وبالمقابل فقد أفادت دولة الروم في كثير من الأحيان من دعم البلغار لها لشن حملات على الثغور الإسلامية؛ حيث ظهر في تشكيل قوى الامبراطورية البيزنطية قوات كبيرة من البلغار المتحالفين مع الروم، فكانت هذه الأحلاف هي أحد العوامل في السياسة الحربية البيزنطية.

لقد كان للروم متاعبهم أيضاً مع جيرانهم على الحدود الشمالية - الروس - وكانت العلاقات مع الروس مماثلة لما كانت عليه مع الجيران على الحدود الأخرى، تسير نوباً بين سلم وحرب، وقد عرفت الدولة البيزنطية بحكم تجربتها الطويلة في مجال السياسة والحرب كيف تستفيد من التناقضات المختلفة حتى تحافظ على وجودها؛ وحتى تحتفظ بقوتها. وقد يكون من المناسب في هذا المجال التوقف عند بعض الأحداث، وفقاً لما أوردتها المصادر العربية - التاريخية.

حدث في سنة ٢٨٣ هـ = ٨٩٦ م، أن سارت الصقالبة إلى الروم، فحصروا القسطنطينية، وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً، وخرّبوا البلاد. فلما لم يجد ملك الروم منهم خلاصاً، جمع من عنده من أسارى المسلمين وأعطاهم السلاح وسألهم معونته على الصقالبة، ففعلوا وكشفوا الصقالبة، وأزاحوهم عن القسطنطينية. ولما رأى ملك الروم ذلك خاف المسلمين على نفسه، فردّهم، وأخذ السلاح منهم، وفرقهم في البلاد حذراً من جنايتهم عليه.

وحدث في سنة ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ م ان خرجت طائفة من الروسية في البحر الى نواحي أذربيجان، وركبوا في نهر الكر، وهو نهر كبير، حتى وصلوا الى - برذعة -

فخرج إليهم نائب المرزبان ببرذعة في جمع من الديلم والمطوعة يزيدون على خمسة آلاف رجل، فلقوا الروس، فلم تكن ساعة حتى انهزم المسلمون منهم، وقتل الديلم عن آخرهم، وتبعهم الروس الى البلد، فهرب من استطاع، وترك البلد، فنزله الروس ونادوا فيه بالأمان فأحسنوا السيرة، وأقبلت العساكر الإسلامية من كل ناحية، فكانت الروس تقاتلهم، فلا يثبت المسلمون لهم. وكان عامة البلد يخرجون ويرجمون الروس بالحجارة ويصيحون بهم، فينهاهم الروس عن ذلك، فلم ينتهوا، فلما طال ذلك عليهم، نادى مناديهم بخروج أهل البلد منه، وان لا يقيموا بعد ثلاثة أيام. فخرج من تمكن من الخروج، وبقي اكثرهم بعد الأجل، فوضع الروسية فيهم السلاح فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف نفس. وجمعوا من بقي بالجامع، وقالوا: «اشتروا أنفسكم وإلاّ قتلناكم». وسعى لهم انسان نصراني، ففرض على كل رجل عشرين درهماً، فلم يقبل منهم إلاّ عدد قليل، فلما رأى الروسية أنه لا يحصل منهم شيء قتلوهم عن آخرهم، ولم ينج منهم إلاّ الشريد؛ وغنموا أموال أهلها، واستعبدوا السبي، واختاروا من النساء من استحسنوها. واستعظم المسلمون ما فعله الروس بأهل - بردعة - وتنادوا للنفير. وجمع المرزبان محمد الناس واستنفرهم، فبلغ عدة من معه ثلاثين ألفاً، وسار بهم، فلم يقاوم الروسية، وكان يغاديهم القتال ويراوحهم فلا يعود إلاّ مفلولاً، فبقوا كذلك أياماً كثيرة. وكان الروس قد توجهوا نحو مراغة، فأكثروا من أكل الفواكه فأصابهم الوباء وكثرت الأمراض والموت فيهم. ولما تطاول الأمر على المرزبان، أعمل الحيلة؛ فرأى ان يكمن كميناً، ثم يلقاهم في عسكره، ويتطارد لهم - يتظاهر بالتراجع والانسحاب - فإذا خرج الكمين عاد عليهم. وتقدم الى أصحابه بذلك، ورتب الكمين، ثم لقيهم واقتتلوا، فتطارد لهم المرزبان وأصحابه، وتبعهم الروسية حتى جازوا موضع الكمين، فاستمر الناس على هزيمتهم لا يلوي أحد على أحد، وصاح المرزبان بالناس ليرجعوا، فلم يفعلوا لما استقر في قلوبهم من هيبة الروس(*) وشدة بأسهم، وعرف المرزبان أنه إذا ما استمر الناس في هزيمتهم قتل

(*) جاء في كتاب تجارب الامم - ابن مسكويه - في وصف الروس: «هؤلاء أمة عظيمة، لهم خلق عظام؛ ولهم بأس شديد، لا يعرفون الهزيمة، ولا يولي الرجل منهم حتى يقتل او يقتل. ومن عادة =

الروس أكثرهم، ثم عادوا الى الكمين فاكتشفوه فقتلوا أفراده عن آخرهم. فقرر المرزبان التوقف وقد وطن نفسه على الشهادة، ورجع وليس معه إلاّ أخوه وبعض فتيانه، فحينئذ عاد أكثر الديلم استحياء، فرجعوا وقاتلوا الروس. وأعطيت لقوة الكمين الإشارة المتفق عليها، فخرج الرجال على مؤخرة قوات الروس. وصدق المسلمون القتال، فقتلوا من الروس خلقاً كثيراً - منهم أميرهم. ولجأ الباقون الى حصن البلد - واسمه شهرستان - وكانوا قد نقلوا إليه ميرة كثيرة - مواد تموينية - وجعلوا معهم السبي والأموال. فحاصرهم المرزبان وصابرهم. واشتد الحصار على الروس، وزاد الوباء فيهم. فكانوا إذا دفنوا الرجل دفنوا معه سلاحه ثم إنهم خرجوا من الحصن ليلاً. وقد حملوا على ظهورهم ما أرادوا من الأموال وغيرها، ومضوا الى نهر الكر، وركبوا سفنهم ومضوا. وعجز أصحاب المرزبان عن اتباعهم وأخذ ما معهم فتركوهم.

لقد كان ظهور القدرة القتالية للروس عاملا جديداً أفاد منه الروم، فعملوا على اللجوء إلى هذه القوة ضد خصومهم إذا ما اقتضى الأمر ذلك، وهو ما حدث على سبيل المثال سنة ٣٧٥ هـ = ٩٨٥ م، عندما حاول (الدمستق - ورد الرومي - انتزاع السلطة والملك من ابني الملك (باسيل وقسطنطين) اللذين خلفهما أبوهما على عرش ملك الروم وهما صغيران، فطمع ورد الرومي فيهما وسار بجيشه إلى القسطنطينية وحاصرها. فكتب باسيل وقسطنطين إلى أمير روسيا - ملكها - واستنجداه؛ وزوجاه بأخت لهما؛ - فامتنعت من تسليم نفسها والزواج إلى من يخالفها في الدين؛ فتنصر - وكان هذا أول النصرانية بالروس -. وتزوجها، وسار الى لقاء قوات التمرد، فاقتتلوا وتحاربوا، وانتصر الروس، واستقر الملكان في ملكهما. وتقدم (باسيل) في الملك، وكان شجاعاً عادلاً، حسن الرأي. ودام ملكه، وحارب البلغار خمساً وثلاثين سنة، وظفر بهم؛

= الواحد منهم أن يحمل آلة السلاح، ويعلق على نفسه أكثر آلات الصناع من الفأس والمنشار والمطرقة وما أشبهها، ويقاتل بالحربة والقوس، ويتقلد السيف ويعلق عليه عموداً وآلة كالدشنى، ويقاتلون رجاله - مشاة - لاسيما هؤلاء الواردين».

وأجلى كثيراً منهم من بلادهم، وأسكنها الروم. وكان كثير الاحسان الى المسلمين والميل إليهم.

قد يكون من المناسب هنا التوقف عند بعض سيرة هذا الملك ـ باسيل ـ والتي تعتبر نموذجاً لما يطلق عليه اسم ـ روح العصر ـ إذ كان والد باسيل قد تعرف على زوجته في إحدى المناسبات. إذ كان من عادة ملوك الروم أن يركبوا أيام الأعياد الى الكنيسة ـ البيعة ـ الخاصة بذلك العيد. فإذا اجتاز الملك بالأسواق شاهده الناس وبأيديهم المداخن يبخرون فيها. فلما كان يوم أحد الأعياد خرج الملك على عادته الى الكنيسة. وكان لبعض أكابر الروم بنت جميلة فخرجت تشاهد الملك، فلما مرّ بها استحسنها، فأمر من يسأل عنها، فلمّا عرفها خطبها وتزوجها وأحبّها، وولدت منه باسيل وقسطنطين، وتوفي وهما صغيران. فتزوجت بعده بمدة طويلة نقفور، فكره كل واحد منهما صاحبه. فعملت على قتله. فراسلت الشمشقيق في ذلك. فقصد القسطنطينية متخفياً، فأدخلته إلى دار الملك؛ واتفقا، وقتلاه ليلاً، وأحضرت البطارقة متفرقين، وأعطتهم الأموال، ودعتهم إلى تمليك الشمشقيق، ففعلوا. ولم تصبح إلاّ وقد فرغت مما تريد. ولم يجر خلف. وتزوجت الشمشقيق واقامت معه سنة، فخافها واحتال عليها وأخرجها إلى دير بعيد، وحمل ولديها معها. فأقامت فيه سنة. ثم احضرت راهباً ووهبته مالاً، وأمرته بقصد القسطنطينية والمقام بكنيسة الملك، والاقتصار على قدر القوت، فإذا وفق به الملك وأراد القربان من يده ليلة العيد، سقاه سماً. ففعل الراهب ذلك. فلمّا كان ليلة العيد، سارت الملكة ومعها ولداها. ووصلت القسطنطينية في اليوم الذي مات فيه الشمشقيق. فملك ولدها باسيل، ودبّرت هي الأمر لصغره. فلمّا كبر باسيل قصد بلد البلغار. وتوفيت أمه وهو هناك، فبلغته وفاتها، فأمر خادماً له أن يدبّر الأمر في غيبته ودام قتاله خمساً وثلاثين سنة، وظفروا به فعاد مهزوماً وأقام بالقسطنطينية وهو يتجهز للعودة، ثم رجع فظفر بهم وقتل ملكهم وسبى أهله وأولاده وملك بلاده، ونقل أهلها الى بلاد الروم. وأسكن البلاد طائفة من الروم. ودام ملكه نيفاً وسبعين سنة، وتوفي ولم يخلف ولداً، فملك أخوه قسطنطين. وبقي الى أن توفي، ولم يخلف غير ثلاث بنات، فملكت الكبرى ـ وتزوجت من أحد أقارب الملك ـ

واسمه أرمانوس ـ وملكته، وبقي مدة، وكان لأرمانوس صاحب له يخدمه قبل ملكه من أولاد بعض الصيارف اسمه ـ ميخائيل ـ فلما ملك حكمه في داره، فمالت زوجة أرمانوس إليه، وعملا الحيلة في قتل أرمانوس، فمرض أرمانوس، فأدخلاه إلى الحمام كارهاً، وخنقاه، وأظهرا أنه مات في الحمام. وملكت زوجته ميخائيل وتزوجته على كره من الروم. وعرض لميخائيل صرع لازمه وشوه صورته، فعهد بالملك بعده الى ابن أخت له اسمه ميخائيل أيضاً. فلما توفي ملك ابن أخته وأحسن السيرة، وقبض على أهل خاله وإخوانه وهم أخواله، وضرب الدنانير باسمه (سنة ٤٣٣ هـ = ١٠٤١ م) ثم أحضر زوجته بنت الملك وطلب منها أن تترهّب وتنزع نفسها من الملك، فأبت، فضربها وسيرها الى جزيرة في البحر. ثم عزم على القبض على البطرك، والاستراحة من تحكمه عليه؛ إذ كان لا يقدر على مخالفته؛ فطلب إليه أن يعمل له طعاماً في دير ذكره بظاهر القسطنطينية ليحضر عنده، فأجابه البطرك الى ذلك، وخرج إلى الدير ليعمل ما قال الملك، فأرسل الملك جماعة من الروس والبلغار، واتفق معهم على قتله سراً. فقصدوه ليلاً وحصروه في الدير، فبذل لهم مالاً كثيراً، وخرج متخفياً، وقصد الكنيسة ـ البيعة ـ التي يسكنها، وضرب الناقوس، فاجتمع الروم عليه، ودعاهم الى عزل الملك، فأجابوه الى ذلك؛ وحصروا الملك في دار، فأرسل الملك إلى زوجته وأحضرها من الجزيرة التي نفاها إليها، ورغب في أن ترد عنه، فلم تفعل، وأخرجته إلى بيعة يترهّب فيها. ثم إن البطرك والروم نزعوا زوجته من الملك وملكوا أختاً لها صغيرة ـ واسمها تذورة ـ وجعلوا معها خدم أبيها يدبرون الملك، ووقعت الحرب بالقسطنطينية بين من يتعصّب له وبين من يتعصّب لتذورة والبطرك. فظفر أصحاب تذورة بهم ونهبوا أموالهم. ثم إن الروم افتقروا الى ملك يدبرهم، فكتبوا أسماء جماعة يصلحون للملك في رقاع، ووضعوها في بنادق طين؛ وأمروا من يخرج منها بندقة وهو لا يعرف باسم من فيها. فخرج اسم ـ قسطنطين ـ فملكوه، وتزوجته الأخت الكبيرة، واستنزلت أختها الصغيرة ـ تذورة ـ عن الملك بمال بذلته لها. واستقر قسطنطين في الملك سنة ٤٣٤ هـ = ١٠٤٢ م فخرج عليه فيها خارجي من الروم اسمه أرميناس ـ ودعا إلى نفسه، فكثر جمعه حتى زادوا على عشرين ألفاً، فسير قسطنطين جيشاً كثيفاً

ظفر بالخارجي وقتله وحمل رأسه الى القسطنطينية. وأسر من أصحابه مائة رجل، فشهروا في البلد، ثم أطلقوا وأعطوا نفقة، وأمروا بالانصراف إلى أي جهة أرادوا. واستقر قسطنطين دوكاس في حكم بلاد الروم باسم (قسطنطين العاشر). كانت مراكز القوى الاساسية في دولة الروم ـ البيزنطيين ـ هي ثلاثة: حاشية البلاط المسيطرة على الإدارة المركزية، وأسر النبلاء الذين يهيمنون على الجيش وقياداته ثم الكنيسة التي كانت تحاول باستمرار اقامة التوازن بين البلاط والجيش بحكم صلتها الوثيقة بالطرفين.

لقد حاول قسطنطين دوكاس جهده اكتساب دعم مراكز القوى الثلاثة. ولكنه واجه مشكلة صعبة بسبب نضوب موارد دولته، الأمر الذي حمله على تقليص حجم جيش بلاده تقليصاً لم تعرفه من قبل. الأمر الذي أفسح المجال أمام الأتراك السلاجقة للتوغل والوصول حتى حدود القسطنطينية (حيث أمكن لها السيطرة على مدينة سيواس سنة ٤٥١ هـ = ١٠٥٩ م).

ضمت الامبراطورية البيزنطية، مثلها كمثل الدولة العباسية، شعوباً شتى، ولقد كان لذلك دوره في دعم الجيوش بالقدرات القتالية، فتألف الجيش معظمه من المرتزقة الأجانب منهم الشماليون الذين يؤلفون حرس الورنك، والنورمان والفرنج من غرب أوروبا والصقالبة من الشمال؛ والترك من براري جنوب روسيا، فضلاً عن البجناك والكومان والغز. ولم يكن هؤلاء يهتمون كثيراً بتحقيق النصر، ولو أنهم كانوا بطبيعتهم مقاتلين أشداء. ولقد كان وجود هذه الكثرة من الغرباء مصدر قلق لأبناء بيزنطة، ومصدر اضطراب أيضاً على نحو ما حدث سنة ٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ م. عندما وقع الخبر بالقسطنطينية ان الملك قسطنطين قد قتل ابنتي الملك السابق، فاجتمع أهل البلد وأثاروا الفتنة وطمعوا في النهب؛ فأشرف عليهم قسطنطين وسألهم عن السبب في ذلك، فقالوا: «قتلت الملكتين وأفسدت الملك» فقال: «ما قتلتها» وأخرجها، حتى رآها الناس فسكنوا. ثم إنه سأل عن سبب الفتنة، فقيل له إنه فعل الغرباء، وأشاروا بإبعادهم. فأمر فنودي بالبلد أن لا يقيم في القسطنطينية أحد ممن دخلها وأقام فيها منذ ثلاثين سنة، فمن بقي بعد ثلاثة أيام كحل ـ سملت عيناه ـ فخرج أكثر من مائة ألف انسان من المسلمين والنصارى وسائر الانواع الأخرى. ولم يبق فيها سوى

اثني عشر نفساً ضمنهم الروم فتركهم الملك وأذن لهم بالبقاء.

يمكن ان يضاف الى ذلك ما حدث في هذه السنة ذاتها (٤٣٥ هـ) عندما وصل الى القسطنطينية عدد كثير من الروس في البحر. وراسلوا قسطنطين ملك الروم بما لم تجر به عادتهم، فاجتمعت كلمة الروم على حربهم، وكان بعضهم قد غادر المراكب، ونزل الى البر، فيما بقي بعضهم في مراكبهم، فألقى الروم في مراكبهم النار، فلم يهتدوا الى إطفائها، فهلك كثير منهم بالحرق والغرق. وأما الذين على البر فقاتلوا وأبلوا وصبروا ثم انهزموا، فلم يكن لهم ملجأ، فمن استسلم أولاً استرق وسلم، ومن امتنع حتى أخذ قهراً قطع الروم أياديهم اليمنى وطيف بهم في البلد، ولم يسلم منهم إلاّ اليسير، مع ابن ملك روسيا.

توفي قسطنطين العاشر سنة ٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م. فخلفه على الحكم ابنه الصغير ميخائيل السابع بوصاية أمه الامبراطورة ايدوسيا. وتزوجت ايدوسيا في السنة التالية من القائد الأعلى للجيش ـ رومانوس ديوجين ـ ورفعته الى العرش. وكان رومانوس جندياً فائقاً ووطنياً صادقاً، غير أنه كان عاجزاً عن انقاذ الامبراطورية من وضعها المتردي، وقد حاول استعادة أرمينيا والقسم الشرقي من قبضة الاتراك السلاجقة فهزمه ألب أرسلان في ملاز كرد وأسره (سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م). وأثناء ذلك، كانت السحب القاتمة تتجمع في سماء الغرب، ولم تلبث هذه السحب أن تفجّرت معلنة بداية الحروب الصليبية القديمة.

٢ - الموقف على الجبهة الإسلامية.

كان على الدولة العباسية ان تواجه منذ بداية ظهور أمرها مجموعة من المشكلات المعقدة - داخلياً وخارجياً؛ ولعل معالجة المشكلات الخارجية كان أكثر سهولة من معالجة المشكلات الداخلية. فقد كان على خلفاء بني العباس اتخاذ تدابير الحيطة والحذر بصورة دائمة من منافسيهم في الشرعية - أبناء عمومتهم من الأمويين والطالبيين - ولئن كان العداء متمكناً ضد الأمويين، فقد كانت منافسة الطالبيين قوية. ولقد قامت الدعوة العباسية على اكتاف الطالبيين - نسبة لسلالة علي بن أبي طالب رضي الله عنه - والعباسيين، ثم انفرد العباسيون في الحكم، فكان لا بد لهم من الانقلاب على حلفاء الأمس - الطالبيين - والتعامل معهم بمثل ما كان يعاملهم به الأمويون. وكان هذا الموقف سبباً في حدوث ثورات واضطرابات كثيرة، استطاع خلفاء بني العباس استيعابها والقضاء عليها بمزيج من العنف المتطرف، والقسوة البالغة وحسن المعاملة ومراعاة صلة القرابة والرحم. والقصص في هذا المجال كثير، منها ما حدث سنة ١٤٧ هـ = ٧٦٤ م عندما دبّر المنصور قتل عبدالله بن علي بن عباس. فأصدر أمره بعزل عيسى بن موسى عن ولاية الكوفة، وعيّن مكانه محمد بن سليمان بن علي - واستدعى إليه عيسى وقال له: «يا عيسى - إن عبدالله بن علي بن عباس أراد ان يزيل النعمة عني وعنك، وأنت ولي عهدي بعد المهدي. والخلافة صائرة إليك - فخذ عبدالله واضرب عنقه، وإياك أن تخور، فتنقض عليّ أمري الذي دبرت». ووقع عيسى بن موسى في حيرة من أمره - فدعا كاتبه يونس بن فروة - وقال له: «إن المنصور قد دفع إليّ عمّه، وأمرني بقتله». فأجابه ابن فروة: «أراد المنصور ان يقتلك ويقتله. أمرك بقتله سراً. ثم يدعيه عليك علانية، ثم يقيدك به» وسأل عيسى بن موسى كاتبه: «فما الرأي؟» وأجابه ابن فروة: «الرأي أن تستره في منزلك، فلا تطلع على أمره أحداً، فإن طلبه منك علانية دفعته إليه علانية، ولا تدفعه إليه سراً أبداً. فإنه وإن كان أسره إليك، فإن أمره سيظهر». ومضى المنصور الى الحج. وكتب الى عيسى

ابن موسى ثلاث مرات وسأله ما فعل في الأمر الذي أوعز إليه فيه؟ فكتب إليه: « قد أنفذت ما أمرت به » فلم يشك أبو جعفر في أنه قد فعل ما أمره به؛ وأنه قد قتل عبدالله بن علي بن عباس. فلما رجع المنصور من الحج، دس إلى عمومته من يحركهم على طلب الاسترحام لعبدالله بن علي، وأطمعهم في أنه سيعفو عنه، فجاؤوا إليه وكلموه واستعطفوه، وذكروا له الرحم، وأظهروا له رقة، فقال المنصور: « نعم؛ علي بعيسى بن موسى » وجاء عيسى فقال له المنصور: « يا عيسى! قد علمت أني دفعت إليك عمّي وعمّك عبدالله بن علي قبل خروجي الى الحج. وأمرتك أن يكون في منزلك » وأجاب عيسى: « قد فعلت ذلك يا أمير المؤمنين » فقال له المنصور: « فقد كلّمني عمومتك فيه، فرأيت الصفح عنه وتخلية سبيله فأتنا به ». ورد عليه عيسى: « يا أمير المؤمنين! ألم تأمرني بقتله، فقتلته؟ ». فقال له المنصور: « ما أمرتـك بقتلـه، إنما أمرتك بحبسه في منزلك » ورد عيسى: « قد أمرتني بقتله » فقال المنصور: « كذبت؛ ما أمرتك بقتله » ثم قال لعمومته: « إن هذا قد أقر لكم بقتل أخيكم، وادعى أني أمرته بذلك، وقد كذب » قالوا: « فادفعه إلينا نقتله به » فقال المنصور: « شأنكم به » فأخرجوه الى الرحبة، واجتمع الناس، وشهر الأمر، وقام أحدهم فشهر سيفه، وتقدّم إلى عيسى ليضربه، فقال له عيسى: « أفاعل أنت؟ » قال: « إي والله ». عندها قال عيسى: « لا تعجلوا، ردوني إلى أمير المؤمنين » فردوه إليه، فقال له: « إنما أردت بقتله أن تقتلني. هذا عمّك حي سوِيّ. إن أمرتني بدفعه إليك دفعته » قال له المنصور: « ائتنا به » فأتاه به. وقال له: « دبرت علي أمراً فخشيته، فكان كما خشيت، شأنك وعمّك » فقال المنصور: « يدخل حتى أرى رأيي » ثم انصرفوا. ثم أمر المنصور بوضع عبدالله بن علي بن عباس في بيت أساسه ملح، وأجرى في أساسه الماء فسقط عليه فمات.

ودفن في مقابر باب الشام. وكان عبدالله بن علي هذا قد توارى بالبصرة عند ـ سليمان بن علي ـ عندما طلبه المنصور، فأشرف يوماً ومعه بعض مواليه وموالي لسليمان بن علي، فنظر الى رجل له جمال وكمال، يمشي التخاجي، ويجر أثوابه من الخيلاء، فالتفت إلى مولى لسليمان بن علي، فقال: من هذا؟ قيل له: « فلان ابن فلان الأموي » فاستشاط غضباً، وصفق بيديه عجباً، وقال: « إن طريقنا لنبكاً بعد ».

ونادى مولى له، وقال له، انزل فأتني برأسه ـ وأسرى الفتى وجاء برأس الأموي(*).

كان على خلفاء بني العباس أيضاً خوض صراع مرير ضد الفرس الطامعين بالاستيلاء على الخلافة العباسية، فقد كانت خراسان هي مهد الدعوة العباسية، بها نشأت وترعرعت؛ وبدعم أهلها تم الاستيلاء على بغداد وإزالة الخلافة الأموية. ولقد عرف بنو العباس لأهل خراسان فضلهم في دعم الدولة، غير أنهم لم يكونوا على استعداد لتسليم الخلافة لسواهم. فكان قتل أبي مسلم الخراساني على يدي أبي جعفر المنصور، ثم كانت نكبة البرامكة على يدي الرشيد هي بعض الظواهر الأولى لهذا الصراع، والذي لم يلبث أن تطور الى دعوات منحرفة هدفها الإسلام بالدرجة الأولى ثم الخلافة العباسية ذاتها. وقد اكتست هذه الدعوات في معظم الأحيان بظاهرة التشيع لأهل البيت، أو الدعوة باسمهم، أو حتى انتحال النسب والقرابة والاتصال بهم، لتخفي وراءها **تعاليم الكفر والزندقة**. وقد ظهر ذلك منذ سنة ١٤١ هـ = ٧٥٨ م، ولما يمض على قيام الدولة العباسية سوى بضع سنين، حيث ظهر قوم من أهل خراسان، حملوا **اسم الراوندية**، وهم من رأي أبي مسلم الخراساني صاحب دعوة بني هاشم. وقالوا بتناسخ الأرواح فزعموا أن روح آدم قد حلت في عثمان بن نهيك؛ وأن ربّهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور. وأن ـ الهيثم بن معاوية ـ هو جبرئيل. وأتوا قصر المنصور فجعلوا يطوفون به، ويقولون: هذا قصر ربنا. فأرسل المنصور إلى رؤسائهم فحبس منهم مائتين، فغضب أصحابهم وقالوا: «علام حبسوا؟» وأمر المنصور الا يجتمعوا، فأعدوا نعشاً وحملوا السرير ـ وليس في النعش أحد ـ ثم مرّوا في المدينة. حتى صاروا على باب السجن، فرموا بالنعش؛ وهجموا على الناس هجمة واحدة، ودخلوا السجن، فأخرجوا أصحابهم، وقصدوا نحو المنصور وهم يومئذ ستمائة

(*) النبكة: أكمة محدودة الرأس، وربما كانت حمراء، ولا تخلو من الحجارة. وقد تمثل عبدالله بن علي ابن عيسى ـ عندما أمر بقتل الأموي وحمل رأسه إليه:

علامَ، وفيم نترك عبد شمس ... لها في كل راعية ثغاء

فما بالرمس في حران منها ... ولو قتلت بأجمعها وفاء.

انظر تاريخ الطبري: أحداث سنة ١٤٧ و ١٥٨ هـ.

رجل(*). فتنادى الناس، وغلقت أبواب المدينة، فلم يدخل أحد، وخرج المنصور بنفسه لقتالهم - في المدينة الهاشمية بالكوفة. ودارت معركة قاسية، انتهت بقتلهم جميعاً.

لقد أخذت حركة الزندقة شكلاً خطيراً عندما تمكنت من اكتساب واحد من - بني هاشم - وهو ما ورد في أخبار سنة ١٦٩ هـ = ٧٨٥ م. حيث عمل الخليفة موسى الهادي على التشدد في طلب الزنادقة، ومطاردتهم. وكان المهدي قد استدعى إليه زنديقاً هو ابن لداود بن علي. كما استدعى إليه يعقوب بن الفضل بن عبدالرحمن ابن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب الهاشمي لزندقته. وجلس إليهما في مجلسين متفرّقين، فقال لكل واحد منهما كلاماً واحداً، وذلك بعد أن أقرّا له بالزندقة. أما يعقوب بن الفضل فقال له: «أقر بها بيني وبينك، فأما أن أظهر ذلك عند الناس، فلا أفعل ولو قرضتني بالمقاريض». فقال له المهدي: **«ويلك! لو كشفت لك السموات، وكان الأمر كما تقول، كنت حقيقاً أن تغضب لمحمد، ولولا محمد ﷺ، من كنت؟ هل كنت إلاّ إنساناً من الناس! أما والله لولا أني كنت قد جعلت لله علي عهداً إذا ولاني هذا الأمر ألاّ أقتل هاشمياً، لما ناظرتك ولقتلتك». ثم التفت إلى ابنه موسى الهادي فقال له، «يا موسى، أقسمت عليك بحقي إن وليت هذا الأمر بعدي ألا تناظرهما ساعة واحدة».** فمات ابن داود بن علي في الحبس قبل وفاة المهدي وأما يعقوب، فبقي حتى مات المهدي، وقدم موسى الهادي من جرجان، فساعة دخل ذكر وصية المهدي، فأرسل الى يعقوب من ألقى عليه فراشاً، وأقعدت الرجال عليه حتى مات، وحمل بعد أن انتفخ وأروح، ودفن في

(*) ورد في تاريخ الطبري - أحداث سنة ١٥٨ هـ - ما يلي: «كان رجل من الراوندية يقال له الأبلق، وكان أبرص، فتكلم بالغلو، ودعا بالراوندية إليه، فزعم ان الروح التي كانت في عيسى ابن مريم صارت في (علي بن أبي طالب) ثم في الأئمة في واحد بعد واحد الى ان وصلت الى - ابراهيم بن محمد - وأنهم آلهة. واستحلوا الحرمات، فكان الرجل منهم يدعو الجماعة منهم الى منزله، فيطعمهم ويسقيهم ويحملهم على امرأته. فبلغ ذلك - أسد بن عبدالله - فقتلهم وصلبهم، فلم يزل ذلك فيهم الى اليوم. فعبدوا أبا جعفر المنصور، وصعدوا الى الخضراء، فألقوا أنفسهم كأنهم يطيرون، فلا يبلغ أحدهم الأرض إلاّ وقد تفتت وخرجت روحه. وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح، فأقبلوا يصيحون بأبي جعفر: أنت، فقاتلهم، فأقبلوا يقولون وهم يقاتلون: أنت، أنت. ويعنون بذلك: أنت الله.

بستان(*). ثم تجرد موسى الهادي لمطاردة الزنادقة، فقتل منهم جماعة. فكان ممن قتل منهم - يزدان بن باذان، كاتب يقطين - كما قتل ابنه - علي بن يقطين - من أهل النهروان، ذكر عنه أنه حج فنظر الى الناس في الطواف يهرولون، فقال: « ما أشبههم إلاّ ببقر تدوس في البيدر »[1] فقتله موسى ثم صلبه.

تلك كانت البدايات لحركات أكثر تطوراً، وأشد قوة. أما على الجبهة الخارجية، فقد وجد الروم فرصتهم لإعادة بناء قوتهم وتبني سياسة عسكرية جديدة. وكذلك الأمر بالنسبة لبقية الجبهات. فقد ذكر على سبيل المثال في أحداث سنة ١٤٧ هـ = ٧٦٤ م. أن استرخان الخوارزمي قد خرج في جمع من الترك على المسلمين بناحية أرمينية، فأغار على المسلمين وسبى منهم ومن أهل الذمة خلقاً كثيراً. ودخل تفليس، ولما علم أبو جعفر المنصور - وجه لحربهم جيشاً بقيادة - جبرئيل بن يحيى، وكتب الى والي أرمينية - حرب بن عبدالله الراوندي - وكان مقيماً بالموصل في ألفين من الجند لمكان الخوارج الذين بالجزيرة. وأمره بالتوجه لحرب استرخان الخوارزمي. وسار جبرئيل بن يحيى ومعه حرب - إلاّ أن استرخان انتصر عليهما، وقتل حرب وهزم جبرئيل وأصيب من المسلمين جمع كبير. فلما كانت السنة التالية: ١٤٨ هـ = ٧٦٥ م. وجّه المنصور جيشاً بقيادة - حميد بن قحطبة - الى أرمينية، فسار حميد الى أرمينية - فوجد أن استرخان وقواته قد ارتحلوا عن تفليس - فدخلها. ولم تكن هذه الغزوة إلاّ

(*) ورد في تاريخ الطبري - أحداث سنة ١٦٩ هـ - بشأن يعقوب هذا ما يلي: « كان ليعقوب ولد من صلبه: عبدالرحمن والفضل وأروى وفاطمة. فأما فاطمة فوجدت حبلى. فأدخلت وامرأة يعقوب بن الفضل - وليست بهاشمية يقال لها خديجة - فأقرتا بالزندقة، وأقرت فاطمة أنها حامل من أبيها. فأرسل بهما الى - ريطة بنت أبي العباس - فرأتهما مكتحلتين مختضبتين، فعذلتهما ووجهت إليهما اللوم - وأكثرت على الابنة خاصة، فقالت: أكرهني. فقالت لها ريطة: فما بال الخضاب والكحل والسرور إن كنت مكرهة؟! ولعنتها. وضرب على رؤوسهما بشيء يقال له - الرعبوب - ففزعتا منه فماتتا ».

(١) وفي ذلك قال له العلاء بن الحداد الأعمى: ممتدحاً موسى الهادي:

أيـــا أميـــن الله في خلقـــه	ووارث الكعبـــة والمنبـــر
مـــاذا تـــرى في رجـــل كـــافـــر	يشبـــه الكعبـــة بـــالبيـــدر؟
ويجعـــل النـــاس إذا مـــا سعـــوا	حمـــراً تـــدوس البـــر والدوسر!

نموذجاً مصغراً لما سيسفر عنه تطور الصراع على مختلف الجبهات. تأتي بعد ذلك **حروب الوراثة** ـ مثل تلك التي وقعت بين الأمين والمأمون ـ[1] لتشكل نموذجاً آخر للحروب بين مراكز القوى بعضها ضد بعض. ولقد وقع بعض حروب الوراثة هذه بين العباسيين ذاتهم ـ فيما وقعت حروب أخرى بين مراكز القوى بعضها ضد بعض. ولقد كانت مراكز القوى هذه بدورها تطوراً لنماذج (البرامكة) و (للحرب بين المدن). لقد تحرك الشرق الآسيوي بعنف كبير مع قيام الدولة العباسية؛ ونهضت شعوب مختلفة من رقادها وقد أيقظ فيها الإسلام روحاً جديدة ومفاهيم جديدة، وجاءت هذه الشعوب من فرس وترك وأكراد وديلم وسواها لتأخذ دورها في بناء الدولة الإسلامية. ولم تفهم هذه الشعوب جميعها دين الإسلام فهماً واحداً، وساعد في سوء هذا الفهم انتشار دعوات متنوعة ـ استندت في كثير من الأحيان على أفكار وثنية أو جاهلية. فكان الاحتكاك بين هذه الشعوب والصراع فيما بينها من طبيعة الأمور، وهو يشابه إلى حد ما موقف الشعوب البرابرة التي اجتاحت أوروبا في القرون الأولى التي عاشت مهد المسيحية، ثم قامت هذه الشعوب رغم اعتناقها المسيحية بتدمير دولة المسيحية ـ الرومان في ايطاليا ـ. وهنا أيضاً؛ كان للجند دورهم الاساسي البنّاء والمدمّر في آن واحد، فهم قد عملوا على حماية الإسلام والدفاع عنه، إلا أنهم في الوقت ذاته أثاروا حروباً وصراعات داخلية لا نهاية لها. ولقد استطاع خلفاء بني العباس في الصدر الأول من عهدهم مجابهة كافة الانحرافات، والقضاء على كافة الثورات وأعمال التمرد، ببعض من الجهد. كما أمكن لهم استيعاب الاحتكاكات بين جند الشعوب المختلفة واستيعابها في جند واحد يخضع للخلافة والقادة الذين يعينهم الخليفة، ولكن ومع انتهاء الصدر العباسي الأول أصبح الأجناد هم الذين يتحكمون ـ عن طريق قادتهم، بدار الخلافة. وصارت مراكز القوى، تفرض وجودها بقوة السلاح قبل ان تحصل على اعتراف الخليفة بها. وكان باستطاعة الخليفة على كل حال، حجب اعترافه وثقته بهذه المراكز ـ إن هو وجدها منحرفة عن الدين الإسلامي أو متجاوزة لحدوده ـ وقد تم ذلك في مرات كثيرة. فكان حجب الثقة عن مثل هذه المراكز،

---

(١) انظر قراءات في آخر الكتاب (خلفاء بني العباس).

وعدم الاعتراف بشرعيتها، هو بمثابة توجيه لمراكز القوى الأخرى حتى تقوم بمحاربتها والقضاء عليها. وهكذا؛ وعبر الصراع المسلح، كان الدين الإسلامي يكتسب قوته، ويتزايد عمقاً ورسوخاً في نفوس أبناء الشعوب المختلفة. ولم يكن الخليفة يمثل دور الحكم بين مراكز القوى، استناداً لسلطته الدينية والدنيوية، وذلك وفقاً لما تحاول بعض التفسيرات الخاطئة للأحداث إبرازه، وإنما كان دور الخليفة هو الطرف الدائم في كل صراع حتى ولو كان دوره محدوداً من الناحية المادية، إذ بقي للخليفة باستمرار من القدرة ما يستطيع بواسطتها التأثير على تيار الأحداث وتحويلها أو تطويرها لما فيه خير المسلمين عامة. لقد كان الخليفة يتربّع على قمة هرم مرتفع، يرقب الأحداث من حوله، كما يفعل القائد في المعركة، فيوجّه القوى نحو الهدف. مع احتفاظه بقدر كاف من القوى الاحتياطية لحسم الصراع في النهاية لمصلحة المسلمين عامة وليس لمصلحة شعب واحد، أو قوة واحدة. ولقد تميزت سياسة الخلفاء العباسيين بالثبات تجاه الأحداث وذلك لاستنادها إلى قاعدة راسخة هي كتاب الله وسنة رسوله. ولئن جرت بعض التبدلات في ظروف زمنية محدودة. فإن مسيرة الاحداث قد برهنت في النهاية على ثبات خط ـ أو اتجاه ـ الخلفاء في الادارة والحكم. وهذا ينفي دور التناقضات المرحلية في التأثير على الدين الإسلامي ـ من حيث إقامة الحدود والالتزام بها ـ.

٢ - ثورة الزط - ٢١٩ - ٢٢٠ هـ.

لعل (ثورة الزط) هي أول حركة كبيرة منحرفة، ففي سنة ٢١٩ هـ = ٨٣٤ م قام الزط بقطع طريق البصرة، بقيادة رجل اسمه محمد بن عثمان، كان صاحب أمره والقائم بالحرب لديه رجل اسمه سملق - وقد عمل الزط على نهب الغلاّت من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة، وأخافوا السبيل، فوجه أمير المؤمنين المعتصم قوة لمحاربتهم بقيادة - عجيف بن عنبسة - ورتب الخيل على كل طريق من طرق البريد لموافاته بالأخبار بسرعة، فكان الخبر يخرج من عند عجيف، فيصل الى المعتصم من يومه. فلما صار عجيف الى واسط، أقام معسكره بقرية أسفل واسط يقال لها - الصافية - ومعه خمسة آلاف رجل. وصار عجيف الى نهر يحمل من دجلة يقال له - بردودا - فلم يزل مقيماً عليه سدة. ووجه عجيف قوة من خمسة آلاف رجل بقيادة هرون بن نعيم بن الوضاح - القائد الخراساني - الى نجيدا - وسد عجيف أنهاراً أخر كان الزط يدخلون منها ويخرجون، فحصرهم من كل وجه. ثم حاربهم وأسر منهم خمسمائة رجل، وقتل منهم في المعركة ثلاثمائة رجل. فضرب أعناق الأسرى وبعث برؤوس جميعهم الى باب المعتصم. ثم أقام عجيف بإزاء الزط خمسة عشر يوماً. فظفر منهم بخلق كثير. واستمر في حصارهم وقتالهم بعد ذلك تسعة أشهر، وضاقت عليهم الأرض، فخرجوا وطلبوا منه الأمان فآمنهم على دمائهم وأموالهم. وكانت عدتهم سبعة وعشرين ألف إنسان بين رجل وامرأة وصبي. ثم جعلهم في السفن، وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية، وأقام بها يوماً، ثم عبأهم في زواريقهم على هيئتهم في الحرب، معهم البوقات، حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٠ هـ = ٨٣٥ م. ووقف المعتصم في سفينة بالشماسية؛ واستعرض الزط. وأقاموا في سفنهم ثلاثة أيام، ثم عبر بهم الى الجانب الشرقي، فدفعوا إلى - بشر بن السميدع - فذهب بهم الى خانقين، ثم نقلوا

الى الثغر - الى عين زربة - فأغارت عليهم الروم، فاجتاحوهم، فلم يفلت منهم أحد(*).

(★) وفي ذلك قال شاعرهم:

يا أهل بغداد موتوا دام غيظكم	شوقاً الى تمر برني وشهريز
نحن الذين ضربناكم مجاهرة	قسراً وسقناكم سوق المعاجيز
لم تشكروا الله نعماهُ التي سلفت	ولم تحوطوا أياديه بتعزيز.
فاستنصروا العبد من أبناء دولتكم	من يازمان ومن بلج ومن توز
ومن شناس وأفشين، ومن فرج	المعلمين بديباج وإبريز.
واللابسي كميخار الصين قد خرطت	أردانه درز برواز الأخاريز
يغري ببيض من الهندي هامهم	بنو بهلة في أبناء فيروز
ليس الجلاد جلاد الزط فاعترفوا	أكل الثريد ولا شرب القواقيز.
نحن الذين سقينا الحرب درتها	ونقنقنا مقاساة الكواكيز.
لسفهنكم سفهاً يبذل له	ربّ السرير ويشجي صاحب التيز
فابكوا على التمر ابكى الله أعينكم	في كل اضحى وفي فطر، ونيروز

٤ ـ ثورة بابك الخرمي ـ ٢٠١ ـ ٢٢٢ هـ.

لقد جاءت ثورة الزط بصورة اعتراضية لثورة سبقتها ـ واستمرت بعدها، هي ثورة ـ بابك الخرمي ـ الذي تحرك سنة ٢٠١ هـ = ٨١٦ م بالجاويذانية ـ وهم أصحاب حاكم البذ، جاويذان بن سهل، وادعى ان روح جاويذان دخلت فيه، وأخذ في العبث والفساد. فحاول أمير المؤمنين ـ المأمون ـ القضاء على هذه الثورة ـ فوجه قوات عجزت عن محاربتها، منها جيش بقيادة صدقة بن علي المعروف بزريق أرمينية وأذربيجان، ولكن بابك الخرمي تمكن من هزيمة الجيش وأسر قائده (سنة ٢٠٩ هـ = ٨٢٤ م). واستمر ارسال الحملات إلاّ أن بابك الخرمي نجح في إلحاق الهزيمة بجيوش الخليفة، وقتل من قواده جماعة، فلما كانت سنة ٢٢٠ هـ = ٨٣٥ م. وتولى المعتصم الخلافة، وجه جيشاً لقتال بابك بقيادة ـ **الأفشين خيذر بن كاوس** ـ. كما وجه أبا سعيد محمد بن يوسف إلى ـ أردبيل ـ وأمره ببناء الحصون التي خرّبها بابك فيما بين زنجان وأردبيل، وأن يضع في المسالح ـ مراكز المراقبة المتقدمة ـ رجالاً لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة والمواد التموينية الى أردبيل. فتوجه أبو سعيد لذلك، وبنى الحصون التي خرّبها بابك. ووجه بابك سرية له بقيادة رجل يقال له معاوية للإغارة على بعض النواحي. وعلم أبو سعيد بذلك، فجمع الناس، وخرج للقاء السرية، واشتبك معها فقتل منها جماعة وأسر جماعة أخرى واستنقذ ما كانت قد نهبته سرية معاوية في إغارتها. ووجه أبو سعيد الرؤوس والأسرى إلى المعتصم بالله، فكانت هذه هي أول هزيمة نزلت بقوات بابك. ثم كانت الهزيمة الثانية على يد ـ محمد بن البعيث ـ صاحب قلعة حصينة تسمى ـ شاهي ـ في ناحية أذربيجان. وقد أعمل الحيلة وتمكن من أسر أحد قادة بابك ـ واسمه عصمة من أصبهبذته ـ وقتل عد كبير من أفراد سريته، وإرساله **إلى المعتصم الذي عمل على استجواب ـ عصمة ـ بنفسه، وعرف منه طبيعة البلاد**

التي يعتصم فيها بابك وطرقها ووجوه القتال فيها. وأثناء ذلك كان - الافشين - قد وصل بجيشه الى - برزند - وأصلح الحصون فيما بين برزند وأردبيل، وأنزل قوة من جيشه بموضع يقال له - خش - بقيادة محمد بن يوسف - وأمره بحفر خندق حول موضعه. كما أنزل قوة أخرى بموضع يسمى - أرشق - وأمره أيضاً بحفر خندق حول حصنه. وترك قوة ثالثة في حصن أردبيل بقيادة علويه الأعور. ونظم حراسة القوافل وتأمين الطرق بحيث تقوم كل قوة من هذه القوى بتأمين الحراسة في قطاع عملها. كما نظّم اعمال الاستطلاع والجاسوسية. وكان كلما صار الى أحد القادة، أو الى أحد المسالح - المخافر المتقدمة - أحد من الجواسيس، وجهوه الى الافشين، فكان الافشين لا يقتل الجواسيس ولا يضربهم، ولكن يهب لهم، ويصلهم ويسألهم ما كان بابك يعطيهم، فيضعفه لهم. ويقول للجاسوس: «كن جاسوساً لنا».

علم - بابك - بواسطة جواسيسه أن الخليفة المعتصم قد أرسل الى قائده الافشين مالاً لدفع عطاء جنده وللنفقات. وأن القائد - بغا الكبير - هو الذي حمل المال ووصل به الى أردبيل؛ فتهيأ بابك وأصحابه لنصب كمين من أجل الاستيلاء على هذا المال. ولكن - صالح الجاسوس - جاء فأخبر الافشين بأن بابك الخرمي قد أعد الكمائن في عدد من المواضع للغدر بالقائد بغا الكبير، والاستيلاء على ما يحمله. لم يكن - الافشين - ليتحرك قبل أن يستوثق من صحة معلومات - الجاسوس صالح - فأرسل إلى أبي سعيد وأمره أن يحتال لمعرفة صحة خبر بابك. فمضى أبو سعيد متنكراً هو وجماعة من أصحابه حتى نظر إلى النيران والوقود في المواضع التي وصفها لهم صالح. فلما استوثق الافشين من صحة المعلومات، أرسل الى - بغا الكبير - وطلب إليه البقاء بأردبيل حتى تأتيه تعليمات أخرى. ثم أتبع ذلك برسالة طلب فيها إلى بغا الكبير - التظاهر بأنه يريد الرحيل، وأن يحمل المال على الإبل، ويقطرها، ويسير متوجهاً من أردبيل كأنه يريد - برزند - فإذا صار الى مسلحة النهر، وسار عنها مسافة كافية، توقف، وأمر مفرزة الحراسة المرافقة للقافلة بمتابعة السير الى - برزند - ثم العودة بالمال الى أردبيل. ففعل ذلك بغا، وانصرف جواسيس بابك إليه؛ وأعلموه أنهم عاينوا المال محمولاً حتى

وصل الى النهر. وركب الافشين في اليوم ذاته، فوصل الى ـ خش ـ مع غروب الشمس ـ ونزل معسكراً خارج خندق أبي سعيد، **فلما أصبح ركب في سر، لم يضرب طبلاً ولا نشر علماً، وأمر أن يلفّ الأعلام، وأمر الناس بالسكوت، وسار مسرعاً يريد الوصول الى القوة المتمركزة في ـ حصن النهر بقيادة الهيثم الغنوي ـ.** وتعبأ بابك في خيله ورجاله وعساكره، ووصل الى طريق النهر. ووصلت القافلة فهاجمها بابك وهو لا يشك ان المال معها؛ وقاتله رجال القافلة، فقتلهم بابك جميعاً هم ومن معهم من الجند والسابلة، وأخذ جميع ما كان معهم من المتاع وغيره. وعرف بابك أن المال قد فاته. **فأخذ علم قائد القافلة، ولباس جنده ودراريعهم وطراداتهم، فألبسها جماعته، وجاؤوا الى قرب النهر، حيث الموضع الذي تتولى فيه قوة الهيثم الغنوي مسؤولية حراسة القافلة.** ولكن بابك لم يعرف المكان بدقة. فلما وصل الهيثم ورأى القوة بلباس جند أمير المؤمنين ولكن في غير موضعها، أرسل بعض عناصره للاستطلاع، وعندها أدرك ما فعله بابك، فرحل منصرفاً، وأمر القوة التي كانت معه بالسير سريعاً للوصول الى ـ حصن النهر ـ وسار هو في نفر من أصحابه، يقف بهم قليلاً، ويسير بهم قليلاً، ليشغل الخرمية، حتى عرف ان عناصره قد دخلت الحصن. وعندها أرسل اثنين من المراسلين ـ اختارهما بعناية ـ وكلفهما بتحذير الافشين وإعلامه بما جرى للقافلة. وجاء بابك وجنده فنزل بجوار الحصن وطلب الى الهيثم الغنوي الانسحاب من حصنه وتسليمه. ولم يكن مع الهيثم اكثر من ستمائة راجل وأربعمائة فارس، إلاّ أنه رفض طلب بابك وحاربه بقواته. فقعد بابك فيمن معه، ووضع الخمر بين يديه ليشربها كعادته، فما كانت الحرب مشتبكة. **وأثناء ذلك كان الفارسان المراسلان يطويان الأرض ليصلا الى الأفشين، فوجدا معسكره على مسافة لا تبعد اكثر من فرسخ من ـ أرشق ـ. ووقع نظر الافشين على الفارسين وهما ينحدران نحوه. فقال على الفور: اضربوا الطبل، وانشروا الأعلام، واركضوا نحو الفارسين. ففعل أصحابه ذلك، وأسرعوا السير، وهم يصيحون ما أمرهم الأفشين بترديده: لبّيك، لبّيك! وأسرع الأفشين**

بفرسانه على رأس قواته الجاهزة، وتسارع الجند للّحاق به؛ وهم يتدافعون متسارعين، حتى لحقوا ببابك وهو جالس، ولم يشعر إلاّ وجند الأفشين قد اختلطوا بجنده. واشتبكت الحرب، فلم يفلت من رجال بابك أحد، وأفلت بابك في نفر يسير من أصحابه، ووصل الى موقان، وقد ترك على أرض المعركة اكثر من ألف قتيل من رجاله. وأقام الأفشين ليله في ميدان المعركة، ثم رجع في اليوم التالي الى برزند، وأقام فيها. أما بابك، فقد اقام بموقان أياماً؛ ثم إنه بعث إلى - البذ - فجاءه في الليل عسكر فرحل بهم من موقان وعاد الى البذ. ثم إن قافلة كانت قادمة من خش الى - برزند - حاملة التموين للأفشين وهي بقيادة رجل اسمه صالح أب كش - وتفسيره السقاء - فاعترضتها قوة لبابك بقيادة الاصبهبذ - واستولت على القافلة وقتلت رجالها جيعاً، فقحط عسكر الأفشين. فكتب الأفشين الى حاكم - المراغة - وأمره بإرسال مواد تموينية بأقصى سرعة ممكنة، وأعلمه بما نزل بجنده من القحط والجوع. فأرسل حاكم المراغة قافلة ضخمة، فيها قريب من ألف ثور سوى الحمر والدواب وغير ذلك وهي تحمل الميرة - التموين - ومعها جند يحرسونها - فخرجت عليهم أيضاً سرية لبابك بقيادة طرخان - أو آذين - فاستباحوها عن آخرها، بجميع ما فيها، وأصاب الناس ضيق شديد. فكتب الأفشين الى حاكم - السيروان - ان يحمل إليه طعاماً، فحمل إليه طعاماً كثيراً، وأغاث الناس، وجاء - بغا الكبير - وهو يحمل الى الأفشين المال والرجال. فأعاد الأفشين تنظيم قواته وتجهيزها، **ووجه قوة بقيادة بغا الكبير، وكلّفه بالقيام بالالتفاف من حول - هشتادسر - وأن ينـزل في خندق محمد بن حميد، ويحفره ويحكم تحصينه.** وتحرك أبو سعيد من - خش - كما ارتحل الأفشين وقواته من - برزند -. والتقى مع قوات أبي سعيد بناء على اتفاق مسبق - في موضع يقال له - دروذ -. فاحتفر الأفشين بها خندقاً؛ وبنى حوله سوراً، فكان بينه وبين - البذ - ستة أميال. ثم إن - بغا - تجهّز وحمل معه الزاد من غير أن يكون الأفشين كتب إليه، ولا أمره بذلك. فالتفّ من حول - هشتادسر - حتى دخل الى بلدة - البذ - فنزل في وسطها، وأقام بها يوماً واحداً، ثم وجّه ألف رجل يحملون مواد تموينية، فخرجت

عليهم قوة من جند بابك، فاستباح القافلة التموينية، وقتل جميع من قاتله منهم، وأسر من قدر عليه. ووجّه رجلين من الأسرى لإعلام الأفشين بما تعرّضت له قواته. ورجع الأفشين مع بقية قواته الممزقة الى خندق محمد بن حميد، وكتب الى الأفشين وأعلمه بما تعرضت له قواته من هزيمة وطلب الدعم. فجهّز الأفشين قوة لدعمه، وأرسلها بقيادة أخيه الفضل بن كاوس وعدد من أفضل قادته. واستدارت هذه القوة من حول ـ هشتادسر ـ ووصلت الى خندق بغا؛ فارتفعت الروح المعنوية للجنود ـ وسر أهل عسكر بغا بوصول قوة الدعم. ثم كتب الأفشين الى ـ بغا ـ وأمره ان يقوم بالهجوم على ـ بابك ـ في يوم عينه له ليحاربه من كلا الوجهين. فخرج ـ بغا ـ في اليوم المعين من خندق محمد بن حميد، وصعد الى ـ هشتادسر ـ وعسكر على عدوة بجنب قبر محمد بن حميد، فهاجت ريح باردة ومطر شديد، فلم يكن للناس عليها صبر لشدة البرد وقوة الريح، فانصرف بغا الى معسكره. وأثناء ذلك كان الأفشين قد انطلق من ـ درود ـ وهاجم بابك، وانتصر عليه، وأخذ معسكره وخيمته وامرأة كانت معه في المعسكر. ونزل الأفشين في معسكر بابك. ثم تجهّز ـ بغا في اليوم الثاني، وصعد ـ هشتادسر ـ يريد البذ، ولكن النهار انقضى ولما يقع بغا على معسكر ـ بابك ـ فأرسل الى قائد مقدمته ـ داود سياه ـ من يقول له: «قد توسطنا الموضع الذي نعرفه، وهذا وقت المساء، وقد تعب الرجالة، فانظر جبلاً حصيناً يسع عسكرنا، حتى نعسكرَ فيه ليلتنا هذه». وصعد ـ داود سياه ـ بعض الجبال بحثاً عن المكان المناسب، حتى إذا ما وصل الى قمة مشرفة، رأى أعلام الأفشين ومعسكره عند الأفق البعيد، فقال: «هذا موضعنا الى غدوة، وننحدر من الغد الى الكافر ـ بابك ـ إن شاءالله». فجاءهم في تلك الليلة سحاب، وبرد شديد، ومطر وثلج كثير. فلم يقدر أحد حين أصبحوا أن ينزل من الجبل للحصول على الماء، ولم يتمكن الجند من الشرب أو تأمين سقاية دوابهم، إذ كانوا في نهارهم وكأنهم في ليل من شدة الظلمة والضباب. فلما كان اليوم الثالث قال الناس للقائد بغا: «قد فني ما معنا من الزاد، وقد أضر بنا البرد، فانزل على أي حالة كانت، إما راجعين، وإما لقتال الكافر». وكان ـ بابك ـ قد أفاد من أيام الضباب؛ فهاجم الأفشين ونقض معسكره، فعاد الأفشين الى معسكره

الأول؛ ولم يعلم ـ بغا ـ بذلك، فقام بضرب الطبل وانحدر يريد ـ البذ ـ حتى صار الى بطن الجبل، فنظر الى السماء مشرقة، والدنيا طيبة، فنظّم قواته، في ميمنة وميسرة ومقدمة، وتقدم وهو لا يشك ان الأفشين في موضع معسكره، ومضى حتى صار ملاصقاً لجبل ـ البذ ـ. ولم يبق بينه وبين ان يشرف على بيوت ـ البذ ـ سوى صعود مسافة نصف ميل. وهنا اكتشفت عناصر الاستطلاع ـ في المقدمة ـ حقيقة الموقف، وتوافرت لها المعلومات عن قيام بابك بالهجوم على معسكر الأفشين وتدميره، وأنه قسم قواته الى مجموعتين لمقابلة أي هجوم من أي اتجاه. وعقد ـ بغا ـ مؤتمراً لقادته، وتقرر الانسحاب بسرعة للإفادة من ضوء النهار. فأمر ـ بغا ـ قائد مقدمته ـ داود سياه ـ بالإسراع في التقدّم. فتجنّب داود السير في الطريق الذي كان قد دخل منه إلى ـ هشتادسر ـ مخافة المضايق والعقاب، وسار على الطريق الذي كان قد دخل منه في المرة الأولى والذي يلتف مستديراً حول ـ هشتادسر ـ وليس فيه مضيق إلاّ في موضع واحد. وسار ـ بغا ـ بالناس، وبعث بالمشاة الرجالة، فنالهم تعب شديد حتى انهم طرحوا رماحهم وسلاحهم في الطريق، ودخلتهم وحشة شديدة ورعب، وسار بغا والفضل بن كاوس وجماعة القادة مع المؤخرة ـ الساقة ـ. وظهرت طلائع بابك ـ فكلما نزل هؤلاء جبلاً صعدته طلائع بابك، يتراءون لهم مرة ويغيبون عنهم مرة، وهم في ذلك يقفون آثارهم، حتى كان بين الصلاتين: الظهر والعصر، فنزل بغا ليتوضأ ويصلي. فتدانت منهم طلائع بابك، فبرزوا لهم، وصلى بغا، ووقف في وجوههم، فوقفوا حين رأوه. فتخوف بغا على عسكره ان تهاجه طلائع بابك من جهة، فيما تقوم قوات أخرى لبابك بالالتفاف في بعض الجبال والمضايق. وقال لأصحابه: « لست آمن أن يكونوا قد وضعوا هؤلاء لمشاغلتنا، لحبسنا عن المسير، فيما يقوم أصحابهم لأخذ المضايق على قواتنا ». فقال له الفضل بن كاوس: « ليس هؤلاء أصحاب نهار، وإنما هم أصحاب ليل، وإنما يتخوف على أصحابنا من الليل ». فأرسل بغا مراسلاً الى داود سياه، وأمره بالاسراع في تقدمه وعدم التوقف حتى لو استمر المسير الى منتصف الليل، وذلك الى أن يتم تجاوز المضيق. وقال بغا لأصحابه: « أما نحن فنقف هاهنا، فإن هؤلاء لا يسيرون ما داموا يروننا في وجوههم، فنماطلهم وندافعهم قليلاً قليلاً حتى تجيء

الظلمة. فإذا جاءت الظلمة لم يعرفوا لنا موضعاً. وأصحابنا يسيرون فينفذون أولاً فأولاً. فإن أخذ علينا نحن المضيق، تخلّصنا من طريق هشتادسر أو من طريق آخر». وتقدم أحد القادة الى ـ بغا ـ وقال له: «إن العسكر قد تقطع، وليس يدرك أوله آخره، والناس قد رموا بسلاحهم، وقد بقي المال والسلاح على البغال، وليس معه أحد، ولا نأمن أن يخرج عليه من يأخذه». فقرر ـ بغا ـ ان يعسكر بالناس، وأرسل الى قائد مقدمته داود سياه ـ من قال له: «حيثما رأيت جبلاً حصيناً، فعسكر عليه». وتوجه داود الى جبل لم يكن للناس موضع يقعدون فيه من شدة انحداره. فضرب مضرباً لبغا على طرف جرف في موضع شبيه بالحائط؛ ليس فيه مسلك. وجاء بغا فنزل وأنزل الناس وقد نالهم التعب والإعياء، وفنيت أزوادهم، فعبأهم؛ وباتوا على تعبئة وتحارس من ناحية المصعد، فجاءهم جند بابك من الناحية الأخرى، وباغتوهم، فتعلقوا بالجبل حتى صاروا الى مضرب بغا. فهاجموا المضرب. وخرج بغا راجلاً فوجد دابة فركبها، وانحدر به على معسكر محمد بن حميد، فوافاه في جوف الليل. واستولى جماعة بابك الخرمي على المال والسلاح. وجرح الفضل بن كاوس. وقتل عدد من القادة. وسار الناس منهزمين متقطعين حتى وصلوا الى بغا وهو في خندق محمد بن حميد. وأقام بغا في هذا الخندق خمسة عشر يوماً، فأتاه كتاب من الأفشين أمره فيه بالرجوع الى ـ المراغة ـ وان يعيد قوة الدعم التي كان قد أرسلها إليه. فمضى بغا الى ـ المراغة ـ وعاد الفضل بن كاوس وجميع من كان قد جاء معه ـ فالتحق بمعسكر الأفشين الذي فرق الناس في مشاتيهم لتلك السنة (٢٢١ هـ = ٨٣٦ م). وعلم الأفشين أن أحد كبار قادة بابك ـ واسمه طرخان ـ قد استأذن بابك لقضاء فصل الشتاء في قريته بناحية المراغة، فأذن له. فعمل الأفشين على جمع المعلومات عنه، وأرسل إليه من قتله وبعث برأسه إليه.

أرسل المعتصم بقوة دعم جديدة الى الأفشين بقيادة جعفر بن دينار الخياط، كما أرسل ثلاثين ألف ألف درهم مع ـ ايتاخ ـ عطاء لجند الافشين وللنفقات. فلمّا

انقضى الشتاء، وجاء الربيع من سنة ٢٢٢ هـ = ٨٣٧ م. أعاد تنظيم قواته، وانتقل بها من - برزند - الى موضع يقال له - كلان روذ - فاحتفر فيه خندقاً. وكتب الى أبي سعيد - فجاء بقواته وأقام معسكره في كلان روذ - وتفسيره النهر الكبير - وبينها ثلاثة أميال. وجاءه بعد خمسة أيام من وصوله من أخبره بأن أحد قادة بابك - واسمه آذين - قد زج قواته في مواجهة قوات الأفشين وأنه قد أرسل أفراد أهله - عياله - الى جبل يشرف على - روذ الروذ - فأرسل هذه المعلومات الى الأفشين الذي أرسل إليه أمراً بتوجيه قوة من الفرسان والمشاة بقيادة ظفر بن العلاء السعدي والحسين بن خالد المدائني - الى روذ الروذ - فسارت هذه القوة من كلان روذ، وأمضت ليلتها في مسير شاق حتى انحدرت عبر مضيق لا يمرّ فيه راكب واحد إلاّ بجهد، مما أرغم الفرسان على الترجّل وقيادة خيولهم. والسير بنظام الرتل، رجلاً خلف رجل. ووصلوا قبل السحر الى مشارف - روذ الروذ - وترجل الفرسان ونزعوا ثيابهم وعبروا النهر، وصعدوا الجبل، وأسروا - أهل آذين وبعض ولده، وعبروا بهم. وبلغ آذين الخبر بأخذ عياله. وكان الأفشين عند توجيه هذه القوة، ودخولها المضيق. قد خاف ان يغلق المضيق في طريق عودتها، فأمر مفارز من المشاة باحتلال رؤوس الجبال، ومعهم الأعلام، للإشراف على تحرك قوة الإغارة، حتى إذا ما تعرضت هذه القوة للهجوم، حركوا الأعلام. فبات أفراد هذه المفارز على رؤوس الجبال الشاهقة، فلمّا رجع ظفر بن العلاء بمن أخذوا من عيال آذين، انحدر عليهم رجال آذين، قبل وصولهم الى المضيق، واقتتلوا ووقع بعض القتلى، واستنقذ رجال آذين بعض النساء، هذا فيما كانت قوة أخرى من قوات آذين تنحدر للإمساك بالمضيق. فلمّا رأى الرجال وهم في رؤوس الجبال ذلك، حرّكوا الأعلام. **فوجّه الأفشين كتيبة - كردوساً - بقيادة مظفر بن كيدر، فأسرع هذا بالتحرك، ثم وجّه الأفشين قوة أخرى لدعم القوة السابقة بقيادة أبي سعيد، وأتبعها بقوة ثالثة بقيادة - بخاراخذاه -** فلما رأى رجال آذين عند المضيق ذلك انسحبوا من المضيق وانضموا الى أصحابهم، ونجا ظفر بن العلاء والحسين بن خالد ومن معها من أصحابهم، وجاؤوا جميعاً الى عكسر الأفشين، ومعهم النساء اللواتي أخذوهنّ - من عيال آذين.

قرر ـ الأفشين ـ الارتحال عن كلان روذ والزحف على ـ البذ ـ مدينة بابك وعاصمته، **فجعل يتقدم قليلاً قليلاً؛ على خلاف زحفه قبل ذلك؛** فكان يتقدم الأميال الأربعة، فيعسكر في موضع على طريق المضيق الذي ينحدر الى ـ روذ الروذ ـ ولا يحفر خندقاً، بل يكتفي بإقامة حواجز الحسك ـ. وكتب إليه المعتصم كتاباً أمره فيه بأن يجعل الناس نوائب، بكراديس تقف على ظهور الخيل، كما تتم حراسة المعسكر بالليل. فبعض القوم معسكرون وبعضهم وقوف على ظهور خيولهم، ويتجولون بالليل والنهار حول المعسكر خشية المباغتة، حتى إذا ما دهمهم أمر، كان الناس على استعداد ريثما يأخذ الآخرون حذرهم واستعدادهم. وضج الناس من التعب، وقالوا: **«كم نقعد هاهنا في المضيق، وليس بيننا وبين العدو اكثر من أربع فراسخ، ونحن نفعل فعلاً كأن العدو بإزائنا. وقد استحينا من الناس والجواسيس الذين يمرون بنا. لقد متنا من الفزع ـ أقدم بنا، فإما لنا وإما علينا». وأجابهم الأفشين: «أنا والله أعلم أن ما تقولون حق. ولكن أمير المؤمنين أمرني بهذا، ولا أجد منه بداً».** فلم يلبث ان جاءه كتاب المعتصم وأمره فيه ان يقوم بالاستطلاع الليلي، فقام بتنفيذ ذلك أياماً، ثم انحدر الأفشين وعناصر قيادته حتى نزل ـ روذ الروذ ـ وتقدم حتى شارف الموضع الذي به العدوة، حيث حاربه بابك في العام الماضي. فوجد فيها كردوساً ـ كتيبة ـ من الخرمية، فلم يحاربوه ولم يحاربهم، وقال لهم بعض الخرمية: **«مالكم تجيئون وتعودون ـ أما تستحيون».**
فأمر الأفشين بألا يجيبوهم وألاّ يبرز إليهم أحد، وبقي في موضعه الى الظهر، ثم رجع الى عسكره. فمكث فيه يومين، ثم انحدر أيضاً في أكثر مما كان انحدر في المرة الأولى. وأمر أبا سعيد أن يذهب ليحتل المواقع التي كان يحتلها في المرة السابقة؛ وألا يحركهم ولا يهجم عليهم. وأقام الأفشين بروذ الروذ؛ وأمر **عناصر الاستطلاع ـ الكوهبانية ـ** بالصعود الى رؤوس الجبال التي يظنون أنها حصينة، وأن يقفوا حتى يظهروا له فيها. ثم عليهم أن يختاروا له في رؤوس الجبال مواضع يتحصّن فيها المشاة ـ الرجالة ـ فاختاروا له ثلاثة أجبل ـ جبال ـ قد كانت عليها حصون فيما مضى، فخربت، فعرفها. ثم بعث الى أبي سعيد فوجهه من يومه، فلما مضى يومان على ذلك،

وجه الفعلة - الكلغرية - ومعهم المياه والكعك، وأمرهم بنقل الحجارة وتحصين الطرق التي تسلك الى تلك الجبال الثلاثة، وتحويلها الى حصون. والعمل على حفر خندق على كل طريق وراء تلك الحجارة. فلم يترك مسلكاً الى جبل منها إلاّ مسلكاً واحداً. ثم أمر أبا سعيد بالانصراف، وعاد الأفشين الى معسكره. ومضت أيام، عمل الأفشين بعدها على تزويد رجاله بالكعك والسويق، وتزويد الفرسان بالزاد والشعير، وترك قوة بمعسكره لحمايته والدفاع عنه. ثم وجه قوات المشاة - الرجالة - وأمرهم بالصعود الى رؤوس الجبال ومعهم الزاد والماء وجميع ما يحتاجون إليه. ووجّه أبا سعيد ليقف برجاله على المواقع التي كان يحتلها؛ **وأمر الناس بالنزول في سلاحهم، مع بقاء الخيول مسرجة. وخط الخندق، وأمر الفعلة بالعمل فيه، ووكل بهم من يستحثهم. ونزل هو والفرسان، فوقفوا تحت الشجر في ظل يرعون دوابهم. فلما صلى العصر، أمر الفعلة بالصعود الى رؤوس الجبال التي حصّنها مع المشاة - الرجالة - وأمر هؤلاء ان يتحارسوا وألا يناموا، ويتركوا للفعلة فرصة النوم فوق الجبال، كما أمر الفرسان بالركوب عند اصفرار الشمس، ونظّمهم في كتائب - كراديس - وأمرهم بالوقوف بإزائهم، وترك بين كل كتيبة والكتيبة التي تليها مقدار رمية سهم، وأمر الكتائب جميعها بعدم الالتفاف، وأن تقوم كل كتيبة بتأمين الحماية لنفسها، وبقيت الكتائب قائمة في مواقعها حتى الصباح. ونظّم مفارز استطلاع للمرور على كتائب الفرسان وقوات المشاة طوال الليل.**

ولبثوا في حفر الخندق عشرة أيام، وهم على هذه الحال، وفي اليوم العاشر قسم الخندق بين الناس، وأمر القادة بنقل أثقالهم واثقال جندهم الى الخنادق. وجاء الى الأفشين رسول من قبل بابك، وهو يحمل القثاء والبطيخ والخيار، وقال الرسول بأن بابك يعرف أن الأفشين وجنده في جفاء وأنهم لا يأكلون إلاّ الكعك والسويق. وأن بابك أراد ملاطفة الأفشين بما حمله إليه. فقال الأفشين للرسول: **«قد عرفت أي شيء أراد أخي بهذا، إنما أراد ان يستطلع المعسكر، وأنا أحق من قبل بره، وأعطاه شهوته، فقد صدق. انا في جفاء. ولكن لا بد لك ان تصعد حتى ترى معسكرنا، بعد أن رأيت ما هاهنا، وترى ما وراءنا أيضاً»**. وأمر بإرسال من

يرافق رسول بابك حتى يصعد ويرى الخندق، ويرى خندق كلان روذ وخندق برزند، ولينظر الى الخنادق الثلاثة ويتأملها، وألا يخفى عليه منها شيء، ليخبر بها صاحبه ـ بابك ـ.

ثم جاءت الخرمية بعد ذلك في ثلاثة كراديس ـ كتائب ـ حتى صاروا قريباً من خندق الأفشين، وهم يصيحون. فأمر الأفشين الناس ألا ينطق أحد منهم، ففعلوا ذلك ليلتين أو ثلاث ليال، فلما أنسوا، هيأ لهم الأفشين أربعة كراديس من الفرسان والمشاة ـ الرجالة ـ وكانت المشاة من الرماة ـ الناشبة ـ فكمنوا لهم في الأودية، ووضع عليهم الجواسيس ـ العيون ـ. فلما انحدروا في وقتهم الذي كانوا ينحدرون فيه في كل مرة، وصاحوا وجلبوا كعادتهم، هاجمتهم الفرسان والمشاة من كمائنهم، وقطعوا عليهم طريق تراجعهم. وأخرج الأفشين إليهم كتيبتين من المشاة في جوف الليل، فعرفوا ان المضيق ـ العقبة ـ قد بات مغلقاً في وجوههم، فتفرقوا في عدة طرق، فراحوا يتسلقون الجبال. ولم يعودوا الى ما كانوا يفعلون. ورجع الناس من المطاردة مع صلاة الفجر، ولم يلحقوا من الخرمية أحداً.

كان الأفشين يأمر بضرب الطبول نصف الليل؛ في كل اسبوع. ويخرج بالشمع والنفاطات ـ المشاعل ـ الى باب الخندق. فصار كل مقاتل يعرف مكانه في كتيبته، وتعرف كل كتيبة موقعها؛ في الميمنة او في القلب او في الميسرة؛ فيخرج الناس فيقفون في مواقفهم ومواضعهم. وكان الأفشين يحمل اعلاماً سوداً كباراً عددها اثنا عشر علماً، يحملها على البغال ولم يكن يحملها على الخيل لئلا تزعزع. وكانت طبوله الكبار واحداً وعشرين طبلاً، وكانت الأعلام الصغار نحواً من خمسمائة علم. فيقف كل فرق على مرتبتهم من ربع الليل، حتى إذا طلع الفجر، ركب الأفشين من مضربه، فيؤذن المؤذن بين يديه، ويصلي، ثم يصلي بالناس بغلس، ثم يأمر بضرب الطبول، ويسير زحفاً، وكانت علامته في المسير والوقوف تحريك الطبول وسكونها، لكثرة الناس،

ومسيرهم في الجبال والطرقات على مصافهم، كلما استقبلوا جبلاً صعدوه، وإذا هبطوا الى واد مضوا فيه. إلا ان يكون جبلاً منيعاً لا يمكنهم صعوده وهبوطه، فإنهم كانوا ينضمون الى العساكر، ويرجعون إذا جاؤوا الى الجبل الى مصافهم ومواضعهم. وكانت علامة المسير ضرب الطبول؛ فإن أراد أن يقف أمسك عن ضرب الطبول. فيقف الناس جميعاً من كل ناحية على جبل، أو في واد، أو في مكانه. وكلما جاءه عنصر استطلاع أو جاسوس - كوهباني - بخبر وقف قليلاً. وكان يسير هذه الستة الأميال التي بين روذ الروذ وبين البذ، ما بين طلوع الفجر الى الضحى الأكبر، فإذا اراد ان يصعد الى العدوة التي وقعت عليها الموقعة في السنة السابقة، وضع قوة على رأس العقبة من ألف فارس وستمائة راجل بقيادة - بخاراخذاه - للمحافظة على الطريق ومنع الخرمية من السيطرة عليه إذا ما حاولوا ذلك. وكان بابك إذا شعر أنه قادم إليه وجه عسكراً الى واد يقع تحت تلك العقبة التي كان يتمركز فيها - بخاراخذاه - ويكمنون لمن يريد أن يأخذ عليه الطريق. وكان من عادة الأفشين ان يقف مع - بخاراخذاه - للدفاع عن هذه العقبة وحمايتها، لمنع قوات بابك من السيطرة عليها. وكان - بخاراخذاه - يقف بها أبداً، مادام الأفشين وقواته داخل البذ على العدوة. وكان الأفشين يأمر - بخاراخذاه - بالوقوف على واد فيما بينه وبين البذ. كما كان الأفشين يأمر أبا سعيد محمد بن يوسف، بعبور ذلك الوادي بقوة كتيبة، ويأمر جعفراً الخياط ان يقف أيضاً مع كتيبة من قواته. ويأمر أحمد بن الخليل بالوقوف مع كتيبة ثالثة، فيصير في جانب ذلك الوادي ثلاثة كتائب. ومقابل ذلك، كان بابك يخرج قوة من جيشه بقيادة - آذين - فيقف على تل بإزاء هذه الكتائب الثلاثة، خارج البذ، لئلا يتقدم أحد من عساكر الأفشين الى باب البذ. وكان الأفشين يقصد الى باب البذ، ويأمرهم إذا عبروا بالوقوف فقط؛ وترك المحاربة. وكان بابك إذا أحس بعساكر الأفشين أنها قد تحركت من الخندق تريده، فرق أصحابه في كمائن بحيث لا يترك معه إلا نفراً يسيراً. وبلغ ذلك الأفشين، غير أنه لم يتمكن من معرفة المواضع التي يكمنون فيها. ثم أتاه الخبر بأن الخرمية قد خرجوا جميعاً، ولم يبق مع بابك إلا شرذمة من أصحابه. **وكان الأفشين إذا صعد الى ذلك**

الموضع بسط له نطع ووضع له كرسي، وجلس على تل مشرف يشرف على باب قصر بابك، وكتائب الناس وقوف. من كان معه من جانب هذا الوادي نزل عن دابته. ومن كان من ذاك الجانب مع أبي سعيد وجعفر الخياط وأصحابه وأحمد بن الخليل، لم ينزل لقربه من العدو، فهم وقوف على ظهور خيولهم. **وينشر شبكات عناصر استطلاعه - الكوهبانية - ليفتشوا الأودية، على أمل تحديد مكان الكمائن، فيعرفها**. فكانت هذه حالته في التفتيش الى بعد الظهر. والخرمية بين يدي بابك يشربون النبيذ - ويزمرون، ويضربون بالطبول، حتى إذا صلى الأفشين صلاة الظهر، انحدر الى خندقه بروذ الروذ. فكان أبو سعيد هو أول من ينحدر بقوته، ثم يتبعه احمد بن الخليل، ويلحق بهما جعفر بن دينار، ثم ينصرف الأفشين، وكان مجيئه ذلك مما يغيظ بابك وانصرافه. فإذا دنا الانصراف، ضربوا بصنوجهم، ونفخوا بوقاتهم استهزاء. أما - بخاراخذاه - فكان لا يبرح من العقبة التي هو عليها حتى يتجاوزه الناس جميعاً، ثم ينصرف في أثرهم. فلما كان في بعض أيامهم، ضجرت الخرمية من المعادلة والتفتيش الذي يجري عليهم، فلما انصرف الأفشين وانصرفت قواته، فتح الخرمية باب خندقهم، وخرج منه عشرة من الفرسان. وهاجموا بعض قوات المؤخرة، وارتفعت الضجة بين الجند، فرجع جعفر الخياط بكتيبته وحمل على اولئك الفرسان حتى ردّهم الى - باب البذ -. ثم وقعت الضجة في العسكر، فرجع الأفشين فشاهد جعفر وأصحابه وهم يقاتلون. وخرج بابك بعدة فرسان. ولم يكن معه مشاة ووقعت اشتباكات بين فرسان الطرفين. وصعد الأفشين الى المكان الذي اعتاد على الجلوس عليه. وكان في كتيبة أبي دلف قوم من المطوعة، من أهل البصرة وغيرهم، فلما ارتفعت الضجة، ونظروا الى جعفر وهو يحارب، انحدروا بغير امر الأفشين، وعبروا الى ذلك الجانب من الوادي، حتى وصلوا الى جانب - البذ - فتعلقوا به، وكادوا يصعدونه ويدخلون البذ، ووجه جعفر الى الأفشين: «أن أمدني بخمسمائة رجل من رماة النشاب، فإني أرجو أن أدخل البذ إن شاءالله، ولست أرى في وجهي إلاّ هذا الكردوس الذي تراه أنت، فقط» فأجابه الأفشين: «لقد أفسدت علي أمري، فتخلّص قليلاً قليلاً وخلّص أصحابك وانصرف». وكانت الضجة قد

ارتفعت من المطوعة حين تعلّقوا بالبذ، فظنت الكمائن التي وضعها بابك بأن **الحرب قد** وقعت، فخرجوا من كمائنهم، وظهر أن هناك كميناً تحت معسكر ـ بخاراخذاه ـ وكميناً آخر تحت العدوة التي كان يجلس الأفشين فوقها، وتحركت الخرمية، والناس وقوف على رؤوسهم لم يتحرك منهم أحد. فقال الأفشين: «**الحمدلله الذي بين لنا مواضع هؤلاء ـ أصحاب الكمائن**».

عندما انسحب جعفر وكتيبته ومن التحق به من المطوعة، جاء الى الأفشين وقال له: «إنما وجهني سيدي أمير المؤمنين للحرب التي ترى، ولم يوجهني للقعود هاهنا، وقد قطعت بي في موضع حاجتي؛ لقد كان يكفيني خمسمائة رجل فقط حتى أدخل البذ، وأقتحم جوف داره، لأني قد رأيت من بين يدي». فقال له الأفشين: «**لا تنظر الى ما بين يديك، ولكن انظر الى خلفك، وإلى الذين وثبوا ببخاراخذاه ـ وأصحابه**». فقال الفضل بن كاوس لجعفر الخياط: «لو كان الأمر إليك ما كنت تقدر ان تصعد الى هذا الموضع الذي انت عليه واقف، حتى تقول: كنت وكنت...» فردّ عليه جعفر: «هذه الحرب؛ وها أنا واقف لمن جاء». فقال له الفضل: «لولا مجلس الأمير لعرفتك نفسك الساعة» فصاح بهما الأفشين، فأمسكا. وأمر أبا دلف ان يرد المطوعة عن السور، فقال ابو دلف للمطوعة: «انصرفوا» فجاء رجل منهم ومعه صخرة، فقال: «اتردنا، وهذا الحجر أخذته من السور». فقال له: «إذا انصرفت الساعة، فستعرف من كان ينتظرك على طريقك، وماذا كان ينتظرك». وهنا قال الأفشين لأبي سعيد ـ وجعفر يستمع: «**أحسن الله جزاءك عن نفسك وعن أمير المؤمنين. فإني ما علمتك عارفاً بأمر قيادة الجند وسياستها، ليس كل من حفّ رأسه يقول: إن الوقوف في الموضع الذي يحتاج إليه هو خير من المحاربة في الموضع الذي لا يحتاج إليه. لو وثب هؤلاء الذين تحتك ـ وأشار الى الكمين الذي تحت الجبل ـ كيف كنت ترى هؤلاء المطوعة؟ ومن كان يجمعهم؟ الحمدلله الذي سلمهم، قف هاهنا ولا تبرح حتى لا يبقى هاهنا أحد**». وانصرف الأفشين، وكان من سنته أنه إذا بدأ بالانصراف، انحدر علم الكراديس وفرسانه

ومشاته، والكردوس الآخر واقف بينه وبينه قدر رمية سهم، لا يدنو من العقبة، ولا من المضيق، حتى يرى انه قد عبر كل من في الكردوس الذي يتقدمه، وأن الطريق قد أصبح خالياً، فيقترب عندها الكردوس الآخر وينحدر، وهكذا تسير الكراديس متتابعة، وقد عرف كل كردوس مكانه في تنظيم المسير، حتى إذا عبرت الكراديس كلها، ولم يبق أحد، انحدر ـ بخاراخذاه ـ. وكان الجند كلما مرّوا بموضع بخاراخذاه، نظروا الى موضع الكمين، وعرفوا ما كان ينتظرهم على يد جند بابك الذين ظهروا في الكمين.

أقام الأفشين في خندقه ـ بروذ الروذ ـ أياماً، فشكا إليه المطوعة الضيق في العلوقة والأزواد والنفقات، فقال لهم: «من صبر منكم فليصبر، ومن لم يصبر فالطريق واسع، فلينصرف بسلام. معي جند أمير المؤمنين، ومن هو في أرزاقه، يقيمون معي في الحر والبرد. ولست أبرح من هاهنا حتى يسقط الثلج». فانصرف المطوعة وهم يقولون: «لو ترك الأفشين جعفراً وتركنا لأخذنا البذ، هذا لا يشتهي إلا المماطلة». فبلغه ذلك، وما كثر المطوعة فيه؛ ويتناولونه بألسنتهم، وأنه لا يحب المناجزة ـ وإنما يريد التطويل. حتى قال بعضهم إنه رأى في المنام: أن رسول الله ﷺ قال له: «قل للأفشين، إن أنت حاربت هذا الرجل، وجددت في أمره، وإلا أمرت الجبال ان ترجمك بالحجارة». فتحدث الناس بذلك في العسكر علانية. فبعث الأفشين الى رؤساء المطوعة، فأحضرهم، وقال لهم: «أحب ان تروني هذا الرجل، فإن الناس يرون في المنام أبواباً» فأتوه بالرجل في جماعة من الناس، فسلم عليه، فقربه الأفشين وأدناه وقال له: «قص علي رؤياك، لا تحتشم ولا تستحي، فإنما تؤدي». وقصّ الرجل ما رآه في المنام، فلمّا فرغ، قال له الأفشين: **«الله يعلم كل شيء قبل كل أحد، وما أريد بهذا الخلق. إن الله تبارك وتعالى لو أراد أن يأمر الجبال ان ترجم أحداً لرجم الكافر، وكفانا مؤنته. كيف يرجمني حتى أكفيه مؤنة الكافر؟ كان يرجمه ولا يحتاج ان اقاتله أنا! وأنا اعلم ان الله عزّ وجلّ لا تخفى عليه خافية، فهو مطلع على قلبي، وما أريد بكم يا مساكين»**. فقال رجل من المطوعة من أهل الدين: «يا

أيها الأمير! لا تحرمنا شهادة إن كانت قد حضرت، وإنما قصدنا وطلبنا ثواب الله ووجهه. فدعنا وحدنا حتى نتقدم بعد أن يكون بإذنك، فلعل الله أن يفتح علينا» فردّ عليه الأفشين: «إني أرى نياتكم حاضرة، وأحسب هذا الأمر يريده الله، وهو خير إن شاءالله. وقد نشطتم ونشط الناس، والله أعلم ما كان هذا رأيي. وقد حدث الساعة لما سمعت من كلامكم، وأرجو ان يكون أراد هذا الأمر وهو خير. اعزموا على بركة الله أيَّ يوم أحببتم حتى نناهضهم؛ ولا حول ولا قوة إلاّ بالله!». فخرج القوم مستبشرين، وبشروا أصحابهم، فأقام من كان يريد الانصراف، ورجع من كان قد خرج وابتعد مسيرة أيام. ووعد الناس ليوم حدده، وأمر الجند والفرسان والمشاة - الرجالة - وجميع الناس بالأهبة والاستعداد. **وخرج الأفشين في الموعد، وحمل المال والزاد، ولم يبق في المعسكر بغل إلاّ ووضع عليه محمل للجرحى، وأخرج معه من المطببين - الاطباء - وحمل الكعك والسويق وغير ذلك مما يحتاج إليه، وزحف الناس حتى صعد - البذ -.** وخلف - بخاراخذاه - في موضعه الذي كان يخلفه عليه على العقبة، ثم طرح النطع ووضع له الكرسي، وجلس عليه كما كان يفعل. وقال لأبي دلف: «قل للمطوعة، أي ناحية هي أسهل عليكم فاقتصروا عليها». وقال لجعفر: «العسكر كله بين يديك، ورماة النشاب والنفاطون، فإن أردت رجالاً دفعتهم إليك، فخذ حاجتك وما تريد» فقال جعفر: «أريد أن أقصد الموضع الذي كنت عليه» فقال له الأفشين: «امض إليه». ودعا أبا سعيد فقال له: «قف بين يدي أنت وجميع أصحابك ها هنا، ولا يبرحنّ منكم احد» ودعا أحمد بن الخليل فقال له: «قف أنت وأصحابك، ودع جعفراً يعبر وجميع من معه من الرجال، فإن أراد رجالاً أو فرساناً أمددناه، ووجهنا بهم إليه».

انحدر أبو دلف والمطوعة الى الوادي، وصعدوا الى حائط البذ من الموضع الذي كانوا قد صعدوا عليه في المرة السابقة. وعلقوا بالحائط على حسب ما كانوا فعلوا ذلك اليوم، وحمل جعفر حملة قوية حتى ضرب باب البذ، على نحو ما كان قد فعل في المرة

السابقة أيضاً، ووقف على الباب. وقاوم الكفرة مقاومة ضارية طوال ساعة من الزمن، فوجّه الأفشين رجلاً معه بدرة دنانير، وقال له: « اذهب الى أصحاب جعفر، فقل، من تقدّم فاحث له ملء كعك». ودفع الأفشين بدرة أخرى الى رجل آخر من أصحابه، وقال له: « اذهب الى المطوعة، ومعك هذا المال والأطواق والأسورة، وقل لأبي دلف: كل من رأيته محسناً من المطوعة وغيرهم، فأعطهم». ونادى **صاحب الشراب** فقال له: « اذهب فتوسط الحرب معهم حتى أراك بعيني، معك السويق والماء، لئلا يعطش القوم فيحتاجوا الى الرجوع» وكذلك فعل بأصحاب جعفر في الماء والسويق، **ودعا الفعلة** ـ الكلغرية ـ فقال له: « من رأيته في وسط الحرب من المطوعة، وفي يده فأس، فله عندي خمسون درهماً» ودفع إليه بدرة دراهم ـ وفعل مثل ذلك بأصحاب جعفر، فوجه اليهم الفعلة بأيديهم الفؤوس.

اشتبكت الحرب على الباب طويلاً، ثم فتح الخرمية الباب، وخرجوا على أصحاب جعفر، فنحوهم عن الباب، وشدوا على المطوعة من الناحية الأخرى، فأخذوا منهم علمين وطرحوهم عن السور، وجرحوهم بالصخر حتى أثروا فيهم، وأرغموهم على التوقف. وصاح جعفر بأصحابه، فتقدم منهم مائة رجل تقريباً، فبركوا خلف تراسهم التي كانت معهم، وواقعوهم متحاجزين، لا يقدم هؤلاء على اولئك، ولا اولئك يستطيعون التقدم الى هؤلاء، وصلى الناس الظهر وهم على هذه الحال. وكان الأفشين قد نصب عرادة وراء جعفر ـ عند الباب ـ فدافع عنها جعفر حتى صارت العرادة فيما بينهم وبين الخرمية ولم يتمكن جعفر من تخليصها إلاّ بعد جهد، فاقتلعوها وردوها الى المعسكر. واستمر الاشتباك بالسهام والحجارة. وخاف الأفشين ان يطمع الخرمية بجنده، فوجه قوة المشاة حتى وصلت الى موضع المطوعة، وبعث الى جعفر بكتيبة من المشاة، فقال جعفر لقائد الكتيبة: « لست أوتى من قلة الرجالة، ومعي رجال فرة، ولكني لست أرى للحرب موضعاً يتقدمون. إنما هاهنا موضع لرجل أو رجلين قد وقفوا عليه. وانقطعت الحرب». ولما رأى الأفشين فشل الهجوم، أرسل الى جعفر:

« انصرف على بركة الله ». وبعث الأفشين بالبغال التي عليها المحامل، فحملت عليها الجرحى، ومن أصابه وهن من الحجارة فلم يتمكن من السير. وأمر الناس بالانصراف. فانصرفوا الى خندقهم ـ بروذ الروذ ـ وأيس الناس من الفتح تلك السنة. وانصرف اكثر المطوعة.

تجهز الأفشين بعد جمعتين، وبعث ألف رجل من المشاة ـ رماة النشاب ـ ودفع الى كل واحد منهم شكوة ـ قربة ـ وكعكاً. ودفع الى بعضهم اعلاماً سوداً وغير ذلك، وأرسلهم عند مغيب الشمس، وبعث معهم أدلاء، فساروا ليلتهم في جبال منكرة صعبة، حتى استداروا ووصلوا الى خلف التل الذي يحتله قائد بابك ـ آذين ـ وهو جبل شاهق، وأمرهم ألا يعلم بهم أحد، حتى إذا رأوا اعلام الأفشين، وصلوا الغداة ورأوا الوقعة، ركبوا تلك الأعلام في الرماح، وضربوا الطبول، وانحدروا من فوق الجبل، ورموا بالنشاب والصخر على الخرمية، وإن هم لم يروا الأعلام، لم يتحركوا حتى يأتيهم خبره، ففعلوا ذلك. ووصلوا رأس الجبل عند السحر. وملؤوا تلك الشكاء ـ القرب ـ بالماء من الوادي. ولما كان في بعض الليل، وجه الأفشين الى القادة ان يتهيؤوا في السلاح. فإنه سيركب في السحر. **ولما مضى جوف الليل، وجه قوة بقيادة بشير التركي ومعه قادة من الفراغنة ـ أهل مدينة فرغانة ـ وأمرهم بالسير حتى يصيروا تحت التل، مع أسفل الوادي الذي حمل منه الماء. وهو تحت الجبل الذي كان يحتله ـ آذين ـ.** وكان الأفشين يعرف بأن الكافر يكمن تحت ذلك الجبل. وتوجه بشير والفراغنة الى ذلك الموضع، وساروا في بعض الليل، ولا يعلم بهم اكثر أهل معسكر الأفشين. فلمّا كان السحر، خرج الأفشين، وأخرج الناس، وأخرج النفاطين والنفاطات والشمع؛ على نحو ما كان يفعله عادة. وصلى الغداة، وضرب الطبل، وركب حتى وصل الى الموضع الذي كان يقف فيه في كل مرة، وبسط له النطع، ووضع له الكرسي كعادته. ولم يقف ـ بخاراخذاه ـ عند العقبة، خلافاً لعادته، فقد أمره الأفشين بالسير في المقدمة. وأنكر الناس هذه التعبئة للوهلة الأولى. وأمر الأفشين قادته بالاقتراب من التل الذي يحتله

ـ آذين ـ للإحاطة به، وكان ينهاهم عن ذلك أيضاً في المرات السابقة. **فمضى الناس حتى صاروا حول التل، وكان جعفر الخياط وقوته، مما يلي باب البذ، وكان أبو سعيد مما يليه؛ وبخاراخذاه مما يلي أبا سعيد، وأحمد بن الخليل بن هشام مما يلي بخاراخذاه، فصاروا جميعاً حلقة حول التل،** وارتفعت الضجة من أسفل الوادي.
وإذا الكمين الذي تحت التل حيث كان يقف ـ آذين ـ وقد وثب ببشير التركي والفراغنة، فحاربوهم واشتبكت الحرب بينهم. وسمع أهل العسكر ضجتهم، فتحرك الناس، فأمر الأفشين ان ينادوا: « **أيها الناس! هذا بشير التركي والفراغنة، وقد اصطدموا بكمين فلا تتحركوا** ». ولما سمع المشاة ـ رماة النشاب ـ ضجيج المعركة، وقفوا في أماكنهم فوق الجبل، وركبو الأعلام كما أمرهم الأفشين، فنظر الناس الى أعلام تجيء من جبل شاهق، ومعها رجال ينحدرون من فوقهم يريدون ـ آذين ـ. وفزع الناس لأول وهلة، فأرسل إليهم الأفشين من يطمئنهم ويقول لهم: « **أولئك هم رجالنا ونجدتنا على آذين** ». ولما رأى ـ آذين ـ الرجال وهم ينحدرون من أعالي الجبل، أرسل إليهم بعض رجاله من الخرمية، فاشتبكوا معهم. **وحمل جعفر الخياط وأصحابه على آذين وأصحابه حتى صعدوا إليهم، وحملوا عليهم حملة واحدة، فقلبوه وأصحابه في الوادي. وتوجهت قوة من رجال أبي سعيد، فوقعت مع خيولها في أبار محفورة قد أعدها ـ آذين ـ مسبقاً، فوجّه الأفشين الفعلة ـ الكلغرية ـ لاقتلاع حيطان المنازل وردم تلك الآبار، ففعلوا، وكان آذين قد أعد عجلاً فوق الجبل وعليه صخر، فلما حمل الناس عليه، دفع العجل على الناس، فأفرجوا عنها حتى تدحرجت ثم عادوا فحملوا على آذين من كل وجه. ورأى بابك أصحابه وقد أحيط بهم، فأسرع بالخروج من البذ ومعه جماعة، يسألون عن مكان الأفشين، ويطلبون مقابلته، واستقبله الأفشين فقال بابك: « أريد الأمان من أمير المؤمنين ». فقال له الأفشين: « قد عرضت عليك هذا، وهو مبذول متى شئت » وأجاب بابك: « قد شئت الآن على ان تؤجلني أجلاً** أحمل فيه عيالي وأتجهز ». فقال له الأفشين: « قد والله نصحتك غير مرة، فلم تقبل نصيحتي، وأنا انصحك الساعة، **خروجك اليوم في الأمان خير من غد** » وأجاب

بابك: « قد قبلت أيها الأمير، وأنا على ذلك » فقال له الأفشين: « فابعث بالرهائن الذين كنت سألتك » وأجاب بابك: « نعم، أما فلان وفلان، فهم على ذلك التل، فمر أصحابك بالتوقف». وبعث الأفشين رسولاً من قبله لإيقاف الإقتتال، فرجع الرسول بسرعة، وقال للأفشين، بأن أعلام الفراغنة قد ارتفعت على بيوت البذ، وعلى قصور بابك. فركب الأفشين، وصاح بالناس، فدخل البذ ودخلوا. وكان بابك قد كمّن في قصوره (وهي أربعة) ستمائة رجل، فوافوهم الناس. وصعدوا فوق القصور. وامتلأت شوارع البذ وميدانها بالناس، وفتح أولئك الكمناء أبواب القصور، وخرجوا للقتال. وأفاد بابك من ذلك، فدخل الوادي الذي يلي - هشتادسر - واشتغل الأفشين وجميع قواده بالحرب على أبواب القصور. فقاتل الخرمية قتالاً شديداً، وأحضر النفاطين، فجعلوا يصبون عليهم النفط والنار، والناس يهدمون القصور، حتى قتلوا عن آخرهم. وأخذ الأفشين أولاد بابك ومن كان معهم من عيالاتهم في البذ، واستمروا في ذلك حتى أدركهم المساء، فأمر الأفشين بالإنصراف، فانصرفوا. وبقي عامة الخرمية في البيوت، ورجع الأفشين وجنده الى خندقهم - بروذ الروذ -. وعلم بابك، ان الأفشين قد رجع الى خندقه، فعاد الى البذ، وحمل وأصحابه من الزاد ما امكنهم حمله، وحملوا أموالهم، ثم توجهوا الى الوادي الذي يلي هشتادسر. فلما كان في الغد، خرج الأفشين من خندقه، ودخل البذ، وأمر بهدم القصور، ووجه قوات المشاة لارتياد أطراف البلدة والطواف بها، فلم يجدوا فيها أحداً من الخرمية. فأصعد الفعلة، فهدموا القصور وأحرقوها، وتابع ذلك لمدة ثلاثة أيام الى ان تمّ إحراق كافة القصور، ولم يدع في البذ بيتاً ولا قصراً إلا أحرقه وهدّمه. وأيقن ان بابك قد هرب ووصل الى واد يصل به الى أرمينية. فكتب الى ملوك أرمينية وبطارقتها، وأعلمهم أن بابك قد هرب ومعه بعض أصحابه الى واد يخرج به الى ناحية أرمينية. وهو قد يمر بكم، وأمرهم ان يحفظ كل واحد منهم ناحيته، وجاء الجواسيس الى الأفشين، فأخبروه بموضعه في الوادي، وكان وادياً كثير العشب والشجر، طرفه بأذربيجان وطرفه الآخر بأرمينية. ولم يكن باستطاعة الخيل النزول إليه او التجول فيه، وكان من المحال العثور على من يختفي فيه لكثرة شجره ومياهه؛ وكان الوادي يشكل غابة واحدة متصلة.

ونظم الأفشين خمس عشر كتيبة - كـردوسـاً - في كـل منهـا أربعمائـة الى خمسمائة مقاتل، ووضع كتيبة عند كل موضع يعلم ان فيه طريقاً ينحدر الى تلك الغابة؛ أو يمكن لبابك أن يخرج منه، ووجه معهم عناصر الاستطلاع والإدلاء لمساعدتهم، وأمرهم بحراسة الطريق في الليل خاصة حتى لا يخرج منه أحد، وكان يرسل لكل كتيبة ما تحتاجه من المواد التموينية. واستمروا في ذلك حتى وصل كتاب من أمير المؤمنين المعتصم، مختوماً بالذهب، وفيه - **أمان لبابك** - فدعا الأفشين من كان استأمن إليه من أصحاب بابك، وفيهم ابن له كبير هو أكبر ولده - فقال له وللأسرى: **«هذا ما لم أكن أرجوه من أمير المؤمنين، ولا أطمع له فيه، وأن يكتب إليه وهو في هذه الحال بأمان، فمن يأخذه منكم ويذهب به إليه؟».**
فلم يجسر على ذلك أحد منهم، ثم قال أحدهم: «أيها الأمير! ما فينا أحد يجترىء أن يلقاه بهذا» فقال له الأفشين: «ويحك! إنه يفرح بهذا» فقال الرجل: «أصلح الله الأمير! نحن أعرف بهذا منك» وعندها قال الأفشين: «لا بد لكم من أن تهبوا لي أنفسكم، وتوصلوا هذا الكتاب إليه». فقام رجلان منهم، فقالا له: «اضمن لنا أنك تجري على عيالاتنا» فضمن لهما الأفشين ذلك، وأخذا الكتاب وتوجها، وطافا كثيراً في الغابات حتى أمكن لهما العثور عليه. فدفعا إليه كتاب الأمان - وكتاباً من ابنه كان قد كتبه له وطلب فيه إليه قبول الأمان لأن ذلك له أفضل وأخير. فقرأ بابك كتاب ابنه ثم التفت الى الرجلين. وقال لهما: «ماذا كنتم تصنعون؟» فقالا له: «أسر عيالتنا وصبياننا في تلك الليلة، ولم نعرف موضعك فنأتيك. وكنا في موضع تخوفنا ان يأخذونا، فطلبنا الأمان» فقال بابك لمن حمل له الكتاب: «هذا لا أعرفه، ولكن انت يا ابن الفاعلة، كيف اجترأت على هذا ان تجيئني من عند ذاك ابن الفاعلة؟». فأخذه وضرب عنقه، وشدّ كتاب الأمان على صدره مختوماً لم يفضه. ثم قال للآخر: «اذهب، وقل لذاك ابن الفاعلة - يقصد ابنه». وكتب اليه: «**لو أنك لحقت بي، واتبعت دعوتك حتى يجيئك الأمر يوماً، كنت ابني. وقد صحّ عندي الساعة فساد أمك الفاعلة، يا ابن الفاعلة! عسى أن أعيش بعد اليوم! قد كنت باسم هذه الرياسة، وحيثما كنت أو ذكرت، كنت ملكاً، ولكنك من جنس لا خير**

فيه. وأنا أشهد أنك لست بابني. لأن تعيش يوماً واحداً وأنت رئيس، خير من أن تعيش أربعين سنة وأنت عبد ذليل!». وارتحل بابك من موضعه، وأرسل مع الرجل ثلاثة من أتباعه حتى وصلوا به الى مكان يوصله الى معسكر الأفشين، وعادوا فالتحقوا ببابك الذي مضى يضرب في الغابات، وعيون الأفشين تطارده، والأرض تضيق من حوله، حتى عرفه قائد أحد الحصون، فاستضافه، وتظاهر أنه من أشد أتباعه إخلاصاً له وحرصاً على خدمته وسلامته، حتى إذا ما استأمن، واستأنس، قام قائد الحصن بتسليمه الى جند الأفشين. وكان يوماً مشهوداً في معسكر الأفشين، عندما حمل بابك الى المعسكر، حيث اصطف الجند لرؤية هذا الذي طالما أتعب الجند وأرهقهم. وكتب الأفشين الى المعتصم بـأخذ بابك وأخاه، فكتب المعتصم إليه يأمره بحملها الى بغداد (*) وخرجت عاصمة بني العباس لرؤية بابك، وقد حمل على فيل (**). ووضع في قباء ديباج وقلنسوة سمور مدوّرة. وأحضر المعتصم جزّاراً فقطع يديه ورجليه وشقّ بطنه وحمل رأسه الى خراسان وصلب بدنه بسامرا. وأمر بحمل أخيه - عبدالله - الى مدينة السلام. وضرب عنقه، وأن يفعل به مثل ما فعل بأخيه - وانتهت الثورة التي طالما أرهقت أمير المؤمنين المعتصم، وأقلقت دولته. لعل ممّا يظهر

لعل ممّا يظهر مدى اهتمام المعتصم بأمر بابك، هو تنظيمه للبريد من أجل الحصول على أخبار بابك وللتغلب على فساد الطريق بالثلج وغيره. فجعل من سامرا إلى عقبة حلوان خيلاً مضمرة، على رأس كل فرسخ فرساً معه مجر مرتب. فكان يركض بالخبر ركضاً حتى يؤديه من واحد إلى واحد يداً بيد، وكان ما خلف حلوان إلى أذربيجان قد رتبوا فيه الفرسان، فكانت تركض بها يوماً أو يومين، ثم تبدل بغيرها، ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج، كل دابة على رأس فرسخ. وجعل لهم مراصد على

(*) انظر عنوان - عمورية المعتصم والعودة للهدوء - بشأن أصل بابك والخرمية.

(**) وفي ذلك قال الشاعر محمد بن عبد الملك الزيات:

قد خضب الفيل كعاداته ... يحمل شيطان خراسان.
والفيل لا تخضب أعضاؤه ... إلا لذي شأن من الشان.

رؤوس الجبال بالليل والنهار، وأمرهم بضرب النفير إذا جاءهم الخبر، فإذا سمع الذي يليه النفير، تهيأ، فلا يصل إليه صاحبه حتى يكون قد وقف له في الطريق، فيأخذ الخريطة منه ـ الرسالة ـ ويسير بها مسرعاً، فكانت الخريطة تصل من معسكر الأفشين إلى سامراء في أربعة أيام أو أقل.

عبر المعتصم للأفشين عن تقديره لانتصاره بأن كان يرسل له كل يوم ـ منذ غادر برزند وحتى وصل الى سامرا ـ فرساً وخلعة. وعندما وصل الافشين الى سامرا، توجه المعتصم، وألبسه وشاحين بالجوهر، ووصله بعشرين ألف ألف درهم يفرقها في أهل عسكره، وعينه والياً على ـ السند ـ وأدخل عليه الشعراء يمدحونه، وأمر للشعراء بصلات وهبات كثيرة(*).

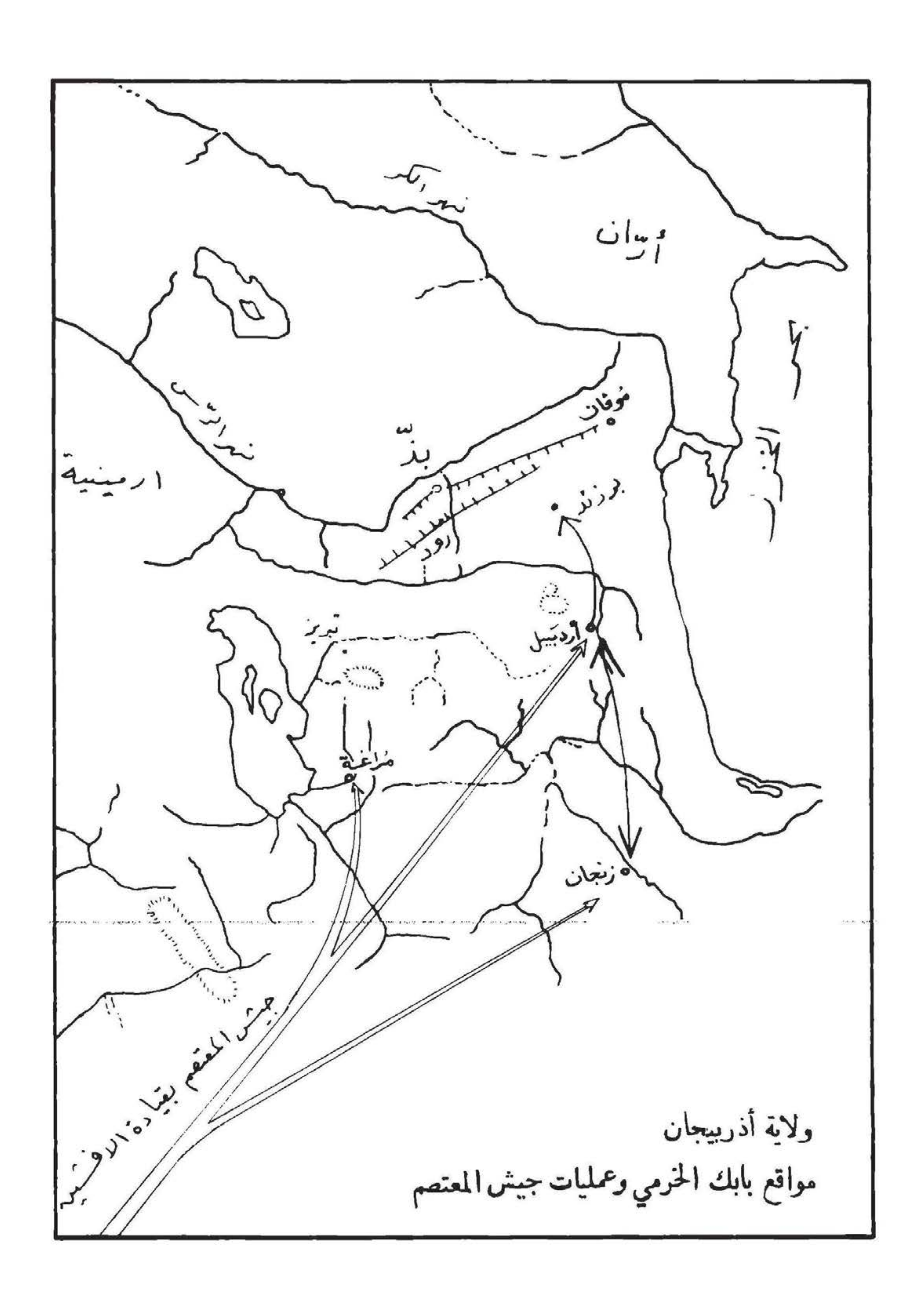
كان الأفشين في مقامه بإزاء بابك ـ ينفق في كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم، وفي كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم، سوى الأرزاق والأنزال والمعاون.

قتل بابك في عشرين سنة مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة انسان، وانتصر على عدد كبير من القادة، منهم: يحيى بن معاذ، وعيسى بن محمد بن أبي خالد، وأحمد بن الجنيد، كما أسر عدداً آخر من قادة المعتصم، منهم: زريق بن علي بن صدقة، ومحمد بن حميد الطوسي، وابراهيم بن الليث. وقد أسر ـ الأفشين ـ عندما أسر بابك، ثلاثة آلاف وثلاثمائة وتسعة رجال. واستنقذ ممن كان في يده من المسلمات وأولادهم سبعة آلاف وستمائة انسان.

(*) كان مما قيل فيه قصيدة القاها أبو تمام الطائي ومنها:

بَذَّ الجلادُ البذَّ فهو دفينُ ... ما إن بها إلا الوحوش قطين
لم يُقْر هذا السيف، هذا الصبر في ... هَيْجاء إلا عزّ هذا الدين
قد كان عُذرة سُودد فافتضها ... بالسيف فحل المشرق الأفشين
فأعادها، تعوي الثعالب وسطها ... ولقد ترى بالأمس وهي عرين.
هطلت عليها من جاجم أهلها ... دِيَمٌ أمارتها طلى وشؤون
كانت من المهَجات قبل مفازة ... عسراً، فأضحت وهي منه معين

ديوان أبي تمام ٣١٦/٣ وتاريخ الطبري وابن الأثير ـ احداث سنة ٢٢٣.



ولاية أذربيجان

مواقع بابك الخرمي وعمليات جيش المعتصم



٥ ـ ثورة الزنج ٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ.

أ ـ انتصارات الزنج وإحراق البصرة .

ب ـ الصراع المرير لانتزاع النصر .

ج ـ الأيام الأخيرة والنصر الحاسم .

د ـ مع الشمر ـ في نهاية ثورة الزنج .



٥ ـ ثورة الزنج ٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ.

لقد استقطبت هذه الثورة ـ ثورة الزنج ـ اهتمام الباحثين في الأزمنة الحديثة، وأعطيت لها تفسيرات كثيرة، وحملت أبعاداً ومضامين لم تكن لها. وقد يكون من الضروري التعرض لبعض تفاصيلها، في محاولة لطرح ظروف هذه الثورة بصورتها الحقيقية والواقعية.

ظهر في فرات البصرة (في النصف الثاني من العام ٢٥٥ هـ = ٨٦٨ م) رجل زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وجمع إليه الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ، ثم عبر دجلة فنزل ـ الايناري ـ. ثم ذكر أن اسمه ونسبه هو: علي بن محمد بن عبد الرحيم ونسبه في عبد القيس، وأمه قرة ابنة علي بن رحيب بن محمد بن حكيم من بني أسد بن خزيمة. وذكر عن هذا الرجل أنه قال: «جدي هو محمد بن حكيم من أهل الكوفة، أحد الخارجين مع زيد بن علي بن الحسين على هشام بن عبد الملك، فلما قتل زيد، هرب فلحق بالري، ولجأ إلى قرية اسمها ـ ورزنين ـ فأقام بها. وأن أبا أبيه عبد الرحيم هو رجل من عبد القيس. كان مولده بالطالقان، وأنه قدم على العراق فأقام بها، واشترى جارية سندية، فأولدها أباه محمداً، وأنه كان متصلاً قبل بجماعة من آل المنتصر. وكان منهم معاشه، ومن قوم من أصحاب السلطان وكتابه، يمدحهم ويستميحهم بشعره. ثم إنه توجه من سامرا الى البحرين، فادعى أنه: علي بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب. ودعا الناس بهجر الى طاعة، واتبعه جماعة كثيرة من أهلها، وقاومته جماعة أخرى. فكانت بسببه بين الذين اتبعوه والذين قاوموه عصبية، قتلت بينهم جماعة. فانتقل عنهم لما حدث ذلك الى الأحساء. ولجأ الى حي من بني تميم، ثم من بني سعد، يقال لهم بنو الشماس، فكان بينهم مقامه. وقد كان أهل البحرين أحلوه من أنفسهم محل النبي ـ فيما ذكر ـ حتى جبي له الخراج هنالك، ونفذ حكمه

بينهم، وقاتلوا عمال السلطان بسببه، ووتر منهم جماعة كثيرة، فتنكروا له، فتحول عنهم إلى البادية؛ وبرفقته جماعة من أهل البحرين. وأوهم أهل البادية أنه: يحيي بن عمر أبو الحسين المقتول بناحية الكوفة، فاختدع بذلك قوماً منهم جماعة كثيرة، حتى اجتمع بها منهم جماعة كثيرة، فزحف بهم الى موضع بالبحرين يقال له - الردم - فكانت بينهم وقعة عظيمة، كانت الدائرة فيها عليه وعلى أصحابه، وقتلوا فيها قتلاً ذريعاً، فنفرت عنه العرب وكرهته وتجنبت صحبته». فلما تفرقت عنه العرب، ونبت به البادية، شخص عنها إلى البصرة. فنزل بها في - بني ضبيعة - فاتبعه بها جماعة منهم علي بن أبان المعروف بالمهلبي وأخواه محمد والخليل وغيرهم. وكان قدومه البصرة سنة ٢٥٤ هـ = ٩٦٩ م. ووافق وصوله اليها وقوع فتنة أهل البصرة بالبلالية والسعدية. فطمع في أحد الفريقين أن يميل إليه، فأمر أربعة نفر من أصحابه بالتوجه إلى مسجد عباد، فقام هؤلاء بالدعوة له، فلم يلتفت أحد إليه من أهل البلد. وتنبه الجند لأمرهم، فحاولوا إلقاء القبض عليهم، فتفرقوا. وخرج - علي بن محمد - من البصرة هارباً، وعلم والي البصرة - محمد بن رجاء - بأمره، فبحث عنه، ولما لم يجده ألقى القبض على جماعة كانوا يميلون لدعوته؛ وحبسهم. وكان فيمن حبسهم ابن صاحب الزنج علي بن محمد الاكبر، وزوجته أم ابنه ومعها ابنة له وجارية حامل. ومضى صاحب الزنج لوجهه يريد بغداد، ومعه بعض أصحابه، فلما وصلوا الى البطيحة، ألقى عليهم حاكم البطيحة - عمير بن عمار - القبض، واقتادهم الى امير واسط - محمد بن أبي عون -. ولكن صاحب الزنج احتال على ابن أبي العون الذي أطلق سراحه وسراح أصحابه، فمضوا الى مدينة السلام، فأقاموا بها حولاً. وانتسب صاحب الزنج في هذه الفترة الى - أحمد بن عيسى بن زيد - وزعم أنه قد ظهرت له خلال فترة إقامته هذه آيات، وعرف ما في ضمائر أصحابه، وما يفعله كل واحد منهم، وأنه سأل ربه بها آية أن يعلم حقيقة أمره، فرأى كتاباً يكتب له، وهو ينظر إليه على حائط، ولا يرى شخص كاتبه.

أفاد - صاحب الزنج - من إقامته بمدينة السلام، فاستمال جماعة من أهلها. وحدث بعد ذلك أن عزل محمد بن رجاء عن ولاية البصرة، فتجددت الفتنة، ووثب رؤساء

البلالية والسعدية فمضوا إلى السجن، وأطلقوا سراح السجناء، وفيهم أهل صاحب الزنج الذي أسرع بالعودة - وأصحابه - الى البصرة. فوصلها في شهر رمضان (سنة ٢٥٥ هـ = ٨٦٨ م) وهنا انضم اليه أول رجل من الزنج واسمه - ريحان بن صالح - وقد ذكر هذا قصة التحاقه بصاحب الزنج فقال: «كنت موكلاً بغلمان مولاي - من الشورجيين أصحاب المطاحن - وكنت أنقل الدقيق إليهم من البصرة وأفرقه فيهم. فحملت ذلك إليهم كما كنت أفعل، فمررت به وهو مقيم ببرنخل - في قصر القرشي - فأخذني أصحابه، فصاروا بي إليه، وأمروني بالتسليم عليه بالامارة، ففعلت ذلك، فسألني عن الموضع الذي جئت منه، فأخبرته اني أقبلت من البصرة. فقال: هل سمعت لنا بالبصرة خبراً؟ قلت: لا. قال: فما خبر الزينبي؟ وأجبته: لا علم لي به. وعاد فسألني: فما هو خبر البلالية والسعدية؟ وأجبته: إنني لا أعرف أخبارهم أيضاً. فسألني عن أخبار عمال الطواحين - الشورجيين - وما يتقاضاه كل غلام منهم من الدقيق والسويق والتمر، وعمن يعمل في المطحنة - الشورج - من الأحرار والعبيد. فأعلمته ذلك. فدعاني إلى ما هو عليه، فأجبته. فقال لي: احتل فيمن قدرت عليه من الغلمان، وأقبل بهم. ووعدني أن يسند لي قيادة من آتيه به منهم، وأن يحسن إلي؛ واستحلفني ألا أعلم أحداً بموضعه، وأن أرجع إليه. وخلى سبيلي. فأتيت بالدقيق الذي معي إلى الموضع الذي كنت قصدته به. وأقمت عنده يومي، ثم رجعت إليه من غد. ومعي رفيق غلام ووافاه هذا بغلام آخر، وبقماش من الحرير، طلبها ليصنع منها لواء. فكتب عليها بحمرة وخضرة: ﴿إِنَّ ٱللهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ. وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللهِ. فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (*) وكتب اسمه واسم أبيه وعلقها في رأس سارية. وخرج في السحر، فلما وصل إلى مؤخر القصر الذي كان فيه، لقيه غلمان رجل من أصحاب الطواحين متوجهين إلى أعمالهم، فأمر بأخذهم، فأخذوا. وقيد وكيلهم وأخذ معهم، وكانوا خمسين غلاماً، ثم وصل إلى موضع آخر فأخذ منه خمسمائة غلام، وأمر بوكيلهم

(*) سورة التوبة - الآية ١١١ - الجزء الحادي عشر.

فأخذ معهم مقيداً، ثم مضى إلى موضع ـ السيرافي ـ فأخذ منه خمسين ومائة غلام، وأخذ من موضع آخر ثمانين غلاماً. ولم يزل يفعل ذلك طوال يومه حتى اجتمع اليه بشر كثير من الغلمان. **ثم جمعهم وقام فيهم خطيباً، فمناهم ووعدهم أن يقودهم ويرأسهم ويملكهم الأموال. وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدر بهم، وألا يخذلهم، وألا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى إليهم. ثم دعا مواليهم، فقال لهم: قد أردت ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم وفعلتم بهم ما حرم الله عليكم أن تفعلوه بهم، وجعلتم عليهم ما لا يطيقون. فكلمني أصحابي فيكم. فرأيت إطلاقكم. فقال هؤلاء له: إن هؤلاء الغلمان أباق، وهم يهربون منك فلا يبقون عليك ولا علينا. فخذ منا مالاً وأطلقهم لنا، فأمر غلمانهم فأحضروا سعفاً من النخل، ثم بطح كل قوم مولاهم ووكيلهم، فضرب كل رجل منهم خمسمائة ضربة. وأحلفهم بطلاق نسائهم ألا يعلموا أحداً بموضعه، ولا بعدد أصحابه، وأطلقهم فمضوا نحو البصرة. ومضى رجل منهم حتى عبر ـ رافد دجيل ـ فأنذر أصحاب الغلمان ليحرسوا غلمانهم ويحرصوا عليهم. وكان هناك خمسة عشر ألف غلام في البصرة.**

سار صاحب الزنج حتى وافى دجيلاً، فوجد سفناً تدخل في المد، فقدمها وركب فيها وأصحابه حتى عبروا دجيلاً ووصلوا الى نهر ميمون. فنزل المسجد الذي في وسط السوق الشارع ـ على نهر ميمون ـ وأقام هناك، ولم يزل ذلك دأبه، يجتمع إليه السودان حتى يوم الفطر (من سنة ٢٥٥ هـ) فلما أصبح نادى في أصحابه بالاجتماع لصلاة العيد، فاجتمعوا، ورفع اللواء، وصلى بهم وخطب خطبة: **ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال، وأن الله قد استنقذهم به من ذلك، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم، ويملكهم العبيد والأموال والمنازل، ويبلغ بهم أعلى الأمور، ثم حلف لهم على ذلك. فلما فرغ من صلاته وخطبته، أمر الذين فهموا عنه قوله أن يفهموه من لا فهم له من عجمهم، لتطيب بذلك أنفسهم، ففعلوا ذلك.** ودخل القصر، فلما كان اليوم التالي، توجه الى ـ نهر برو ـ حيث كانت قوة من جماعته تقاتل قائد جند البصرة، وأمكن لهم دفعهم حتى أخرجوهم الى الصحراء، ولحق بهم صاحب

الزنج فيمن معه، فطارد الحميري ـ قائد جند البصرة ـ وأصحابه حتى بطن دجلة. واستأمن إليه رجل من رؤساء الزنج ومعه ثلاثمائة من الزنج فمناهم ووعدهم. ولما كثر من اجتمع إليه من الزنج، نظمهم، وعين لهم قادتهم، وقال لهم: «كل من جاء منكم برجل فهو مضموم إليه». فحرص كل قائد على أن يزيد من عدد جنده، لترتفع مكانته.

كان والي واسط ـ ابن أبي عون ـ قد نقل عن ولاية واسط إلى ولاية ـ الأبلة ودجلة ـ فوجه قوة بقيادة الحميري وعقيل لقتال صاحب الزنج، فلما عرف هذا بالأمر، قاد جماعته الى ـ الرزيقية وهي في مؤخر الباذاورد ـ ووصلها وقت صلاة الظهر، فصلوا بها واستعدوا للقتال، وعندما لم يتعرض له أحد، عاد وجماعته نحو ـ المحمدية ـ وانتشرت جماعته على النهر. وأعلمه قائد مؤخرة قواته أنه شعر بوجود قوة تطارده. ولكنه لم يكد ينهي حديثه، حتى تنادى الزنج ـ الى السلاح ـ.

كان موالي الزنج ـ الشورجية ـ قد جمعوا زهاء أربعة آلاف رجل ـ وخرجوا لاسترداد مواليهم، وباغتوا صاحب الزنج وجنده، ووقعت معركة انتصر فيها الزنج، وانهزم خصومهم على وجوههم، وقتل من قتل منهم، ومات بعضهم عطشاً، وأسر منهم قوم، حملوا إلى صاحب الزنج فأمر بضرب اعناقهم، فقتلوا. وحملت الرؤوس على بغال كانت مع أصحاب موالي الزنج، ومضى صاحب الزنج حتى وصل ـ القادسية ـ وخرج من القرية رجل من موالي بعض الهاشميين، فقتل رجلاً من أصحابه الزنج، فأراد أصحابه اجتياح القرية ونهبها والثأر لقاتل الزنجي. فقال لهم صاحب الزنج: **«لا سبيل إلى ذلك دون أن نعرف ما عند القوم، وهل فعل القاتل ما فعل عن رأيهم، ونسألهم أن يدفعوه لنا، فإن فعلوا وإلا ساغ لنا قتالهم»**. وأعجلهم المسير حتى وصلوا إلى نهر ميمون راجعين. فأقام في المسجد الذي كان أقام في بدأته. وأمر بالرؤوس المحمولة معه، فنصبت، وأمر بالأذان، فقام صلى بأصحابه العشاء الآخرة، وسلم عليه بالامارة. وبات ليلته، ثم مضى من الغد حتى مر بالكرخ فطواها، ووصل إلى قرية اسمها ـ جبى ـ في وقت صلاة الظهر، فعبر دجيلاً من مخاضة حددها له الأدلاء. ولم يدخل القرية بل أقام خارجاً منها، وأرسل إلى من فيها، فأتاه كبراؤهم وكبراء أهل

الكرخ، فأمرهم بإعداد الطعام له ولأصحابه. فأقيم له ما أراد، وبات عندهم ليلته تلك، فلما أصبح، أهدى له رجل من أهل - جبى - فرساً كميتاً، فركبه، وسار حتى وصل الى الرافد المعروف - بالعباسي العتيق - فأخذ دليلاً إلى - السيب - وهو نهر القرية المعروفة باسم - **الجعفرية** - ولما علم به أهل القرية، هربوا عنها، ودخلها، وتفرق أصحابه في القرية. فأتوه برجل وجدوه فسأله عن وكلاء الهاشميين. فأخبره أنهم في الأجمة. فأرسل اليهم قائد جنده - رجل اسمه **ابو يعقوب ولقب نفسه بجربان** - فأتاهم برئيسهم وهو يحيى بن يحيى المعروف بالزبيري، فسأله عن المال، فأنكر ما عنده، فهدده بالقتل، فأقر بما كان قد أخفاه، ووجه معه من أخذ منه مائتي دينار وخمسين ديناراً وألف درهم. ثم سأله عن خيول الهاشميين، فدله على ثلاثة براذين: كميت وأشقر وأشهب. فأخذها وأعطاها لأصحابه. وعثر الزنج على سلاح في دار لبعض بني هاشم فانتهبوه، فصار في أيدي الزنج سيوف وتراس وبالات ورماح. وبات صاحب الزنج ليلته تلك بالسيب. فلما أصبح علم أن قوات من ناحية دجلة والأبلة تتجمع ضده، فوجه قوة من خمسمائة رجل، فلقوا القوم، فهزموهم، وأخذوا أسلحتهم، وسار من غده يريد الوصول الى - المذار - بعد أن اتخذ على أهل الجعفرية عهداً ألا يقاتلوه، ولا يعينوا عليه أحداً، ولا يستروا عنه أمراً، فلما عبر - السيب - وصل الى قرية تعرف باسم - قرية اليهود - شارعة على دجلة. فاصطدم هناك بقوة تحت قيادة قائد ناحية الأبلة ودجلة - اسمه رميس - فحاربهم، وأسر منهم جماعة وعقر منهم جماعة بالنشاب. وضرب أعناق بعض الاسرى. وتابع سيره، وعبر النهر المعروف - بباب مداد - وضرب في الصحراء، فنشر أصحابه فيها، ونظم الحراسة والمراقبة وسير مفارز الاستطلاع. وأقام مركزه على تل اسمه - جبل الشياطين - بجواره بستان، فأقام مقر قيادته فيه.

وجه قائد قوات الأبلة ودجلة - رميس - رسالة مع أحد رجال صاحب الزنج، قال له فيها: **«أنت آمن على نفسك حيث سلكت من الأرض، لا يعرض لك أحد، واردد هؤلاء العبيد على مواليهم، وآخذ لك على كل رأس خمسة دنانير»**. فغضب صاحب الزنج لما سمع الرسالة، وآلى ليرجعن فليبقرن بطن امرأة رميس،

وليحرقن داره، وليخوضن الدماء هنالك. فعاد الرسول وأبلغ رميساً ما قاله صاحب الزنج.

بينما كان صاحب الزنج على وشك متابعة السير نحو المذار، جاءه رجل من كبار أعوانه ـ اسمه ابراهيم بن جعفر المعروف بالهمذاني ـ وحمل له رسائل، فلما صلى العشاة الآخرة، قرأها، وعندما فرغ من ذلك، قال له ابراهيم: «ليس من الرأي أن تذهب إلى المذار!» فسأله صاحب الزنج: فما الرأي؟ فقال له ابراهيم: **«ترجع! فقد بايع لك أهل عبادان وميان روذان وسليمانان، وخلفت جمعاً من البلالية بفوهة القندل وأبرسان ينتظرونك»**. فلما سمع السودان ذلك من قول ابراهيم، مع ما كان ـ رميس ـ قد عرضه عليه في ذلك اليوم، خافوا أن يكون صاحبهم قد احتال عليهم ليردهم إلى مواليهم، فهرب بعضهم، واضطرب الباقون. فأسرع صاحب الزنج فجمعهم، وميز الزنج من الفراتية ـ أهل الفرات ـ ثم أمر **مصلحاً** أن يعلمهم، أنه لا يردهم، ولا أحداً منهم، إلى مواليهم، وحلف لهم على ذلك بالأيمان الغلاظ، وقال: ليحط بي منكم جماعة، فإن أحسوا مني غدراً فتكوا بي. ثم جمع الباقين **وهم الفراتية والقرماطية والنوبة وغيرهم ممن يفصح بلسان العرب، فتحدث هو إليهم،** وحلف لهم بمثل ما حلف للسودان، وضمن ووثق من نفسه. وقال لهم: «ها أنا ذا معكم في كل حرب، أشرككم فيها بيدي، وأخاطر معكم فيها بنفسي» فرضوا ودعوا له بخير. فلما أسحر، أمر بنفخ بوق الاجتماع، وسار بأصحابه راجعاً حتى وصل إلى ـ السيب ـ. فلقي هناك قوات والي الأبلة ونواحي دجلة ـ محمد بن أبي عون ـ. فتقدم إليه قائدها، وقال له: **«لم يكن جزاء صاحبنا منك أن تفسد عليه عمله. وقد كان منه إليك ما قد علمت بواسط»**. مشيراً بذلك إلى الفرصة التي منحها لصاحب الزنج عندما أطلق سراحه، فرد صاحب الزنج على قوله: **«لم آت لقتالكم، فقل لأصحابك يوسعوا لي في الطريق حتى أجاوزكم»**.

عبر صاحب الزنج وجنده نهر السيب، ووصل إلى دجلة، ولم يلبث أن جاء الجند، ومعهم أهل ـ الجعفرية ـ وهم يحملون السلاح. فتقدم إليهم قائد جيش الزنج ـ أبو يعقوب المعروف بجربان ـ وقال لهم: «يا أهل الجعفرية! أما علمتم ما أعطيتمونا من

الأيمان المغلظة ألا تقاتلونا ، ولا تعينوا علينا أحداً ، وأن تعينونا متى اجتاز بكم أحد منا ! » . فارتفعت أصواتهم بالصخب والضجيج ، ورموه بالحجارة والنشاب . وكان هناك موضع فيه زهاء ثلاثمائة زرنوق - زورق نهري - فأمر بها ، فأخذت ، وربط بعضها ببعض حتى صارت جسراً عائماً . وطرحت في النهر ، وعبر عليها الزنج ، ووضعوا السيف بأهل الجعفرية ، فقتل منهم خلق كثير ، وأتى منهم بأسرى ، فوبخهم صاحب الزنج وخلى سبيلهم ، وكان بعض الزنج قد دخلوا الجعفرية وأخذوا في النهب ، فأرسل صاحب الزنج رجلاً خاطبهم بلغتهم . ونادى بهم : **« ألا برئت الذمة ممن انتهب شيئاً من هذه القرية ، أو سبى منها أحداً ، فمن فعل ذلك فقد حلت به العقوبة الموجعة » .**

عبر صاحب الزنج وجيشه من غربي - السيب - إلى شرقيه ، وسار حتى وصل إلى نهر فريد ، وجاءه قوم من ناحية قرية - **القفص** - من بني عجل ، فعرضوا عليه أنفسهم ، وبذلوا له ما لديهم فجزاهم خيراً ، وأمر بعدم التعرض لهم . وسار حتى أتى نهر - **باقثا** - فجاءه أهل - **الكرخ** - فسلموا عليه ، ودعوا له بخير ، وأمدوه بما أراد من التموين والأموال وسواها . **وجاءه رجل يهودي - خيبري - يقال له - ماندويه - فقبل يده ، وسجد له شاكراً لرؤيته إياه . ثم سأله عن مسائل كثيرة ، فأجابه عنها . وزعم أنه يجد صفته في التوراة ، وأنه يرغب في القتال معه ، وسأله عن علامات في بدنه ، ذكر أنه عرفها فيه - فأقام معه ليلته تلك يحادثه .**

كان من عادة صاحب الزنج أنه إذا نزل للمبيت ، اعتزل بستة من أصحابه هم أركان قيادته ، وعين قوة لحراسة معسكره بقيادة - محمد بن سلم - فلما كانت تلك الليلة ، أتاه آخر الليل رجل من أهل الكرخ ، فأعلمه أن أهل ناحية المفتح والقرى المتصلة بها ، وأهل الأبلة وأهل الفرات قد جاؤوه بجموعهم وهم يحملون السلاح - بقيادة رميس - وأنهم وصلوا إلى قنطرة نهر ميمون فقطعوها ليمنعوه العبور . فلما أصبح ، جمع الزنج ، وعبر بهم دجيل ، وسار من خلف الكرخ ، حتى وصل نهر ميمون . فوجد القنطرة مقطوعة ، والناس في شرقي النهر ، والزوارق - السميريات - في بطنه وهي تحمل المقاتلين . فأمر أصحابه بالابتعاد عن النهر مقدار مائة ذراع تجنباً من

الاصابة بالسهام - النشاب -. وأرسل قوة الى - الكرخ - فكمنوا فيها، واختفوا عن الأنظار، فلما أحسوا خروج من خرج منهم، انقضوا عليهم، فأسروا اثنين وعشرين رجلاً، وساروا في أثر الآخرين، فقتلوا منهم جماعة على شاطىء النهر، ورجعوا إليه بالرؤوس والأسرى، فأمر بضرب أعناقهم بعد مناظرة جرت بينه وبينهم، وأمر بالاحتفاظ بالرؤوس، وأقام إلى نصف النهار، فأتاه رجل من أهل البادية مستأمناً، فسأله عن غور النهر، فأعلمه أنه يعرف موضعاً منه يخاض، فنهض مع الرجل، حتى وصل إلى موضع على بعد مسافة ميل من قرية - المحمدية - فخاض وجنده بالنهر إلى شرقي النهر، وانحدر راجعاً نحو نهر ميمون: حتى جاء المسجد فنزل فيه، وأمر بالرؤوس فنصبت. وأقام يومه، **ووجه طليعة من ألف رجل نحو فوهة نهر ميمون، وأمرهم بالبقاء هناك حتى المغرب. وكتب إلى حاكم الأبلة - عقيل - « ذكره فيه بأنه هو وأهل الأبلة قد بايعوه» وكتب الى قائد الجند - رميس - « ذكره فيه بقسمه له - في السيب - بألا يقاتله، وأن ينقل إليه أخبار أمير المؤمنين»**. ثم سار من نهر ميمون نحو السبخة التي كانت طليعته قد تمركزت فيها. فلما وصل الى **القادسية والشيفيا** - أمر جنده بنهبها، فانتهب منها مالاً عظيماً وجوهراً وحلياً وأواني من الذهب والفضة، وسبى منها غلماناً ونسوة - فكان ذلك أول سبي عمل على سبيه -. وعثر جنده على أربعة عشر غلاماً من الزنج، قد سد عليهم باب، فأخذوهم. وغادر صاحب الزنج وجيشه من القريتين في وقت العصر، فنزلوا السبخة المعروفة باسم (برد الخيار). فلما كان في وقت المغرب أتاه أحد أصحابه الستة، فأعلمه أن الجند قد شغلوا بشرب الخمور والأنبذة التي نهبوها من القادسية - ولم يكن قبل ذلك ينكر النبيذ أو الخمور - إلا أنه منع شرب ذلك يومها، وقال لهم: **« إنكم تلاقون جيوشاً تقاتلونهم، فدعوا شرب النبيذ والتشاغل به»** فأجابوه إلى ذلك، ولما أصبح، جاءته عناصر الاستطلاع وأعلمته أن القوات المعادية بقيادة - رميس - قد وصلت الى شرقي دجيل، وأنها عبرته الى الشط. فوجه قوة من الزنج بقيادة - علي بن أبان - لقتالها، ثم تولى قيادة بقية القوات وعبر بها نهر - برد الخيار - فلما وصل إلى شرقيه، وجد أن قوة - علي بن أبان - قد اشتبكت مع القوات المعادية وقتلت منها مقتلة عظيمة، وأثناء

ذلك هبت ريح قوية من غربي دجلة، فدفعت السفن التي كان يركبها جند أمير المؤمنين، ووصلت بها إلى الشط، فنزل السودان إليها وقتلوا من وجدوا فيها. وهرب - رميس - وسواه من القادة. وسار صاحب الزنج بقواته الى قرية المهلبية، واسمها تنغت، وأمر الزنج بنهبها واحراقها، فانتهبت وأحرقت، وسار على نهر الماديان، فوجد فيها تموراً، فأمر بإحراقها.

علم صاحب الزنج أن قوة لأمير المؤمنين ضمت أربعة آلاف رجل أو يزيدون بقيادة قائد تركي اسمه - أبو هلال - قد وصلت إلى سوق الريان، فأسرع لتوجيه قوة من الزنج بقيادة رجل اسمه - ريحان - فهاجم الزنج القوة المعادية، وقتلوا منها زهاء ألف وخمسمائة رجل، وهرب قائدها - ريحان -. واستمر الزنج في قتالهم حتى حجز الليل بين المقاتلين، فلما كان الصباح التالي، أمر صاحب الزنج قواته باستمرار المطاردة، ففعل الزنج ذلك، وجاؤوا وقد حملوا معهم أسرى ورؤوس، فقتل الأسرى كلهم. ثم كانت لصاحب الزنج وقعة أخرى مع قوات أمير المؤمنين، انتصر فيها الزنج أيضاً.

وصل في تلك الليلة إلى مقر صاحب الزنج، رجل اسمه - سيران بن عفو الله - وقد حمل له رسائل من عيونه - جواسيسه - في البصرة، فلما فرغ من قراءتها سأل الرجل عن الموقف في البصرة، فأعلمه بأن أمير البصرة قد جهز قوة كبيرة من المطوعة والبلالية والسعدية لقتاله بقيادة رجل اسمه - الزينبي - وأنهم قد وصلوا الى - بيان -. فقال له صاحب الزنج: «اخفض صوتك لئلا يرتاع الغلمان بخبرك». ثم أمره بالعودة الى الموضع الذي يكون فيه مقامه. ولما أصبح، قاد قواته حتى وصل إلى ما وراء - ترسى وبرسونا وسندادان وبيان - فاصطدم بقوة معادية، فوجه لقتالها قوة من الزنج - بقيادة علي بن أبان - فقاتلهم وهزمهم وكان معهم مائة من السود، فأخذهم وضمهم إلى قوته. وقال - ريحان - لرجاله: **«من أمارات تمام أمركم ما ترون من إتيان هؤلاء القوم بعبيدهم، فيسلمونهم إليكم، فيزيد الله في عددكم»**. ثم سار إلى معسكر العدو الذي كان قد أقيم في طرف النخل على الجانب الغربي من بيان. فوجد هناك ألف وتسعمائة سفينة، وكان في السفن قوم من الحجاج أرادوا سلوك طريق البصرة، فناظرهم بقية يومه إلى وقت غروب الشمس، فجعلوا يصدقونه في جميع

قوله، فردهم إلى سفنهم، **وأحلفهم ألا يخبروا أحداً بعدة أصحابه، وأن يقللوا أمره عند من يسألهم عنه.**

جاء بعد ذلك أحد رجال صاحب الزنج ـ واسمه حسين الصيدناني ـ فلما رآه صاحب الزنج قال له: «لم أبطأت عني إلى هذه الغاية؟» فأجابه: «كنت مختفياً، فلما خرج هذا الجيش دخلت في سواده. وهو يضم من الخول ألفاً ومائتي مقاتل، ومن أصحاب الزينبي ألفاً، ومن البلالية والسعدية زهاء ألفين، والفرسان مائتا فارس. ولما وصلوا الى الأبلة، وقع بينهم وبين أهلها اختلاف، حتى تلاعنوا، وخلفتهم بشاطىء عثمان، وأحسبهم مصبحيك غداً. وستأتيك خيولهم من ناحية سندادان بيان أما مشاتهم ـ رجالتهم ـ فسيأتونك من جنبي النهر».

وجه صاحب الزنج في الصباح المبكر شيخاً ضعيفاً هرماً، لئلا يتعرض له أحد، من أجل التثبت من المعلومات التي وصلته. فلما أبطأ هذا الشيخ بالعودة، وجه قوة من ثلاثمائة فارس ـ بقيادة فتح الحجام ـ للاستطلاع. كما وجه قوة أخرى بقيادة يحي بن محمد، وأمره بالسير إلى سندادان والوصول إلى سوق بيان. وسرعان ما جاءه الخبر بتقدم القوات المعادية، من جنبي النهر. فنظم قوته في بساتين النخل، واحتل موقعاً له على جبل مشرف، ولم تلبث أن ظهرت له الأعلام والرجال، فأمر الزنج، فكبروا، ثم هاجموا القوات المعادية، ولكن هذه القوات صدت الهجوم، فتراجع الزنج حتى بلغوا الجبل، واعادوا تنظيم قواتهم، وانطلقوا للهجوم من جديد، فدفعوهم حتى شاطىء بيان، وأعملوا السيوف فيهم، وقتلوا من قادتهم ـ أبا العباس بن أيمن المعروف بأبي كباش وبشير القيسي ـ. وانهزم الناس فذهبوا كل مذهب. واتبعهم السودان الى نهر بيان. فغرق في النهر منهم عدد كبير. واكتشفت قوات الزنج وجود كمين في النهر. فتولى يحي بن محمد قيادة قوة من الزنج سار بها على امتداد الشاطىء الغربي للنهر، بينما قاد ـ علي بن أبان ـ قوة أخرى سار بها على امتداد الشاطىء الشرقي. حتى وصلوا الى موضع الكمين الذي تكون من ألف مقاتل من المغاربة. ووقعت معركة ضارية لم تستمر طويلاً وانتصر فيها الزنج، فأبادوا القوة المعادية إبادة كاملة، وأخذوا أسلحتها، ورجعوا الى معسكرهم، فوجدوا أميرهم ـ صاحب الزنج ـ جالساً على شاطىء بيان،

وقد أتى بنيف وثلاثين علماً، وزهاء ألف رأس من رؤوس الاعداء ـ فيها رؤوس قادة جيش البصرة وأبطالها.

أقام صاحب الزنج يومه وليلته، فلما أصبح وجه طليعة إلى شاطىء دجلة، ثم سار وأصحابه فأمر بأخذ السفن التي تذهب من ـ جبى الى بيان ـ وانتقل بها الى الحجر، ووجد الزنج في ـ سلبان ـ مائتي سفينة محملة بأكياس الدقيق وأكسية ـ ألبسة ـ وسواها وفيها عشرة من الزنج. فاستولوا على ذلك كله، وضموا الزنج إليهم. فلما جاء المد مع المغرب، عبر صاحب الزنج وجيشه إلى ـ فوهة القندل ـ وأتاه من السودان خمسون رجلاً فصاروا في عسكره.

انتشر الزنج في بلدة ـ دبا ـ فوجدوا هناك ثلاثمائة رجل من الزنج، فحملوهم مع وكيلهم الى صاحبهم، فأمر بقتل الوكيل ووزع الزنج على قادته، وأمر بانتهاب قرية دبا، فانتهبت. ثم سار حتى وصل إلى ـ مسلحة، الزينبي ـ على شاطىء القندل في غربي النهر، وبها زهاء مائتي مقاتل، فهاجمهم ودارت معركة ضارية انتهت بقتل رجال المسلحة جيعهم، ولم ينج منهم أحد.

بات صاحب الزنج ليلته في قصر دبا، ثم غدا في وقت المد قاصداً إلى سبخة القندل، واكتنف أصحابه القرية فانتهبوها، ووجدوا فيها جمعاً من الزنج، فأتوه بهم، ففرقهم على قادته. ثم وصل إلى السبخة فأقام فيها، وتفرق أصحابه في الأنهار حتى وصلوا إلى مربعة دبا. فلما مضت أربعة أيام على إقامته، سار في اليوم الخامس، وقد سرح السفن التي كانت معه في النهر. وسار هو على اليابسة ـ بين نهري الداوردانی والحسني ـ وإذا به في مواجهة ستمائة فارس وقد أقبلوا نحوه من ناحية الغرب، فكلمهم الزنج، فاذا هم قوم من الأعراب جاؤوا يسألون عن صاحب الزنج، وأراد قائد الزنج محمد بن سلم، أن يظهر صاحب الزنج وأن يلبي طلب الأعراب في التحدث إليه، فقال: إنها خدعة، وأمر جنده بقتالهم. ودار اشتباك قصير، ورجع جند صاحب الزنج، وانسحب الأعراب. وسار حتى وصل إلى ـ دبا ـ وانتشر أصحابه في النخل فجاؤوا بالغنم والبقر، فجعلوا يذبحون ويأكلون. وأقام ليلته هناك، فلما أصبح سار حتى دخل

ـ الأرخنج ـ فوجدوا هناك بعض المقاتلين. فقتلوا منهم جماعة، وفر الباقون، ووجد الزنج ستمائة غلام من السود، فأخذوهم وقتلوا وكلاءهم وأتوه بهم. ومضى حتى وصل إلى قصر الجوهري على سبخة البرامكة، فأقام فيه ليلته تلك، وتفرق أصحابه في انتهاب كل ما وجدوا.

سار صاحب الزنج وجيشه من السبخة؛ وهو يريد الوصول الى البصرة. فلما كان في بعض الطريق ـ عند نهر الرياحي ـ سمع الزنج وهم يتنادون: إلى السلاح، ورأى قوماً في شرقي نهر الديناري ـ فوجه قوة من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة علي بن أبان. وأمره بقتالهم، وعبور النهر إليهم، واحتجز باقي الجيش، وقال له: «إن احتجت الى مزيد من الرجال، فاستمدني». ولكن ما هي إلا فترة قصيرة حتى طرق سمعه من جديد صياح الزنج: إلى السلاح، فعرف أن قوة أخرى قد جاءت تتقدم نحوه من اتجاه قرية الجعفرية. فوجه لقتالها قوة أخرى بقيادة محمد بن سلم. ونشب القتال في الجعفرية، واستمر بضراوة حتى العصر، ثم قام الزنج بهجوم عنيف، فأمكن لهم انتزاع النصر، وقتلوا من الجند ومن الأعراب ومن أهل البصرة ـ البلالية والسعدية ـ زهاء خمسمائة رجل. وسار صاحب الزنج وجيشه حتى وصل ـ سبخة الجعفرية ـ، فأقام ليلته بين القتلى. فلما أصبح، جمع أصحابه وحذرهم من دخول البصرة، وسار بجيشه، غير أن بعض قواته أسرعت في تقدمها حتى وصلت ـ نهر الشاذاني ـ وأتاهم أهل البصرة بقوة كبيرة. وعلم صاحب الزنج، فوجه قوات كبيرة بقيادة علي بن أبان ومحمد بن سلم وسواهما. ثم وصل صاحب الزنج، وأشرف على المعركة. ورأى كثرة الإصابات في جنده، فأمرهم بالتراجع، غير أن الاشتباكات استمرت حتى العصر؛ ومني الزنج بهزيمة منكرة، وقتل منهم عدد كبير، وغرق آخرون، وتمزق جيش الزنج، وقتل عدد من قادته. وانسحب صاحب الزنج الى موضع ـ يعرف باسم المعلى غربي نهر شيطان ـ وحاول جمع قواته وإعادة تنظيمها، فلم يجتمع له إلا خمسمائة رجل. وأمر بالنفخ في البوق الذي كانوا يجتمعون لصوته، فلم يرجع إليه أحد، وبات ليلته، فلما كان في بعض الليل، جاءته قوة استطلاع من ثلاثين رجلاً، كان قد وجهها الى ـ نهر حرب ـ فعلم أن أهل البصرة قد انتهبوا السفن التي كانت معه، وأخذوا الدواب التي كانت فيها، وظفروا بمتاع من

متاعه، وبرسائل من رسائله، وبأمتعة أخرى، فلما أصبح من غد، نظر في عدد أصحابه، فاذا هم ألف رجل. بمن كانوا قد انضموا إليه في الليل. فأرسل ثلاثة من قادته لمناظرة أهل البصرة واقناعهم بعدم التعرض له؛ وهم محمد بن سلم وسليمان بن جامع ويحيى بن محمد. وسار هؤلاء ودخل محمد بن سلم إلى جمع أهل البصرة فلما صار في وسطهم، قتلوه واحتزوا رأسه، وعاد الاثنان فأعلما صاحب الزنج بما حدث، فأمرهما بكتمان الأمر عن الناس حتى يعلمهم هو بذلك. فلما صلى العصر، نعى محمد بن سلم لأصحابه وقال لهم: **«إنكم تقتلون به في غد عشرة آلاف من أهل البصرة»**. أما أهل البصرة، فقد اغتروا بالنصر الذي حققوه، فجمعوا في اليوم التالي جموعهم، وانتدبوا لقيادتهم رجلاً منهم يعرف باسم - حماد الساجي -، وكان من غزاة البحر وله علم بركوبها والحرب فيها - فجمع المطوعة ورماة الأهداف وأهل المسجد الجامع، ومن تطوع معه من حزبي البلالية والسعدية، ورافق الجمع من أحب الاستمتاع برؤية القتال من الهاشميين والقرشيين وسائر أصناف الناس، وازدحم الناس في السفن النهرية حرصاً على حضور ذلك المشهد، ومضى جمهور الناس مشاة - رجالة - منهم من معه السلاح، ومنهم من لا سلاح معهم. وأقبل هؤلاء حتى سدوا ما ينفذ فيه البصر تكاثفاً وكثرة. **ولما علم صاحب الزنج بمسيرهم إليه - وهو في موضعه عند نهر شيطان -. وجه قوة لنصب كمين في الجانب الشرقي من النهر بقيادة أبي الليث الأصبهاني وزريق. ووجه قوة لنصب كمين آخر على الجانب الغربي من النهر بقيادة شبل وحسين الحمامي. وأمر علي بن أبان بقيادة بقية قواته لمجابهة الهجوم، وأمرهم أن يجثوا لهم ويستتروا بدروعهم - تروسهم - فلا يثور إليهم منهم ثائر حتى يصل إليهم أهل البصرة ويهاجوهم بالسيوف**. حتى إذا ما هاجموهم خرج الكمينان من خلفهم، وأعملوا فيهم السيوف. ووقعت المعركة. وبوغت أهل البصرة، وبدأ النظارة والمشاهدون بالهرب، فغرقت طائفة ولحقت السيوف بآخرين، حتى تمت إبادة أكثر ذلك الجمع، ولم ينج إلا القليل. وكثر المفقودون بالبصرة، وعلا العويل من نسائهم، وهذا هو يوم الشذا الذي ذكره الناس، وأعظموا ما كان فيه من القتل. وجمع الخبيث - صاحب الزنج - رؤوس القتلى وأرسلها إلى البصرة، فجاء أهلها

يبحثون عن رؤوس أهلهم، فيأخذ رأس كل رجل أولياؤه. **«وقوي عدو الله بعد هذا اليوم، وتمكن الرعب في قلوب أهل البصرة منه. وأمسكوا عن حربه»**.
وأرسلت الرسائل إلى أمير المؤمنين ببغداد، فوجه مدداً إلى أهل البصرة بقيادة جعلان التركي. وأمر أبا الأحوص الباهلي بالمصير إلى الأبلة والياً عليها. وأمده برجل من الاتراك يقال له جريح. وأراد الزنج دخول البصرة واحتلالها، فقال لهم صاحبهم: **لا، بل ابعدوا عنها، فقد أرعبناهم وأخفناهم وأمنتم جانبهم. فالرأي الآن أن تدعوا حربهم حتى يكونوا هم الذين يطلبونكم»**. وسار بأصحابه الى سبخة - أبي قرة - وهي سبخة متوسطة النخل والقرى والعمارات، فأمرهم باتخاذ الأكواخ. وبثهم يميناً وشمالاً، يغير بهم على القرى، يقتل أهلها وينهب أموالهم ومواشيهم.

أ - انتصارات الزنج وإحراق البصرة

هكذا مضت سنة على اندلاع ثورة الزنج، وأصبحت الثورة راسخة القدم، لها جذورها وفروعها، ولها تنظيماتها. وقد أفادت الثورة من وقوع اضطرابات في مستهل السنة التالية (٢٥٦ هـ = ٨٦٩ م) لاكتساب المزيد من القوة، وكان في طليعة هذه الاضطرابات (خروج العامة على أمير المؤمنين المهتدي ثم خلعه وموته وخلافة المعتمد على الله) بالإضافة الى متاعب في أقاليم أخرى. مما سمح لصاحب الزنج بممارسة عمله بحرية أكبر. وكان - جعلان - الذي جاء الى البصرة لحرب صاحب الزنج، قد زحف بجنده حتى وصل على بعد فرسخ واحد من معسكر صاحب الزنج، فتوقف، وخندق على نفسه وعلى من معه، وأقام ستة أشهر في خندقه لم يمارس خلالها أي نشاط قتالي - واكتفى بارسال قوة من بني هاشم ومن تطوع من أهل البصرة - بقيادة الزينبي - لحرب الخبيث صاحب الزنج. فاكتفت هذه القوة بالاشتباك مع الزنج بالحجارة والنشاب - ولم يتمكن جعلان من الاشتراك في هذا الاشتباك لأن قوته كانت من الفرسان - وكان مجال عمل الفرسان محدوداً بسبب ضيق الموضع وما فيه من النخل والدغل. وكان صاحب الزنج قد درس الموقف، فوجه قوة من جنده - للتسلل

والسيطرة على مداخل الخندق ومخارجه، ومباغتة ـ الزيني ـ وقواته بهجوم ليلي.
ونجحت هذه القوة في تنفيذ مهمتها، فقتلت جماعة وريع الباقون روعاً شديداً. وترك جعلان عسكره وانصرف الى البصرة. وكان الزيني قبل ذلك بفترة قصيرة قد وجه قوة من مقاتلي البلالية والسعدية، لقتال صاحب الزنج، فوجه لهم هذا قوتين من ناحيتين، فلم يثبتوا لقتال الزنج الذين قتلوا منهم مقتلة عظيمة، وانصرفوا مفلولين. وعمل أمير المؤمنين عندما ظهر له عجز ـ جعلان ـ وعدم كفاءته، على عزله وعين مكانه سعيد الحاجب ووجهه لقتال الزنج الذين انتقلوا أثناء ذلك من سبخة أبي قرة الى نهر أبي الخصيب. علم ـ صاحب الزنج ـ أن هناك أربعة وعشرين مركباً من مراكب البحر قد اجتمعت تريد البصرة، وأن أصحاب هذه المراكب قد قرروا شد مراكبهم بعضها الى بعض حتى تصير كالجزيرة، يتصل أولها بآخرها، والسير بها في دجلة لقتال ـ الخبيث ـ الذي قطع السبيل وأفسد في الارض. فندب ـ صاحب الزنج ـ أصحابه وحرضهم عليها، وقال لهم: «هذه الغنيمة الباردة». ولما طلعت المراكب، نهض ـ الخبيث ـ وأصحابه وركبوا الزوارق النهرية الصغيرة، وأحاطوا بالمراكب، وهاجموها بعنف، وقتلوا مقاتلتها، وسبوا ما فيها من الرقيق، وغنموا منها أموالاً عظاماً لا تحصى ولا يعرف قدرها، فأنهب ـ صاحب الزنج ـ أصحابه ثلاثة أيام، ثم أمر بما بقي فحازه له.

انصرف ـ صاحب الزنج ـ لتوسيع منطقة نفوذه، وأخذ بادىء ذي بدء بتوجيه السرايا إلى **الأبلة،** وجعل يحاربهم من ناحية شاطىء عثمان بقوات المشاة، مع القيام بهجمات عبر دجلة ـ بواسطة السفن ـ. وجعلت سراياه تضرب إلى ناحية نهر معقل. وعندما عرف ـ صاحب الزنج ـ بأن اللحظة المناسبة قد أزفت، أصدر أمره باجتياح ـ **الأبلة** ـ فأضرمت النار بالأبنية ـ الخشبية ـ فأسرعت النار في التهاب الأبنية المتكاثفة، وجاءت ريح عاصفة، فأطارت شرر ذلك الحريق فزاد اتساع دائرة الحريق، وقتل بالأبلة خلق كثير، وغرق خلق كبير، وحويت الأسلاب، فكان ما احترق من الأقبعة أكثر مما انتهب.

علم أهل ـ عبادان ـ بما فعله الزنج في الأبلة، فصعقت قلوبهم، وخافوهم

على أنفسهم وحرمهم، فأعطوا بأيديهم، وسلموا لصاحب الزنج بلدهم، فدخلها الزنج، وأخذوا من كان فيها من السود، وحملوا ما كان فيها من السلاح، فوزعه صاحب الزنج على أصحابه.

أفاد ـ صاحب الزنج ـ من جيش الرعب الذي كان يتقدم جيشه، فسار بجيشه الى ـ **جبى** ـ فلم يثبت له أهلها، وهربوا منه، فدخل الزنج ـ جبى ـ وقتلوا وأحرقوا ونهبوا وأخربوا ما وراءها، وساروا حتى وصلوا الى ـ **الأهواز** ـ فهرب الناس منهم أيضاً، فلم يقاتلهم كثير أحد، فدخلوا المدينة، فاحتووها ونهبوها، ونزل بأهل البصرة رعب كبير، فانتقل كثير من أهلها عنها، وتفرقوا في بلدان شتى، وكثرت الأراجيف من عوامها.

ومضى عام، وجاء عام (**٢٥٧ هـ = ٨٧٠ م**) وثورة الزنج في تطور، غير أنها شهدت في هذا العام بعض الانتكاسات، فعندما وصل (سعيد بن الحاجب) الى البصرة، وشاهد ما نزل بها من الدمار المادي، وما نزل بأهلها من الانهيار المعنوي، مضى بجيشه الى ـ نهر معقل ـ فوجد هنالك جيشاً لصاحب الزنج، فأوقع به وهزمه. واستنقذ ما كان في أيدي الزنج من النساء والنهب. وأصابت سعيداً في تلك الوقعة جراحات، منها جرح في فمه ـ ولكنه سار بالرغم من ذلك الى الموضع الذي كان معروفاً باسم ـ عسكر أبي جعفر المنصور. فأقام فيه ليله، وبلغه أن صاحب الزنج قد حشد جيشاً له في ـ الفرات ـ فتوجه لقتاله، وباغته وهزمه ـ واستأمن له عمران زوج جدة ابن صاحب الزنج المعروف باسم انكلاي ـ وتفرق جمع الزنج، وأصابهم الهلع ـ حتى ذكر بأن المرأة من سكان الفرات كانت تقبض على المقاتل من رجال الزنج فتأتي به عسكر سعيد ما به منها امتناع. ثم توجه سعيد لحرب الخبيث ـ صاحب الزنج ـ فعبر إلى غربي دجلة، فأوقع به وقعات في أيام متوالية، ثم انصرف سعيد الى معسكره ـ بهطمه ـ فأقام به وهو يحارب صاحب الزنج لأكثر من شهر. ثم أن صاحب الزنج

ثم أن صاحب الزنج وجه قوة من ألف رجل للقيام بإغارة ليلية ـ **وقبل طلوع** الفجر ـ على معسكر سعيد ابن الحاجب، وتم تنفيذ الإغارة بصورة مباغتة **أذهلت جند** سعيد بن الحاجب فقتل الزنج منهم مقتلة عظيمة، وأحرقوا معسكر سعيد، **مما حمل أمير**

المؤمنين على استدعاء سعيد بن الحاجب إلى بغداد، وعزله، وإسناد قيادة جيشه إلى قائد حرب الأهواز وصاحب خراجها ـ منصور بن جعفر الخياط ـ فكان أول ما فعله منصور هو جمع السفن التي تنقل الحبوب والمواد التموينية؛ ونقل هذه المواد إلى البصرة، فضاق بالزنج الميرة، ونقصت موادهم التموينية، ثم حشد منصور جيشه، وتوجه به نحو معسكر صاحب الزنج ـ عبر دجلة ـ فنزل على قصر ـ على دجلة ـ كان صاحب الزنج يستخدمه، فأحرقه وما حوله، ثم اقتحم معسكر الزنج الذين نصبوا له كميناً، فقتلوا من جنده عدداً كبيراً ـ ودفع الباقين الى الماء فغرق منهم عدد آخر. وحمل الزنج من رؤوس أعدائهم اكثر من خمسمائة رأس، وحملت إلى قائد الزنج في نهر معقل ـ يحيى بن محمد البحراني ـ فأمر بنصب بعضها. ووجه صاحب الزنج جيشاً بقيادة ـ علي بن أبان ـ لدعم جيش البحراني؛ والانتشار في الأهواز ـ وتصادف سير هذا الجيش مع عودة جيش أمير المؤمنين ـ المعتمد ـ من فارس بقيادة ابراهيم بن سيما، فباغت هذا الجيش قوات الزنج وقتل منهم عدداً كبيراً وهرب ـ علي بن أبان ـ وأصابته طعنة في أخمصه، فعجز عن السير الى الأهواز، وتوجه الى ـ جبى ـ. وقسم إبراهيم بن سيما جيشه الى قوتين تولى قيادة قوة منها وسار بها على طريق الفرات نحو ـ جبى ـ بينما تولى شاهين بن بسطام قيادة القوة الثانية وسار بها على طريق نهر موسى، وحددا موعداً معيناً للالتقاء ومهاجمة ـ علي بن أبان ـ. وعرف علي بن أبان بأمر وصول شاهين بن بسطام وقوته الى نهر موسى، فوجه لقتالها قوة كافية ونشبت معركة ضارية بين القوتين ـ وقت العصر ـ وثبت أصحاب شاهين، وقاتلوا قتالاً شديداً، ثم صدمهم الزنج صدمة صادقة، فولوا منهزمين، وقتل شاهين بن بسطام وابن له وكانا في مقدمة القوم، وقتل منهم بشر كثير. ووصلت الى ـ علي بن أبان ـ معلومات عن وصول ابراهيم بن سيما الى نهر جبى. فسار لقتاله وليس معه اكثر من خمسين رجلاً، واقترب من المعسكر المعادي وسمع ضجيج أهل العسكر وكلامهم، فلما سكنت حركتهم، باغتهم بهجومه ـ وقت العشاء الآخرة، فأوقع بهم وقعة غليظة، قتل فيها جمعاً كثيراً. وانسحب علي بن أبان، حيث ورد إليه كتاب صاحب الزنج بالمسير الى البصرة لحرب أهلها.

كان أمير البصرة وقائد حربها ـ منصور بن جعفر الخياط ـ قد رجع بعد هزيمته

الى البصرة، وقد ضعف أمره، فانصرف لاعادة تنظيم قواته، وتأمين الامدادات والمواد التموينية لأهل البصرة، فبدأت أمور البصرة بالازدهار، وأصاب أهلها بعض الرخاء، فساء ذلك صاحب الزنج، فوجه جنده لقتال أهل البصرة، فكانوا يقاتلونهم صباح مساء، ثم وجه ـ علي بن أبان ـ وقواته لحصارها والتضييق عليها، فعاد حال أهل البصرة الى ما كانت عليه حالهم من نقص الأغذية وشح التموين، ولما عرف الخبيث ـ صاحب الزنج ـ بضعف أهلها وتفرقهم، قرر جمع قواته للهجوم على أهل البصرة وتدميرها. وبدأ يشيع في أصحابه ما يدعم به من روحهم المعنوية ـ من ذلك قوله: **«اجتهدت في الدعاء على أهل البصرة؛ وابتهلت إلى الله في تعجيل خرابها، فخوطبت، فقيل لي: إنما البصرة خبزة لك تأكلها من جوانبها، فإذا انكسر نصف الرغيف خربت البصرة، فأولت انكسار نصف الرغيف انكساف القمر المتوقع في هذه الأيام، وما أخلق أمر البصرة أن يكون بعده» . وأفاض أصحابه في تناقل هذا الحديث، وأخذوا في الاستعداد لحرب البصرة وتخريبها.**

أرسل الخبيث صاحب الزنج أحد كبار أنصاره الى الأعراب الضاربين حول البصرة، فأتاه منهم بخلق كثير، فأنزلهم بالقندل ـ وأسلم قيادتهم الى ـ سليمان بن موسى الشعراني ـ وكلفه بتموين الأعراب على مهاجمة البصرة والاغارة على أطرافها. فلما كان الكسوف، وجه قوة بقيادة ـ علي بن أبان ـ وضم إليه طائفة من الأعراب، وأمره بدخول البصرة من ناحية ـ بني سعد ـ. كما أمر يحيى بن محمد البحراني باجتياح البصرة من ناحية ـ نهر عدي ـ وضم سائر الأعراب إليه ـ. وانطلق علي بن أبان في هجومه، فاصطدم بمقاومة الجند الذين كان يقودهم التركي بغـراج فأقام يقاتلهم يومين، إلى أن أمكن له اقتحام البصرة وقت صلاة الجمعة، فأقام يقتل ويحرق يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت (١٣ و١٤ شوال ٢٥٧ هـ) وأثناء ذلك كان يحيى بن محمد البحراني قد اقتحم البصرة من ناحيته، ولقيه إبراهيم بن يحيى المهلبي، فاستأمنه لأهل البصرة، فآمنهم، ونادى منادي أهل البصرة: **«من أراد الأمان فليحضر دار ابراهيم»** فحضر أهل البصرة قاطبة حتى ملؤوا الرحاب. فلما رأى اجتماعهم انتهز الفرصة، فأمر بإغلاق الطرق والدروب لئلا يتفرقوا وغدر بهم. وأمر أصحابه بقتلهم.

فقتل كل من شهد ذلك المشهد إلا الشاذ، ثم انصرف الى قصر عيسى بن جعفر بالخريبة فأقام فيه. واندلعت النيران في سائر انحاء البصرة، فيما بقي القتل مستمراً في أهلها، الذين ارتفع ضجيجهم وهم يقتلون، فكانت أصوات التشهد تسمع من مكان بعيد. وأحرق المسجد الجامع. وسارت النار تحرق كل شيء تمر به من إنسان وبهيمة وأثاث ومتاع؛ فيما استمر الزنج خلال الأيام التالية بالبحث عن المختبئين واستخراجهم فمن كان ذا مال، استصفي ماله وقتل، ومن كان معدماً عوجل بقتله. **وجاء إلى الخبيث صاحب الزنج قوم من العلوية الذين كانوا بالبصرة - منهم علي بن أحمد ابن عيسى بن زيد، وعبدالله بن علي في جماعة من نسائهم وحرمهم. فلما جاؤوه ترك الانتساب الى احمد بن عيسى، وانتسب إلى يحي بن زيد - ولكن المسلمين عرفوا كذب انتسابه، لأن يحي لم يعقب إلا بنتاً ماتت وهي ترضع. وعندما لم يبق من البصرة إلا الرماد، أمر صاحب الزنج قواته بتركها وانسحب منها.**
ترددت أصداء حريق البصرة قوية في أرجاء بلاد المسلمين، وفزع الناس وثارت مشاعرهم، لما قام به الزنج من أعمال وما ارتكبوه من جرائم وحشية، ووجه أمير المؤمنين قوة لحرب الزنج بقيادة محمد المعروف بالمولد، فسار هذا الى الأبلة، واجتمع من أهل البصرة خلق كثير ممن كان قد نجح في الهرب من المذبحة، وتولى قيادتهم رجل اسمه - برية - فسار بهم الى نهر الغوثي. ولما علم صاحب الزنج بقدوم محمد المولد وقوته، كتب الى يحي بن محمد البحراني، وأمره بمحاربة هذا الجيش، فسار يحي وحارب محمداً المولد عشرة أيام. ثم نظم إغارة واستمر القتال في اليوم التالي حتى العصر، ثم انتصر الزنج، ودخلوا المعسكر فغنموا ما فيه، وقاموا بمطاردة محمد وجيشه. وعمل الزنج أثناء المطاردة على انتهاب الحوانيت التي كانت في طريقهم، ثم عادوا فمروا بقرية - الجامدة - فأوقعوا بأهلها، وانتهبوا كل القرى التي مروا بها، وسفكوا ما تمكنوا من سفكه من الدماء، واستمروا في سيرهم حتى وصلوا نهر معقل، فأقاموا هناك.

جاءت سنة ٢٥٨ هـ = ٨٧١ م وهي تحمل معها المزيد من الأحداث المثيرة في ثورة الزنج؛ فقد أصدر الخبيث صاحب الزنج أمره الى قائده - علي بن أبان - بالتوجه

الى ـ جبى ـ لحرب منصور بن جعفر بن دينار الخياط ـ الذي كان قد أقام معسكره في الأهواز. فسار علي بن أبان بجيشه، وأقام في مواجهة معسكر منصور شهراً، ثم وجه صاحب الزنج قوة لدعم علي بن أبان اختار رجالها من المقاتلين الأشداء، وحملهم في اثنتي عشرة سفينة نهرية ـ شذاة ـ وولى قيادتهم لأبي الليث الأصبهاني وأمره بالسمع والطاعة لعلي بن أبان. ولكن هذا ما إن وصل الى معسكر علي، حتى أقام مخالفاً له. مستبداً بالرأي عليه. وجاء منصور بقواته، فأسرع أبو الليث لركوب السفن ـ دون إعلام علي بن أبان او الاتفاق معه على خطة للهجوم ـ ودارت معركة انتصر فيها جند منصور واستولوا على السفن وقتل خلقاً كثيراً من الزنج والبيضان، وهرب أبو الليث فالتحق بصاحب الزنج ـ. وابتعد علي بن أبان بجيشه، وغاب شهراً، ثم رجع لقتال منصور، وأرسل عناصر جاسوسيته ومفارز استطلاعه لجمع المعلومات عن معسكر منصور. وعلم أن هناك قوة قد وضعها منصور في قرية ـ كرنبا ـ. فنظم إغارة ليلية على هذه القوة، وباغتها بهجومه وقتل قائدها وعامة من كان معه، وغنم ما كان في معسكره، ونهب أفراساً وجدها ثم أحرق المعسكر وانصرف من ليلته، وعاد الى معسكر على نهر جبى. وعلم المنصور بذلك، فسار بقواته حتى وصل الى الخيزرانية، فخرج إليه علي في قوة من الزنج، ودارت معركة قصيرة، ثم انهزم منصور، وتفرق عنه أصحابه، وانقطع عنهم، ولحقت به طائفة من الزنج، فلم يزل يقاتلها حتى تقصفت رماحه ونفذت سهامه ولم يبق معه سلاح. فسار الى النهر ليعبر، فسبقه بعض الزنج، وأمسكوا به واحتزوا رأسه. وقتل معه أخوه خلف بن جعفر.

كان أمير المؤمنين المعتمد، قد عقد لأخيه أبي أحمد بن المتوكل، ووجهه لحرب الزنج، وعين معه قائداً اسمه ـ مفلح ـ وأرسل معه جيشاً، وصفه جماعة من مشايخ أهل بغداد بقولهم: «**قد رأينا جيوشاً كثيرة من الخلفاء، فما رأينا مثل هذا الجيش؛ أحسن عدة، وأكمل سلاحاً وعتاداً، وأكثر عدداً وجمعاً**» وتبع ذلك الجيش من متسوقة أهل بغداد خلق كثير. ما إن علم صاحب الزنج بوصول جيش أمير المؤمنين، حتى أذن لقائده ـ يحيى بن محمد البحراني ـ بالانتقال من معسكره على نهر معقل، إلى نهر العباس، ولحق به معظم جند الزنج، أما ـ علي بن أبان ـ فكان

معسكراً في ـ جبى ـ ومعه جمع كبير من الزنج، وقد صارت البصرة مغنماً لهم، فكانوا يغادونها ويراوحونها لنقل ما تقع عليه أيديهم. وهكذا لم يبق مع صاحب الجند إلا قوات قليلة. وبينما هو كذلك وصل إليه جيش أمير المؤمنين. وهرب من وجهه كل من كان في معسكر نهر معقل من الزنج. وأرسل صاحب الزنج طلائعه وعناصر استطلاعه لجمع المعلومات عن حجم جيش أمير المؤمنين وقوته وأسماء قادته، فلما عرف كبر هذا الجيش ومقدار قواته أرسل إلى ـ علي بن أبان ـ وطلب إليه الانضمام اليه. وجاء علي بن أبان فأقام معسكره بازاء معسكر قائده ـ صاحب الزنج ـ الذي انطلق في اليوم التالي لتفقد الجيش واستطلاع معسكر أمير المؤمنين، ودراسة الأرض، حيث أمطرت السماء يومها مطراً خفيفاً، فأصبحت الأرض ثرية تزل عنها الأقدام، وعاد بعد جولته الى معسكره، ووجه رسالة الى علي بن أبان، وأمره بدفع اكبر قوة من المشاة، ودارت معركة ـ أصيب فيها قائد جيش أمير المؤمنين ـ مفلح ـ(*) بسهم لم يعرف من رماه. واستطاع الزنج انتزاع النصر، وزال ما كان بهم من الخوف والرهبة عندما وقعت أبصارهم على جيش أمير المؤمنين، فانطلقوا يقتلون قدر ما يستطيعون، وجاؤوا وهم يحملون الرؤوس بأسنانهم، حتى ألقوها بين يدي صاحب الزنج، فكثرت الرؤوس يومئذ حتى ملأت كل شيء، وجعل الزنج يقتسمون لحوم القتلى ويتهادونها بينهم.

عمل أبو أحمد بن المتوكل على تنظيم انسحاب جيشه الى الأبلة، ولم يلبث مفلح أن مات من إصابته بالسهم في صدغه، فحملت جثته الى ـ سامرا ـ فدفن بها. وأخذ أبو أحمد في إعادة تنظيم قواته، وجمع ما كان قد تفرق منها، استعداداً للمعركة القادمة.

بينما كانت هذه المعركة تتطور لمصلحة الزنج، كانت هناك معركة أخرى تـدور

(*) لم يكن الخبيث صاحب الزنج يعرف كيف قتل مفلح، فلما بلغه أنه أصيب بسهم، ولم ير أحداً ينتحل رميه، ادعى انه هو الذي رمى السهم. وقال: سقط بين يدي سهم، فأتاني به خادمي ـ واح ـ فدفعه إلي. فرميت به فأصبت مفلحاً. ولما سمع ذلك محمد بن الحسن قال: «لقد كذب، لأني كنت حاضراً ذلك المشهد، وإنه ما نزل عن فرسه حتى أتاه الخبر بهزيمة العدو، وحملت إليه الرؤوس، وانقضت الحرب».

في الوقت ذاته في غير مصلحتهم. إذ بينما كان ـ يحيى بن محمد البحراني ـ يسير نحو فوهة نهر العباس، اصطدم بقوة من ثلاثمائة وسبعين فارساً من قوات عامل الأهواز، فلما أبصر يحيى بهذه القوة استقلها واستخف بها، وقارنها بكثرة من كان معه من القوات، فهان عليه أمرها، وأقبل على قتالها. فما كان من هذه القوة إلا أن استقبلت الزنج بالسهام، واكثرت فيهم الجراح. فلما رأى ذلك يحيى، عبر إليهم ومعه عشرون ومائة فارس. مع جمع كبير من المشاة الرجال. وانسحب فرسان الاهواز فانضموا الى بقية قواتهم. وولج الزنج وقائدهم نهر العباس في وقت قلة الماء في النهر. والسفن جانحة على الطين. فلما أبصر أصحاب تلك السفن بالزنج، تركوا سفنهم، وحازها الزنج، وغنموا ما كان فيها من غنائم عظيمة جليلة. ومضوا بها نحو بطيحة ـ الصحناة ـ. وتركوا الطريق النهج، حتى وصلوا البطيحة، وسرح يحيى الخيل التي كانت معه وجعلها تحت قيادة أبي الليث الأصبهاني، وأمره بالسير بها الى معسكر قائد الزنج. وكان الخبيث صاحب الزنج، قد أرسل رسالة الى يحيى البحراني أعلمه فيها بتوجه جيش أمير المؤمنين نحوه، وأمره بالتحرز. فوجه البحراني الطلائع إلى دجلة. وتصادف وصول هذه الطلائع مع وصول طلائع جيش أمير المؤمنين بقيادة أبي أحمد الذي سار من الأبلة إلى نهر أبي أسد بهدف منع الامدادات من الوصول الى الزنج.

رجعت طلائع الزنج الى يحيى البحراني، وأعلموه بكبر جيش أمير المؤمنين، فرجع يحيى في الطريق الذي كان سلكه بمشقة شديدة نالته ونالت أصحابه، وأصابهم وباء من إقامتهم في تلك البطيحة، فكثر المرض فيهم. فلما قربوا من نهر العباس، وجه مقدمته بقيادة يحيى بن محمد سليمان بن جامع، فمضى يقود أوائل الزنج، وهم يجرون سفنهم، يريدون الخروج من نهر العباس. ولكنهم جابهوا سفناً لأمير المؤمنين كانت تحمي فوهة النهر ومعها جمع من الفرسان والرجالة. فترك الزنج سفنهم وقد نزل بهم الروع، وألقوا أنفسهم في غربي نهر العباس، ومضوا على طريق الزيدان نحو معسكر الخبيث صاحب الزنج. وبقي يحيى وهو يجهل ما فعلته طليعته ومقدمته، وبينما هو كذلك وهو في وسط جنده؛ إذا بقوة من جيش أمير المؤمنين ـ بقيادة طاشتمر التركي ـ وهي تباغته بالهجوم. وفي هذا الوقت، أقبلت الأعلام الحمراء من الجانب الغربي من نهر

العباس، فلما رآها الزنج، ألقوا أنفسهم في الماء جملة، فعبروا إلى الجانب الشرقي. ولم يبق مع يحيى إلا بضعة عشر رجلاً، فنهض يحيى عند ذلك، فأخذ درقته وسيفه، واحتزم منديله، وتلقى القوم الذين أقبلوا عليه، وبدأ الاشتباك بالتراشق بالسهام. وأصيب يحيى البحراني بأسهم ثلاثة في عضده وساقه اليسرى، فحمله أصحابه إلى الجانب الشرقي من النهر، وأثقلت يحيى الجراحات التي أصابته. فلما رأى الزنج ما نزل به اشتد جزعهم، وضعفت قلوبهم، فتركوا القتال، وحاز جند أمير المؤمنين الغنائم التي كانت في السفن بالجانب الغربي من النهر، فلما حووها، أقعدوا في بعض تلك السفن النفاطين، وعبروهم إلى شرقي النهر، فأحرقوا ما كان هناك من السفن التي كانت في أيدي الزنج. وانفض الزنج عن يحيى، فجعلوا يتسللون بقية نهارهم، بعد قتل فيهم ذريع، وأسر كثير. فلما أمسوا وأسدف الليل، طاروا على وجوههم. وحاول يحيى بن محمد الأزرق البحراني التسلل والهرب، فعرفه قوم، وسلموه إلى أبي أحمد، الذي حمله الى أمير المؤمنين المعتمد بسامرا، فأمر ببناء دكة بالحير، ثم رفع للناس حتى أبصروه. وجلس المعتمد من غد، فضرب يحيى بين يديه مائتي سوط، ثم قطعت يداه ورجلاه من خلاف، ثم خبط بالسيف، ثم ذبح ثم أحرق(*).

لم يستقر جيش أمير المؤمنين طويلاً في معسكره - بجوار نهر ابي الأسد، فقد انتشرت الأوبئة بين جنده، وفشا فيهم الموت، فانتظر قائد الجيش-أبو أحمد بن المتوكل- حتى أبل من نجا من الجند من علته، ثم انصرف بجيشه راجعاً إلى - باذاورد -. فعسكر به، وأمر بتجديد الآلات، وإعطاء من معه من الجند أرزاقهم، وإصلاح السفن والمعابر، وشحنها بالقواد من مواليه وغلمانه، ثم نهض نحو معسكر الخبيث

(*) لما علم صاحب الزنج بقتل قائده يحيى قال: «عظم علي قتله، واشتد اهتمامي به، فخوطبت فقيل لي: قتله خير لك، إنه كان شرهاً، ثم أقبل علي جماعة كنت أنا فيهم. وكان من شرهه أنا غنمنا غنيمة من بعض ما كنا نصيبه، فكان فيه عقدان، فوقعا في يد يحيى، فأخفى عني أعظمها شأناً، وعرض علي أخسها، واستوهبنيه فوهبته له. فرفع لي العقد الذي أخفاه فدعوته فقلت: أحضرني العقد الذي أخفيته، فأتاني بالعقد الذي وهبته له. وجحد أن يكون قد أخذ غيره. فجعلت أصف له العقد الآخر. فبهت وذهب فأتاني به واستوهبنيه فوهبته له. وأمرته بالاستغفار» وذكر أن قائد الزنج قال في بعض أيامه: لقد عرضت علي النبوة فأبيتها، لأن لها أعباء خفت ألا أطيق حملها.

ـ صاحب الزنج ـ. وأمر جماعة من قواده ـ قادته ـ بالتوجه نحو مواضع حددها لهم من نهر أبي خصيب وغيره، وأمر جماعة منهم بالبقاء معه وملازمته لخوض المعركة في الموضع الذي يكون فيه. والتقى الفريقان وليس مع أبي أحمد إلا قلة من جنده، فلم يزل عن موضعه إشفاقاً من أن يطمع فيه الزنج. وفيمن بإزائهم من أصحابه وهم بسبخة نهر ـ منكي ـ وتأمل الزنج تفرق أصحاب أبي احمد عنه، وعرفوا موضعه. فأكثروا جمعهم عليه، واستمرت الحرب، وكثر القتل والجراح بين الفريقين. وأحرق جند أبي أحمد قصوراً ومنازل من منازل الزنج، واستنقذوا من النساء جمعاً كثيراً، وصرف الزنج جمعهم الى الموضع الذي كان به أبو أحمد. وركب أبو أحمد سفينة، وتوسط الحرب محرضاً أصحابه وجنده، فجاءه من جمع الزنج ما علم أنه لا يستطيع مقاومتهم بمثل ما كان معه من القوة الصغيرة، ورأى أنه من الحزم محاجزتهم ـ ايقافهم ـ فأمر جنده بالرجوع الى سفنهم على تؤدة ومهل. وتحرك أبو أحمد بسفينته بعد أن استقر اكثر جنده في سفنهم، وبقيت طائفة من الجند في مواجهة الزنج ـ لحماية الانسحاب ـ فلجؤوا الى الأدغال والمضايق، فانعزلوا عن أصحابهم، فخرجت عليهم كمائن الزنج، فاقتطعوهم وأوقعوا بهم، فدافعوا عن أنفسهم، وقاتلوا قتالاً شديداً، وقتلوا عدداً كثيراً من الزنج، وأدركتهم المنايا فقتلوا وحملوا الى قائد الزنج مائة رأس وعشرة أرؤس، فزاد ذلك من عتوه. ثم انصرف أبو أحمد بجيشه راجعاً الى معسكره في ـ الباذاورد ـ وأقام يعبىء أصحابه للرجوع الى الزنج، فوقعت نار في طرف من أطراف معسكره في أيام عصوف الريح، فاحترق المعسكر، ورحل أبو أحمد بجيشه الى واسط، حيث عمل على توزيع جيشه وتفريقه. ومكث هناك سبعة أشهر، **ثم أعاد تنظيم جيشه (في ربيع الأول من سنة ٢٥٩ هـ = ٨٧٢ م) واستخلف على واسط قائده ـ محمداً المولد ـ وترك معه قوة كافية، وسار ببقية جيشه الى سامرا.**

عندما علم قائد الزنج باحتراق معسكر أبي أحمد وارتحاله وجنده عنه، عاد للعيث والفساد، وانقطعت عنه المواد التموينية، فوجه معظم جيشه بقيادة ـ علي بن أبان المهلبي ـ نحو الأهواز. وكان والي الأهواز يومها رجل تركي اسمه ـ أصغجون ـ فسار بجيشه للقاء جيش الزنج. والتقى الجيشان في صحراء دستماران ـ ودارت معركة قاسية

انتصر فيها الزنج. وقتل قائد جيش الأهواز ـ نيزك ـ وغرق أصغجون. وأسر كبار قادة جيش الأهواز. وكتب علي بن أبان إلى الخبيث صاحب الزنج بأمر الواقعة، وحمل إليه رؤوساً واعلاماً كثيرة. ودخل علي بن أبان الأهواز، فأقام يعيث بها وبما حولها من القرى.

كان أمير المؤمنين ـ المعتمد ـ قد نظم خلال ذلك جيشاً، أسند قيادته الى ـ موسى بن بغا ـ فوجهه لحرب الزنج. وخرج فشيعه الى ظاهر بغداد. وسار ـ موسى بن بغا ـ بجيشه بقيادة اسحاق بن كنداج الى البصرة. وأرسل قوة ثالثة بقيادة ابراهيم بن سيما الى ـ باذاورد ـ وأمرهم بالجد في محاربة صاحب الزنج.

ب ـ الصراع المرير لانتزاع النصر

وصل عبد الرحمن بن مفلح إلى الأهواز، فأقام على ـ قنطرة أربك ـ عشرة أيام، ثم مضى لقتال الزنج الذين كان يقودهم علي بن أبان المهلبي ـ فهزمه المهلبي. وانسحب ابن مفلح فأعاد تنظيم قواته، ورجع بها. وقاتل المهلبي فهزمه، وأوقع به وقعة غليظة، وقتل من الزنج قتلاً ذريعاً، وأسر أسرى كثيرة، وهرب علي بن أبان ومن معه من الزنج حتى وصلوا إلى ـ بيان ـ وأراد الخبيث صاحب الزنج ردهم للقتال، فلم يرجعوا للذعر الذي خالط قلوبهم، فلما رأى ذلك، أذن لهم في دخول عسكره، فدخلوا جميعاً وأقاموا بمدينته. وتابع عبد الرحمن بن مفلح تقدمه حتى وصل إلى ـ حصن المهدي ـ وأقام معسكره فيه. فوجه إليه الخبيث صاحب الزنج جيشاً بقيادة ـ علي بن أبان ـ فهاجمه، ولكنه عجز عن النيل منه، فانسحب من المعركة، وتوجه نحو الموضع المعروف باسم ـ الدكر ـ. فهاجمه إبراهيم بن سيما بجيشه من ـ الباذاورد ـ وهزمه. فأعاد علي بن أبان تنظيم قواته وهاجم جيش ابراهيم، فكانت الهزيمة المنكرة من نصيبه في هجومه الثاني أيضاً. فمضى ـ علي بن أبان ـ منهزماً في جوف الليل، ومعه الأدلاء، فساروا به عبر الأجام والأدغال، حتى وصلوا به ـ نهر يحيى ـ. وعندما علم عبد الرحمن بن مفلح بمكانه، وجه إليه قوة بقيادة ـ طاشتمر ـ فلم يتمكن من الوصول الى نهر يحيى ـ بسبب وعورة الطريق، وامتناع علي بن أبان والزنج بحقول القصب. فعمل ـ طاشتمر ـ على

اضرام النار بالقصب، فخرج الزنج منه هاربين؛ فأسر منهم أسرى؛ وعاد الى قائده عبد الرحمن حاملاً معه الأسرى. ومضى علي بن أبان هارباً حتى وصل ـ نسوخاً ـ فأقام هناك فيمن بقي معه من الزنج. ثم سار الى ـ نهر السدرة ـ وكتب الى الخبيث يستمده بالرجال والسفن. فأرسل إليه ثلاث عشرة سفينة ـ شذاة ـ فيها جمع كبير من الزنج. فسار بهم لقتال عبد الرحمن بن مفلح، فخرج اليه عبد الرحمن بمن معه، غير أنه لم يحدث يوم لقائهما قتال. وتواقف الجيشان. فلما كان الليل، انتخب ـ علي بن أبان ـ جماعة من أصحابه ممن يثق بجلدهم وصبرهم، ومضى بهم بعد أن ترك معسكره في مكانه ليخفي أمر تحركه. وسار حتى وصل إلى ما وراء معسكر عبدالرحمن، ثم باغته بهجومه، فنال منه ومن أصحابه نيلاً. وانحاز عبد الرحمن عنه، وترك أربع سفن من سفنه، فأخذها علي وانصرف. وانسحب عبد الرحمن بجيشه الى ـ الدولاب ـ فأقام به، وأعد قوة من رجاله، وولى عليها ـ طاشتمر ـ وأرسلها لقتال ـ علي بن أبان ـ. فسارت هذه القوة حتى وصلت إلى ناحية ـ باب آزر ـ وهاجمت علي بن أبان. وأوقعت به وبقواته، وهرب ـ علي بن أبان ـ الى نهر السدرة. فكتب ـ طاشتمر ـ الى عبد الرحمن بانهزام علي عنه، فأقبل عبد الرحمن بجيشه حتى وصل الى ـ العمود ـ فأقام هناك، وأعد قواته للحرب، وهيأ سفنه، وأسند قيادتها الى ـ طاشتمر ـ ثم سار إلى فوهة نهر السدرة، فهاجم علي بن أبان. وقتل من الزنج عدداً كبيراً، وأخذ منهم عشر سفن، وهرب علي بن أبان، ورجع الى الخبيث مهزوماً مفلولاً. وسار عبد الرحمن من فوره الى ـ بيان ـ حيث أقام فيها معسكره. فكان عبد الرحمن بن مفلح، وابراهيم بن سيما، يتناوبان الهجوم على معسكر الخبيث، فيوقعان به، ويخيفان من فيه من الجند، بينما كان إسحاق بن كنداج يعمل في البصرة على قطع التموين والامدادات عن معسكر الخبيث. فكان الخبيث ـ صاحب الزنج ـ يجمع قواته في اليوم الذي يخاف فيه من هجوم عبد الرحمن بن مفلح، وإبراهيم بن سيما، إلى أن ينتهي الهجوم، ثم يوجه قوة منهم إلى ناحية البصرة لمهاجمة قوات إسحاق بن كنداج. وأقاموا على ذلك بضعة عشر شهراً، إلى أن وصل أمر أمير المؤمنين باستدعاء موسى بن بغا، وتعيين مسرور البلخي ـ لقيادة الحرب ضد الزنج وصاحبهم الخبيث.

★ ★ ★

وقعت في سنتي ٢٦٠ و ٢٦١ هـ (٨٧٣ و ٨٧٤ م) مجموعة من أعمال التمرد في طبرستان ورامهرمز - مما تطلب توجيه الجهد للقضاء على الثورات المستجدة. ورافق ذلك إعادة تنظيم في القيادات مرات متتالية، مما أفسح المجال أمام - الخبيث صاحب الزنج - لالتقاط أنفاسه واستعادة بعض قوته، وصار باستطاعته استئناف نشاطاته التخريبية.

★ ★ ★

كان أول ما فعله مسرور البلخي بعد تعيينه قائداً لنواحي دجلة، أن وجه قوة الى - الباذاورد - بقيادة - جعلان التركي. ووجه صاحب الزنج قوة بقيادة رجل من أهل - جبى - اسمه احمد بن مهدي - وجهزه بالسفن المحملة بالرجال رماة النشاب - فسار الجبائي في نهر المرأة، وأخذ في الاغارة على القرى - بنواحي المذار - فيعيث فيها، ويعود إلى نهر المرأة فيقيم به. ولما رأى - الجبائي - عدم وجود قوات لأمير المؤمنين في البطيحة ودست ميسان، كتب بذلك إلى صاحب الزنج. فوجه مجموعات من قواته. ودارت معارك متفرقة، استطاع الزنج في نهايتها السيطرة على البطيحة ودست ميسان. وكانت الوقعة بين الزنج وبين أحمد بن ليثويه. من أكبر الوقائع التي جرت في هذه السنة (٢٦٢ هـ = ٨٧٥ م). إذ كان مسرور البلخي قد وجه جيشاً بقيادة أحمد بن ليثويه الى ناحية الأهواز، فلما وصل إليها نزل بمدينة السوس. فبوغت بتحالف الصفارية(*) مع الزنج وبتوجيه جيش مشترك من الصفارية والزنج الى السوس. فجهز أحمد بن ليثويه للقاء هذا الجيش قبل أن يصل إلى السوس. ودارت معركة عنيفة انتصر فيها - ابن ليثويه - وقتل من الزنج وحلفائهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم جماعة،

(★) كان يعقوب بن الليث الصفار من قادة أمير المؤمنين المعتمد وولاته في خراسان، فلما كانت سنة ٢٥٩ هـ - طمع يعقوب في الاستيلاء على المشرق. ودخل هراة ونيسابور وبلاد فارس ودخل رامهرمز سنة ٢٦٢ هـ مما حمل أمير المؤمنين على السير بنفسه لمحاربته. وكان يعقوب قد عين - محمد بن عبيد الله بن أزاذ مرد الكردي على الأهواز - فلما علم هذا بتقدم جيش أحمد بن ليثويه، كتب الى الخبيث صاحب الزنج يعلمه انضمامه اليه، فأجابه الخبيث بأنه يوافق بشرط أن يكون علي ابن أبان هو والي الأهواز. وأن يكون محمد بن عبيد الله خلفاً له - ووافق هذا فوجه علي بن أبان جيشاً إلى محمد بن عبيد الله بقيادة أخيه الخليل بن أبان.

وسار أحمد بن ليثويه حتى جندي سابور. بينما سار علي بن أبان من الأهواز لدعم حليفه الصفاري ـ محمد بن عبيد الله الذي استقبله ومعه جمع من الأكراد والصعاليك. وسار الجيشان لقتال أحمد بن ليثويه؛ ولكنهما تحركا على طرفي ـ نهر المسرقان ـ. ونظما التعاون فيما بينهما. وعندما علم أحمد بن ليثويه بتحرك الجيش المشترك عاد عن جندي سابور، ووصل إلى السوس. وحدث خلاف بين الصفارية والزنج عندما وقف إمام المسجد في تستر، فدعا على المنبر للخليفة أمير المؤمنين ثم للصفار، ولم يذكر قائد الزنج، فقاد علي بن أبان جيشه من الزنج، ورجع إلى الأهواز، وعلم ـ أحمد بن ليثويه ـ بانصراف علي بن أبان وجيشه، فرجع بسرعة إلى تستر، وهاجم محمد بن عبيد الله ومن معه، فقتل منهم جماعة، وهرب محمد بن عبيد الله، ووقع أبو داود الصعلوك أسيراً، فأرسل الى أمير المؤمنين المعتمد، وأقام أحمد بن ليثويه ـ بتستر ـ. فلما علم علي بن أبان، خرج بجيشه لحرب ابن ليثويه، وسار حتى وصل إلى قرية اسمها ـ برنجان ـ. ووجه طلائعه لجمع المعلومات، فعادت هذه الطلائع بسرعة وأعلمته أن ابن ليثويه قد سار لقتاله، وأن أوائل خيله قد وصلت الى قرية اسمها ـ الباهليين ـ. فسار علي بن أبان للقائه، وهو يبشر أصحابه ويعدهم الظفر، فلما وصل بجيشه الى الباهليين، استقبله ابن ليثويه بمجموعة من فرسانه لا يزيدون على أربعمائة فارس، ولكن سرعان ما انضمت إليهم قوة أخرى من الفرسان. فكثرت خيول ابن ليثويه، واستأمن جماعة من الأعراب الذين كانوا مع علي بن أبان إلى ابن ليثويه، وانهزمت بقية قوة فرسان ـ علي بن أبان ـ وتفرق أكثر الزنج، واشتد القتال ضد المشاة، وترجل ـ علي بن أبان ـ وباشر القتال بنفسه راجلاً، ولكنه لم يلبث حتى فر هارباً، ولجأ إلى ـ المسرقان ـ وقذف نفسه بالماء، وأصابه سهم في ساقه، وانصرف مفلولاً، وقتل من جيشه جماعة كبيرة من أبطال جيشه المعروفين.

لم يتوقف ـ علي بن أبان ـ في الأهواز، وإنما مضى في سيره حتى لحق بمعسكر صاحب الزنج، وأقام فيه، وعالج ما قد أصابه من الجراح حتى برأ، ثم كر راجعاً إلى الأهواز (سنة ٢٦٣ هـ = ٨٧٦ م) ووجه جيشاً كثيفاً بقيادة أخيه ـ الخليل بن أبان ـ وابن أخيه ـ محمد بن صالح ـ لقتال أحمد بن ليثويه؛ الذي توافرت له

المعلومات عن تحرك هذا الجيش، فأسرع بقيادة جيشه، والتقى الجيشان على بعد فرسخ من الموقع الذي كان معروفاً باسم ـ معسكر مكرم ـ ونظم ـ ابن ليثويه ـ كميناً، وبدأ هجومه، ثم قام بمناورة خداعية تظاهر فيها بالانسحاب، فطمع الزنج فيه، وطاردوه حتى تجاوزوا الكمين، فخرج الكمين من ورائهم، فانهزموا وتفرقوا. وعاد ـ ابن ليثويه ـ بجيشه، فنال حاجته من الزنج، فرجعوا ممزقين مفلولين. وانصرف ابن ليثويه بجيشه الى ـ تستر ـ. ولكنه لم يستقر فيها طويلاً. فقد علم أن يعقوب بن الليث الصفار قد أقبل بجيشه من فارس، ووصل إلى ـ النوبندجان ـ فانسحب ـ أحمد بن ليثويه ـ من تستر، التي دخلها يعقوب ثم انتقل منها الى جندي سابور، وأرسل قوة إلى الأهواز بقيادة رجل اسمه ـ الحصن بن العنبر ـ. ولم يبق في تلك الناحية أحد من جند أمير المؤمنين.

وقع بعد ذلك صراع بين ـ الصفار والزنج، فعندما اقترب ـ الحصن بن العنبر ـ من الأهواز، خرج عنها علي بن أبان ونزل نهر السدرة؛ وجعل أصحابه وأصحاب الحصن يغير بعضهم على بعض، فيصيب كل فريق منهم من صاحبه، إلى أن استعد علي ابن أبان، فسار إلى الأهواز، وأوقع بالحصن ومن معه وقعة غليظة، قتل فيها من جند يعقوب خلقاً كثيراً، وغنم غنائم كثيرة، وأصاب خيلاً، وهرب الحصن ومن معه. وأقام علي بن أبان بالأهواز، واستباح ما كان فيها، ثم رجع عنها إلى نهر السدرة، وكتب إلى أحد قادته ـ واسمه بهبوذ ـ بالهجوم على رجل من الأكراد من أصحاب الصفار كان مقيماً في ـ دورق ـ. فهاجمه بهبوذ وقتل رجاله وأسره، فمن عليه وأطلقه. وكان علي بن أبان يتوقع بعد ذلك مسير يعقوب إليه، لكن يعقوب اكتفى بتوجيه قوة لدعم الحصن بن العنبر بقيادة أخيه ـ الفضل بن العنبر ـ وأمرهما بالكف عن قتال أصحاب الخبيث، والاقتصار على المقام بالأهواز، وكتب إلى علي بن أبان وسأله المهادنة. وتوقف الفريقان ـ أصحاب الصفار وأصحاب الزنج ـ عن التعرض بعضهم لبعض.

صار باستطاعة الزنج توجيه جهدهم ضد جيش أمير المؤمنين، بعد أن تم لهم الصلح مع الصفار. وكان قائد جيش أمير المؤمنين معسكراً في ـ بردودا ـ بقيادة تكين

البخاري. فسار سليمان بن جامع بجيشه حتى وصل إلى - أكرمهر - على بعد خمس فراسخ من معسكر - تكين - فعمل على حشد قواته من الفرسان والمشاة. ووجه قوة كافية في السفن بقيادة أحمد بن مهدي الجبائي للاشتباك مع جيش تكين وإتعابهم ثم التظاهر بالانسحاب حتى موقع جيش سليمان بن جامع، بحيث يمكن استدراج جيش تكين وتطويقه وتدميره. وتم تنفيذ الخطة بنجاح كبير، فتمت إبادة وتدمير معظم جيش تكين، وأعاد سليمان بن جامع تنظيم قواته، وباغت معسكر تكين بهجوم ليلي - بدأه عند المغرب - ودارت رحى معركة ضارية، انتهت بانتصار الزنج الذين دخلوا معسكر تكين وغنموا ما وجدوا فيه، وأحرقوه. وانصرف سليمان بن جامع بغنائمه وانتصاره. ثم حمل ما أراده من الغنائم والأعلام وسار إلى معسكر صاحب الزنج، لدراسة الموقف.

استمرت الحرب مع الزنج في هذه السنة (٢٦٤ هـ = ٨٧٧ م). وهي متماثلة في أهدافها متشابهة في أساليبها وطرائقها، وكان من أبرز أحداثها دخول الزنج إلى واسط ونهبها وسبيها وهرب أهلها عنها. ثم تبع ذلك في السنة التالية (٢٦٥ هـ = ٨٧٨ م) تجدد القتال بين أحمد بن ليثويه وسليمان بن جامع كان النصر فيه لأحمد بن ليثويه على الزنج. وكذلك حقق تكين البخاري نصراً على الزنج وقائدهم علي بن أبان. ثم كان من أبرز أحداث سنة (٢٦٦ هـ = ٨٧٩ م) دخول الزنج الى رامهرمز. وتجدد الصراع بينهم وبين الصفارية. وبدأ التحول الحاسم في غير مصلحة الزنج اعتباراً من سنة (٢٦٧ هـ = ٨٨٠ م) حيث تولى أبو العباس بن الموفق قيادة الحرب وأمكن له طرد الزنج من جميع قرى دجلة. وقد يكون من المناسب التوقف عند هذه الموقعة التي كانت بمثابة نقطة التحول في الصراع ضد الزنج.

علم أبو أحمد المتوكل ما فعله الزنج بمدينة واسط وما نزل بأهلها من البلاء، فندب ابنه أبا العباس لحرب الزنج، وجهزه بجيش من الفرسان والمشاة ضم عشرة آلاف رجل، وخرج هذا الجيش بعد استعراضه في بغداد، وهو في أحسن زي وأجمل هيئة وأكمل عدة. ومعهم السفن والزوارق والمعابر. وسار أبو العباس بجيشه الى المدائن، ثم رحل إلى دير العاقول.

عندما توجه أبو العباس لحرب الزنج، اجتمع قادتهم، وبحثوا الموقف، فقالوا: **« هذا فتى حدث، لم تطل ممارسته الحروب وتدربه بها، فالرأي لنا أن نرميه بجدنا كله، ونجتهد في أول لقية نلقاه في إزالته، فلعل ذلك أن يروعه، فيكون سبباً لانصرافه عنا »**.

وجه أبو العباس من دير العاقول قوة استطلاع بقيادة قائد السفن ـ نصير المعروف بأبي حمزة ـ وسرعان ما وصلت رسالة من نصير إلى أبي العباس، أعلمه فيها أن سليمان ابن جامع قد أقبل بحشد كبير من المشاة والفرسان والسفن ونزل الجزيرة بحضرة ـ بردودا ـ وأن سليمان بن موسى الشعراني قد أقبل بقوة كبيرة أخرى من المشاة والفرسان والسفن فوصل إلى ـ نهر أبان ـ. وتحرك أبو العباس على الفور ووصل إلى ـ جرجرايا ـ ثم فم الصلح، فجاءته المعلومات بأن الزنج قد حشدوا معظم قواتهم في جيش ضخم وصل أوله الى ـ الصلح ـ وانتشر حتى بستان موسى بن بغا ـ في أسفل واسط ـ. فلما عرف ذلك، عدل في سيره عن الطريق، ودفع مقدمته، فاصطدمت بمقدمة قوات الزنج، ووقع اشتباك، تظاهر فيه جند أبو العباس بالهزيمة والانسحاب، وطمع الزنج واغتروا، وأمعنوا في مطاردتهم، وجعلوا يقولون لهم: **« اطلبوا أميراً للحرب، فإن أميركم قد شغل نفسه بالصيد »**. فلما قربوا من أبي العباس، خرج عليهم فيمن معه من المشاة والفرسان وأمر قائد مقدمته ـ نصير ـ بقوله: « إلى أين تتأخر عن هؤلاء الكلاب! ارجع إليهم ». فرجع نصير. وركب أبو العباس في إحدى السفن، ووجه قواته لتطويق الزنج، وسرعان ما أحاط بهم من كل جانب. **ومنح الله أبا العباس أكتافهم، يقتلونهم ويطردونهم، حتى وصلت المطاردة إلى ست فراسخ من الموضع الذي لقوهم فيه، وأخذوا منهم عدداً من الزوارق والسفن، واستأمن منهم قوم، وأسر منهم أسرى، وغرق منهم آخرون لم يتمكنوا من الوصول إلى السفن، فكان ذلك أول الفتح على أبي العباس بن أبي أحمد**.

لما انقضت الحرب في هذا اليوم، أشار على أبي العباس قواده وأولياؤه أن يجعل معسكره بالموضع الذي كان انتهى إليه ـ من الصلح ـ إشفاقاً عليه من مقاربة الزنج. فأبى إلا نزول واسط. وركب من غد، فدخل واسطاً في أحسن زي، وكان يوم

جمعة، فأقام حتى صلى بها صلاة الجمعة، واستأمن إليه خلق كثير، ثم انحدر إلى ـ العمر ـ وهو مكان على بعد فرسخ من واسط، فأقام فيه معسكره. وقال: «أجعل معسكري أسفل واسط، ليأمن من في واسط شر الزنج». وأخذ في بناء السفن والمعابر، وجعل يراوح القوم القتال ويغاديهم. ونظم الاستطلاع وتدابير الأمن، فوضع في كل زورق اثنين من خاصة غلمانه.

عمل ـ سليمان بن جامع ـ على إعادة حشد قوات الزنج وتنظيمها، وشكل منها ثلاث فرق: فرقة منها وجهها عن طريق نهر أبان ـ ووجه الفرقة الثانية عن طريق برتمرتا، ووجه الفرقة الثالثة عن طريق بردودا، ووضع خطته لمباغتة معسكر أبي العباس بالهجوم من ثلاث اتجاهات، ولكن أبا العباس كان مستعداً لمجابهة مثل هذا الاحتمال، ودارت معركة ضارية انتهت بهزيمة الزنج هزيمة منكرة، فتفرقوا في كل اتجاه، وطاردهم جند أبي العباس حتى اختفت آثارهم. ثم انصرف أبو العباس راجعاً، وأخذ في التوقف عند مفترق الطرق والدروب ـ لاستطلاعها ـ ومعه الأدلاء، حتى وصل معسكره، فأقام به مريحاً نفسه وأصحابه. ولم يلبث أن جاءه مخبر، فأعلمه أن الزنج قد أعادوا تجميع قواتهم، واستعدوا للإغارة على معسكره، ومهاجمته من ثلاث اتجاهات، وأنهم قالوا: «إن أبا العباس هو حدث غر ـ يغر بنفسه» وأنهم قد نظموا مجموعات لنصب الكمائن. فاستعد أبو العباس لمجابهة الهجوم. ثم توافرت له المعلومات بأن الزنج قد حشدوا في ـ برتمرتا ـ زهاء عشرة آلاف مقاتل، وحشدوا مثلها في ـ قس هثا ـ وأنهم دفعوا عبر النهر بعشرين سفينة كبيرة محملة بالجند تكون هي مقدمة الهجوم، حتى إذا ما تمكنت هذه القوم من اجتذاب جيش أبي العباس. خرجت عليه الكمائن من خلفه وهاجمته بقية القوات. فأصدر أبو العباس أمره بمنع الناس من مغادرة مواقعهم، أو القيام بمطاردة الجند المتقدمين عبر النهر. ونظم أبو العباس قواته تنظيماً رائعاً. ووجه قوة بقيادة قائد السفن ـ نصير المعروف بأبي حمزة ـ لمجابهة القوة المعادية. ودارت معركة ضارية على جبهة واسعة ـ من حد قرية الرمل إلى الرصافة ـ ثم كانت الهزيمة على الزنج، واستولى جند أبي العباس على أربع عشرة سفينة كبيرة من سفن الزنج، وهرب قائدا الزنج ـ سليمان بن جامع وأحمد بن مهدي الجبائي ـ بعد أن أشرفا على الهلاك. وفرا راجلين،

وأخذت دوابها بحلاها وآلتها. واستولى الجند على كثير من متاع الزنج وسلاحهم. وعاد أبو العباس الى معسكره في ـ العمر ـ. وأمر بإصلاح ما أخذ من الزنج من السفن والزوارق، وشحنها بالجند.

مضى على ذلك عشرون يوماً، لم يظهر خلالها أحد من الزنج؛ إلا ما كان من ـ الجبائي ـ الذي كان يجيء في الطلائع في كل ثلاثة أيام وينصرف، وقد عمل خلال هذه الفترة على حفر آبار كثيرة على طريق نهر سنداد، ثم غطاها وموهها وأخفى مواضعها. ولكن حدث أن سقط أحد الزنج في حفرة من هذه الحفر، أثناء مطاردة قام بها جند أبي العباس. فتم العمل لكشف بقية الآبار والحفر. ولما فشل الزنج في اجتذاب قوات أبي العباس، توقفوا شهراً آخر عن ممارسة أي نشاط قتالي.

كتب ـ سليمان بن جامع ـ رسالة إلى صاحب الزنج طلب فيها دعمه بسفن كبيرة، لكل واحدة منهن أربعون مجذافاً، فأرسل له أربعين سفينة بعد عشرين يوماً. ومع كل سفينة مقاتلان وملاحيها والسيوف والرماح والتراس. فوجه سليمان قوة بقيادة أحمد بن مهدي الجبائي للتمركز مقابل معسكر أبي العباس، ومعاودة التعرض له ومحاربته في كل يوم، فإذا ما خرج إليهم جند أبي العباس، انسحبوا من مواجهتهم، وتأتي الطلائع خلال ذلك، فتعمل على قطع القناطر، والرمي على الفرسان بالنشاب ـ السهام ـ وكذلك إضرام النار بما يمكن العثور عليه من سفن ـ نصير ـ واستمر الجبائي في ممارسة هذه الأعمال زهاء شهرين. وعمل أبو العباس من جانبه على تنظيم كمين ـ في قرية الرمل ـ فدفع بمجموعة من السفن أمام الجيش حتى يطمع الزنج فيها، وأعد مجموعة من السفن شحن فيها نخبة مختارة من مقاتليه الأشداء وخصص واحدة منها لركوبه ـ فكان عددها خمس عشرة سفينة، وأمر بوضعها في مقدمة الجيش وأسرع الزنج لمهاجمة السفن، واستولوا على بعضها، وأسروا أسرى، وارتفع النداء: «لقد أخذ الزنج سفننا» فسمع أبو العباس النداء وهو يتغدى، فنهض إلى سفينته التي كانت قد أعدت له، وتقدم الجيش، ولم ينتظر لحاق قادته وجنده، فتبعه منهم من أسرع بالركوب. ووصلوا الى الزنج، فلما شاهد الزنج ذلك، قذف الله الرعب في قلوبهم، فقذفوا أنفسهم في الماء وانهزموا، وتم استخلاص ما كان الزنج قد أخذوه، واستولوا

على إحدى وثلاثين سفينة من سفن الزنج. وهرب ـ الجبائي ـ في ثلاث سفن. وأراد الجند مطاردة الزنج، غير أن أبا العباس منعهم لما أصاب جنده من اللغوب ـ شدة التعب ـ وعاد بهم إلى معسكره، وترك قوة كافية عند فوهة نهر ـ بردودا ـ فلما دخل معسكره، أمر لمن كان صحبه بالأطواق والخلع والأسورة، وأمر بإصلاح السفن التي تم أخذها من الزنج، وأمر أبا حمزة أن يجعل مقامه بما معه من السفن في دجلة ـ بحذاء خسرو سابور ـ. وقرر أبو العباس بعدها أن يتوغل في ـ نهر مازروان ـ والوصول إلى قرية الحجاجية ومنها إلى ـ نهر الأمير ـ لاستطلاع تلك المواضع، والتعرف على الطرق التي تتبعها سفن الزنج؛ فأمر ـ نصير ـ بالتقدم بما معه من السفن والزوارق، وسار يتبعه، حتى إذا ما اقترب من الحجاجية، شاهد عبارة للزنج وعليها عشرة منهم، فأسرع جند أبي العباس إليها، وقذف الزنج بأنفسهم في الماء، وتم الاستيلاء على العبارة، فاذا هي مملوءة بالشعير، وقد بقي فيها زنجي واحد، تم استجوابه فأفاد بأنه لم يشاهد أي سفينة من سفن ـ نصير ـ واحتار أبو العباس في أمره، ثم شاهد الجند على شاطىء النهر أغناماً، فخرجوا لانتهابها ولم يبق مع أبي العباس إلا نفر قليل. وبدأ الزنج في الظهور على طرفي النهر، وقد أنذرهم أصحابهم الذين هربوا من العبارة، وسرعان ما تكاثر جمعهم حتى زادوا على الألفين. وأخذ أبو العباس يرميهم بالنشاب، فأصاب منهم جنديين، والتحقت بأبي العباس في هذه اللحظة الحرجة قوة من قواته، فاشتبكت مع الزنج وتمكنت من تفريقهم وإلحاق الهزيمة بهم. وعاد أبو العباس إلى معسكره، وقد غنم جنده من الغنم والبقر والجواميس شيئاً كثيراً. **وأمر أبو العباس بثلاثة من الملاحين الذين كانوا معه وتركوه لانتهاب الغنم، فضربت أعناقهم، وأمر لمن بقي معه بالأرزاق والتموين لشهر، وأمر بالنداء في الملاحين ألا يبرح أحد سفينته أثناء المعركة، فمن فعل ذلك فقد حل دمه ـ جاز قتله ـ.**

انهزم الزنج أجمعون، وساروا متفرقين حتى لحقوا بمعسكر ـ طهيثا ـ وجمع سليمان ابن جامع جنده وعمل على تحصين طهيثا. وفعل سليمان بن موسى الشعراني مثل ذلك بسوق الخميس. وكان في مدينة ـ الصينية ـ جيش كثيف للزنج بقيادة نصر السندي ـ فانطلقوا يخربون كل ما وجدوا إلى تخريبه سبيلاً ـ ويحملون ما قدروا على حمله من

الغلات والمواد التموينية. ويعملون على تحصين مواضعهم. فعمل أبو العباس على بث طلائعه في جميع النواحي، ثم وجه جماعة من قادته الى ـ الصينية ـ. وركب مع قوة من جنده في السفن، وأمر بنقل خيول من بر مساور إلى طريق الظهر. ثم سار الجيش حتى وصل إلى ـ الهرث ـ وأمر بنقل خيول أخرى إلى الهرث، فعبرت وصارت إلى الجانب الغربي من دجلة؛ وسارت على طريق درب العمال. فلما أبصر الزنج الخيل، دخلتهم منها رهبة شديدة، فلجؤوا إلى الماء والسفن ولم يلبثوا حتى باغتتهم السفن والزوارق، فلم يجدوا ملجأ واستسلموا، فقتل منهم فريق وأسر فريق، وألقى بعضهم نفسه في الماء، واستولى جند أبي العباس على سفنهم وهي مملوءة أرزاً، كما استولوا على سفينة رئيسهم نصر السندي، وانهزم الباقون، فلحقت فئة منهم بمعسكر ـ طهيثا ـ بينما لحقت فئة أخرى بمعسكر ـ سوق الخميس ـ. ورجع أبو العباس غانماً إلى معسكره، وقد فتح الصينية وأجلى الزنج عنها.

علم أبو العباس أن جيشاً عظيماً من الزنج بقيادة ثابت بن أبي دلف ولؤلؤ الزنجيان، فانتخب أبو العباس مجموعة من خيرة مقاتليه وسار بهم على خيل سريعة، فوافى جمعهم في ـ عبدسي ـ عند السحر، فأوقع بهم وقعة غليظة، قُتل فيها من أبطالهم ومن رجالهم الأشداء خلق كثير، وانهزموا. وظفر أبو العباس بقائدهم ـ ثابت بن أبي دلف ـ، فمنَّ عليه واستبقاه وضمه إلى بعض قادته. وأصاب لؤلؤاً سهم فهلك منه، واستنقذ يومئذ من النساء اللواتي كن في أيدي الزنج خلقاً كثيراً. فأمر أبو العباس بإطلاقهن وردهن إلى أهلهن، وأخذ كل ما كان الزنج جمعوه. وأمر أبو العباس أصحابه، بعد أن عاد بهم إلى معسكره، بأخذ قسطهم من الراحة، ليسير بهم الى ـ سوق الخميس ـ ودعا نصيراً فأمره بتعبئة أصحابه للمسير إليها، حتى إذا ما أنهى استعداداته، سار بجيشه حتى وصل مجمع أنهار ثلاثة: نهر براطق، ونهر الرق، والنهر الذي يؤدي إلى رواطا وعبدسي. وسار نصير في نهر براطق، وأقام أبو العباس على فوهة النهر، وغاب عنه نصير، وخرج جمع كبير من الزنج، فمنعوا قوات أبي العباس من دخول النهر، وأخذوا يحاربون هذه القوات ويصيحون بها: «قد أخذنا نصيراً فماذا تصنعون» وسمع ذلك أبو العباس فوجه سفينة

استطلاع ـ ذات عشرين جذافاً ـ بقيادة محمد بن شعيب لمعرفة أخبار نصير. وعندما رجع محمد بن شعيب من مهمته، أعلم أبا العباس بأن الزنج قد أقاموا سداً على النهر، وأنهم أخذوا بعض سفن نصير، فقاتلهم نصير قتالاً شديداً، وأحرق السد، كما أضرم النار في مدينة للزنج، واستعاد السفن التي أخذها الزنج في بداية الأمر، وأنه أسر منهم جماعة كثيرة. وانتظر أبو العباس حتى إذا ما قارب النهار نهايته، نظم كميناً واجتذب قوة من الزنج، وخاض معهم معركة ضارية، **وأصابت أبا العباس وأصحابه سهام كثيرة ـ حتى انتزع من لبادة أبي العباس التي تستر الدرع خمس وعشرون نشابة وانتزعت من لبادة أحد أصحابه أربعون نشابة، وكذلك من لبابيد سائر الملاحين.**

وأظفر الله أبا العباس بست سفن كبيرة من سفن الزنج، وانهزموا، واتجه أبو العباس وجنده نحو الشط، وخرج من الزنج المقاتلة بالسيوف والتراس، ثم انهزموا لا يلوون على شيء للرهبة التي وصلت إلى قلوبهم، ورجع أبو العباس سالماً غانماً، فخلع على الملاحين.

علم الموفق أبو أحمد بن المتوكل أن صاحب الزنج قد كتب إلى قائده ـ علي بن أبان المهلبي ـ رسالة أمره فيها بزج كل قواته لدعم سليمان بن جامع، وأن يجتمعا على حرب أبي العباس بن أبي أحمد ـ. فقرر السير بنفسه، وخرج من مدينة السلام بجيش كثيف، وسار به حتى نزل على فرسخ من واسط، فأقام هنالك يومه وليلته، فتلقاه ابنه أبو العباس في قوة من الفرسان فيها وجوه قادته وجنده، فسأله أبو أحمد عن خبر أصحابه، فوصف له بلاءهم ونصحهم، فأمر أبو أحمد له ولهم بخلع فخلعت عليهم. وانصرف أبو العباس إلى معسكره في ـ العمر ـ فأقام يومه، فلما كانت صبيحة الغد، رحل أبو أحمد منحدراً في الماء، وتلقاه ابنه أبو العباس بجميع من معه من الجند في هيئة الحرب والزي الذي كانوا يلقون به أصحاب الخائن، فجعل يسير أمامه حتى وصل الى نهر ـ شيرزاد ـ. ثم الى فوهة ـ بر مساور ـ في اليوم التالي؛ وأقام يومين، ثم رحل نحو مدينة ـ سوق الخميس ـ ومعه نخبة ممن اختارهم من الفرسان والمشاة، وخلف معظم جنده وكثيراً من المشاة والفرسان في معسكره. واستقبله ابنه أبو العباس ومعه

أسرى ورؤوس قتلى، من أصحاب سليمان بن موسى الشعراني، وكان أبو العباس قد اصطدم وهو يتقدم قوات أبيه، بقوة من زنج الشعراني، فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم جماعة، فأمر أبو أحمد بضرب أعناق الأسرى، فضربت. ثم أمر بنقل الخيول ـ وفرسانها ـ للتحرك على جانبي نهر ـ براطق ـ وأمر ابنه أبا العباس بالتقدم في السفن والزوارق، واتبعه أبو أحمد ببقية الجيش. فلما بصر سليمان ومن معه من الزنج وغيرهم تحرك الجيش، اشتبكوا معه، وسرعان ما انهزموا وتفرقوا. وصعد أصحاب أبي العباس سور المدينة، ووضعوا السيوف فيمن لقيهم، وتفرق الزنج وأتباعهم، ودخل جند أبي العباس المدينة، فقتلوا فيها خلقاً كثيراً، وأسروا بشراً كثيراً، وحووا ما كان في المدينة، وهرب الشعراني ومن أفلت منهم معه، وطاردهم جند أبي أحمد حتى وصلوا البطائح. فغرق من الزنج خلق كثير، ولجأ الباقون الى الآجام. وأمر أبو أحمد جنده بالعودة الى معسكرهم قبل غروب الشمس، **وانصرف وقد استنقذ من المسلمات زهاء خمسة آلاف امرأة، سوى من ظفر به من الزنجيات اللواتي كن في سوق الخميس. فأمر أبو أحمد بحياطة النساء جميعاً، وحملهن إلى واسط، ليدفعن إلى أوليائهن.**

بات الموفق أبو أحمد ليله في معسكره على ضفة نهر براطق، ثم باكر المدينة من غد، فأذن للناس بالاستيلاء على ما في المدينة من أمتعة الزنج، وأخذ ما كان فيها أجمع، وأمر بهدم سورها وردم خندقها، وإحراق ما كان بقي فيها من السفن. وعاد إلى معسكره في ـ بر مساور ـ وقد ظفر بما في النواحي والقرى التي كانت في يد الشعراني وأصحابه من غلات الحنطة والشعير والأرز، فأمر ببيع ذلك، وصرف ثمنه في اعطيات مواليه وغلمانه وجنده وأهل عسكره. وانهزم سليمان الشعراني وأخواه ومن أفلت، وسلب الشعراني ولده وما كان بيده من مال، ولحق بالمذار ـ فكتب الى الخائن بخبره، وما نزل به، واعتصامه بالمذار. وأصيب صاحب الزنج بصدمة أذهلته وقصمت ظهره، فأسرع وكتب إلى سليمان بن جامع، وحذره من مثل ما نزل بالشعراني، وأمره بالتيقظ في أمره والدفاع عن منطقته.

أقام الموفق أبو أحمد بمعسكره في ـ بر مساور ـ لمدة يومين، عمل خلالها على ارسال

عناصر استطلاعه وعيونه ـ جواسيسه ـ لجمع المعلومات عن الشعراني وسليمان بن جامع. وتوافرت المعلومات عن إقامة سليمان بن جامع ـ بمدينة طهيثا والتي سماها سليمان باسم مدينة المنصورة ـ. فأمر أبو أحمد بالرحيل إلى ـ بردودا ـ إذ كان المسلك إلى طهيثا منه، وتقدم أبو العباس في السفن والزوارق، وأمر من خلفه في ـ بر مساور ـ بالانتقال جميعاً الى ـ بردودا ـ **وأقام أبو أحمد في بردودا، وأمر بإصلاح ما يحتاج إلى إصلاحه من أمر عسكره، وأمر بوضع العطاء، وإصلاح سفن الجسور ليحدرها معه، واستكثر من العمال والآلات التي تسد بها الأنهار وتصلح بها الطرق للخيل، ثم خلف حامية في بردودا بقيادة بغراج التركي**. وسار حتى وصل الى نهر ـ مهروذ ـ وأمر بإقامة جسر على هذا النهر، فعبر الفرسان والأثقال، وسار الى ـ طهيثا ـ وألقى حصاراً عليها، واصطدم قرب أسوار المدينة بجمع كبير من الزنج. وخرج عليه كمناء من مواضع شتى، ونشبت الحرب واشتدت، فترجل جماعة من الفرسان، ودافعوا حتى خرجوا عن المضايق التي كانوا وغلوها. **ورمى أبو العباس سهماً أصاب فيه أحمد بن مهدي الجبائي في إحدى منخريه، فخرق كل شيء وصل إليه حتى خالط دماغه، فخر صريعاً، ثم هلك، فعظمت المصيبة على صاحب الزنج**. واشتد جزعه. وعاد أبو أحمد الى معسكره، وأمر جنده بالتحارس ليلتهم والتأهب للحرب. فلما أصبحوا ـ عبأ أبو أحمد جيشه، وجعلهم كتائب يتلو بعضهم بعضاً، فرساناً ومشاة؛ وأمر بالسفن والزوارق أن يسار بها معه في نهر المنذر الذي يخترق مدينة طهيثا. وسار نحو الزنج، حتى انتهى إلى سور المدينة، فرتب قادة جنده في المواضع التي يخاف خروج الزنج عليه منها، وقدم المشاة أمام الفرسان، وترك قوات بالمواضع التي قد يخرج الكمناء منها. ونزل فصلى أربع ركعات، وابتهل الى الله عز وجل في النصر له وللمسلمين. ثم دعا بسلاحه فلبسه. وأمر ابنه أبا العباس بالتقدم الى السور، وتحضيض الجند على الحرب، ففعل ذلك.

كان الزنج قد حصنوا مدينتهم بخمسة خنادق، وجعلوا أمام كل خندق منها سوراً يمتنعون به. فلما وصل جند جيش أبي أحمد، تهيبوا عبور الخندق الأول، وأحجموا عنه، فحرضهم قوادهم، وترجلوا معهم، فاقتحموه متجاسرين عليه، وعبروه،

ووصلوا الى الزنج المدافعين عن السور ، فوضعوا السيوف فيهم . وعبرت شرذمة من الفرسان الخندق خوضاً ، فلما رأى الزنج إقدام الجند ، ولوا منهزمين ، واتبعهم جند أبي أحمد ، وجعلوا يقفون عند كل سور وخندق إذا انتهوا إليه ، وجعل جند أبي أحمد يكشفونهم في كل موقف وقفوه ، حتى وصلوا اسوار المدينة . ودخلت السفن والزوارق المدينة من النهر ، وأخذت في اغراق كل ما مرت لهم به من السفن والزوارق ، وانقضوا على من بحافتي النهر ، يقتلون ويأسرون ، حتى أجلوا الزنج عن المدينة وعما اتصل بها . وأفلت ـ سليمان بن جامع ـ في نفر من أصحابه ، فاستحر القتل فيهم والأسر ، **واستنقذ أبو أحمد من نساء أهل واسط وصبيانهم ، ومما اتصل بذلك من القرى ونواحي الكوفة زهاء عشرة آلاف ، فأمر أبو أحمد بالعناية بهم والانفاق عليهم وحملوا إلى واسط ، ودفعوا إلى أهليهم . واحتوى أبو أحمد وجنده على كل ما كان في تلك المدينة من الذخائر والأموال والأطعمة والمواشي . وكان ذلك شيئاً جليل القدر . فأمر أبو أحمد ببيع ما أصاب من الغلات وغير ذلك ، وحمله إلى بيت ماله ، وصرفه في أعطيات من في عسكره من مواليه وجنوده ، فحملوا من ذلك ما تهيأ لهم حمله ، وأسر من نساء سليمان وأولاده عدة . ولجأ جمع كثير من الزنج إلى الآجام المحيطة بالمدينة . فأمر أبو أحمد فعقد جسراً على نهر المنذر ، فعبر الناس إلى غربيه ، وأقام أبو أحمد في ـ طهيثا ـ سبعة عشر يوماً . وأمر بهدم سور المدينة وردم خنادقها ومطاردة الزنج في الآجام . وجعل لكل من أتاه برجل منهم مكافأة ـ جعلاً ـ . فتسارع الناس لمطاردتهم .** فكان إذا أتي بالواحد منهم عفا عنه ، وخلع عليه ، وضمه الى قادة جنده بهدف استمالتهم وصرفهم عن طاعة صاحب الزنج . ووجه أبو أحمد قوة بالسفن والزوارق لمطاردة سليمان بن جامع ومن هرب معه من الزنج وغيرهم . وتقدم في فتح النواحي التي كان الفاسق يسيطر عليها لعزله ومنعه من الوصول الى دجلة ، وعمل أثناء إقامته في ـ طهيثاً ـ على إعادة السكان الذين كان الفاسق قد طردهم من دورهم وحقولهم . ثم عاد ـ أبو أحمد ـ إلى معسكره في ـ بردودا ـ بعد أن تم له إحكام ما أراد إحكامه من أمور النواحي ، وبدأ استعداداته على الفور للسير إلى الأهواز ، وأرسل من يقوم

بإصلاح الطرق والمنازل وإعداد المواد التموينية وتخزين ما يحتاجه الجيش منها. وعندما انهى أبو أحمد استعداداته انحدر من واسط. واجتاح الأقاليم بسرعة حتى وصل السوس.

علم الفاسق ـ صاحب الزنج ـ، بما تعرضت له قواته في ـ طهيثا ـ وسواها. فأصابه الاضطراب، ونزل به الهلع. فكتب الى عامله في ـ الأهواز ـ وكان معه زهاء ثلاثين ألفاً من المقاتلين، وأمره بترك كل ما عنده من الأثاث والمواد التموينية والأغذية، والسير إليه بسرعة. فامتثل العامل للأمر وسار بجيشه. وترك في جبى والأهواز من أصناف الحبوب والتمر والمواشي شيء عظيم. وكتب الفاسق أيضاً الى عامله على الفندم والباسيان وما اتصل بها من النواحي والقرى بين الأهواز وفارس. وأمره بالقدوم عليه. وجاء جيش أبي أحمد فاستولى على ما وجده في الأهواز وفي هذه النواحي من الطعام والتمر، فكان ذلك قوة له على الفاسق، وضعفاً للفاسق. وتفرق الزنج في القرى، وانتهبوها وأجلوا عنها أهلها. وتخلف خلق كثير من الفرسان والمشاة، فأقاموا بنواحي الأهواز، وكتبوا يسألون أبا أحمد الأمان، لما سمعوه من عفوه عمن ظفر بهم من الزنج في ـ طهيثا ـ. ورحل أبو أحمد عن السوس، وسار الى ـ جندي سابور ـ ثم سار منها الى ـ تستر ـ. وأقام أياماً بالأهواز فأعاد تنظيم أمورها، وجمع ما يحتاجه من المواد التموينية وأشرف على اصلاح القناطر والجسور. وجاءه زهاء ألف رجل من رجال صاحب الزنج، فأحسن إليهم، وضمهم الى قادة جنده. ووقعت مجموعة من المعارك والاشتباكات العنيفة انتصر فيها جند أبي أحمد بفضل استعدادهم الدائم للقتال، وبفضل ما كان يقدمه المستأمنون تباعاً من المعلومات عن تحركات قادة الزنج ومخططاتهم، مما كان يتيح الفرصة أمام قادة ابي أحمد لإعداد المخططات المعاكسة ونصب الكمائن، واستدراج قادة الزنج وقواتهم للمعركة.

سار أبو أحمد ونزل بجنده على ضفة ـ نهر المبارك ـ في منتصف شهر رجب سنة ٢٦٧ هـ ـ وكان أول ما فعله هو أن كتب كتاباً الى قائد الزنج: **«دعاه فيه الى التوبة والإنابة إلى الله تعالى مما ركب من سفك الدماء، وانتهاك المحارم، وإخراب البلدان والأمصار، واستحلال الفروج والأموال، وانتحال ما لم يجعله الله له أهلاً من النبوة والرسالة، ويعلمه أن التوبة له مبسوطة، والأمان له**

موجود، فإن هو نزع عما هو عليه من الأمور التي يسخطها الله، ودخل في جماعة المسلمين، محا ذلك ما سلف من عظيم جرائمه، وكان له الحظ الجزيل في دنياه» . أرسل أبو أحمد كتابه هذا مع رسوله الى الخبيث، والتمس الرسول ايصاله، فامتنع أصحاب الخبيث من ايصال الكتاب، فألقاه الرسول اليهم، فأخذوه وأتوا به الى الخبيث، فقرأه، فلم يزده ما كان فيه من الوعظ، إلا نفوراً وإصراراً، ولم يجب عن الكتاب بشيء، وأقام على اغتراره، ورجع الرسول الى أبي أحمد فأخبره بما فعل، وأقام أبو أحمد زهاء اسبوع وهو مشغول بتجهيز السفن والزوارق وتنظيم القوات، وتخير الرماة وترتيبهم، ثم سار بجيشه، ومعه ابنه أبو العباس الى مدينة الخبيث ـ التي سماها المختارة وتقع على نهر أبي الخصيب ـ فأشرف عليها وتأملها، فرأى من منعتها وحصانتها بالسور والخنادق المحيطة بها، وما تم تخريبه من الطرق المؤدية إليها، وكذلك ما تم إعداده من المجانيق والعرادات وسائر الآلات التي جهزت بها الأسوار لحمايتها والدفاع عنها، مما لم ير مثله ممن تقدم من الخارجين على أمير المؤمنين. وأمر أبو أحمد ابنه أبا العباس بالتقدم الى سور المدينة، ورشق من عليه بالسهام، ففعل ذلك، ودار اشتباك عنيف، وأصابت الجراح جند الطرفين، واستمر الاشتباك الى الليل.
وكان جيش أبي أحمد يضم خمسين ألف رجل، والفاسق يومئذ في زهاء ثلاثمائة ألف إنسان، كلهم يقاتل ويدافع، فمن ضارب بسيف وطاعن برمح وقاذف بمقلاع ورام بعرادة. او منجنيق، وأضعفهم أمر الرماة بالحجارة عن أيديهم وهم النظارة المكثرون السواد، والمعتنون بالنعير والصباح، والنساء يشركنهم في ذلك.

أقام أبو أحمد معسكره بإزاء مدينة الفاسق، وأمر فنودي أن الأمان مبسوط للناس، أسودهم وأبيضهم، إلا الخبيث، وأمر بسهام فعلقت فيها رقاع مكتوب فيها من الأمان مثل الذي نودي به، ووعد الناس فيها الإحسان، ورمي بها الى معسكر الخبيث، فمالت إليه قلوب أصحاب المارق بالرهبة والطمع فيما وعدهم من إحسانه وعفوه. وأتاه جمع كثير. وعرف أبو أحمد أن أمره سيطول، فأمر ببناء المدينة ـ التي حملت اسم الموفقية ـ وحملت اليها المواد التموينية والأرزاق، وأقبل التجار بصنوف التجارات والأمتعة، واتخذت الأسواق فعمرت المدينة بسرعة. كل ذلك، والاشتباكات والاغارات مستمرة. وحاول صاحب الزنج في احدى هجماته الوصول الى

معسكر المسلمين، ففشل في ذلك، وقتل منهم كثير، **وأسر قائد كبير من قادة الزنج اسمه ـ صندل الزنجي ـ فلما حمل الى أبي أحمد أمر به فرمي بالسهام، ثم أمر به فقتل، جزاء وفاقاً، لأنه كان يكشف وجوه الحرائر المسلمات ورؤوسهن، ويقلبهن تقليب الإماء، فإن امتنعت منهن امرأة ضرب وجهها ودفعها الى بعض علوج الزنج يبيعها بأوكس الثمن، وكثر المستأمنة من الزنج وغيرهم وتتابعوا، فبلغ عدد من وافى معسكر أبي أحمد منهم خلال هذه الفترة خمسة آلاف رجل من بين أبيض وأسود.** تابع ـ أبو أحمد تضييق الخناق يوماً بعد يوم على صاحب الزنج، الذي حاول فك طوق الحصار، وتنظيم اغارات مباغتة على معسكر أبي أحمد، لكن الفشل كان من نصيبه في معظم الأحيان، وكان كل يوم يمضي يزيد من ضعف صاحب الزنج، ويدفع بالمزيد من رجاله للانضمام الى معسكر أبي أحمد، واستمرت الحرب طوال عامين (٢٦٨ و٢٦٩ هـ = ٨٨١ و٨٨٢ م) الى أن تمكن الموفق أبو أحمد من اقتحام مدينة صاحب الزنج وقد امكن له قبل ذلك إحداث ثغرات في سور المدينة، ولكن صاحب الزنج تمكن في كل مرة من سد الثغرات، وإصلاح الاضرار، كما استطاع باستمرار تأمين دعم لقواته، مما ساعده على الاستمرار في المقاومة. ونزل بجند أمير المؤمنين أذى كثيراً، ولكن أبو أحمد تمكن من معالجة كل المواقف بحكمة بالغة وكفاءة عالية، مما أرغم صاحب الزنج في النهاية على الانتقال من غربي نهر أبي خصيب الى شرقيه، وانقطعت عنه الميرة من كل وجه. وكان أبو أحمد قد طبق سياسة حازمة ضد الأعراب الذين كانوا يمدون صاحب الزنج بالميرة ـ والمواد التموينية ـ فبات صاحب الزنج في ضيق شديد. وظهر لأبي أحمد ان الثمرة قد أينعت. فقرر السير بالحرب حتى نهايتها، وقد يكون بالمستطاع تجاوز سلسلة المعارك والأحداث التي استمرت طوال السنتين الاخيرتين من الحرب، للتوقف عند تلك النهاية الظافرة التي ارتبطت بالعمل الدؤوب الذي قاده ووجهه الموفق أبو أحمد بن المتوكل؛ وعمل معه ابنه أبو العباس، إلى جانب عدد من القادة الذين برهنوا على إخلاص رائع، وإيمان راسخ للقضية التي يحاربون من أجلها، **قضية الانتصار للإسلام، والعمل للطاعة** والجماعة.

جـ - الأيام الأخيرة - والنصر الحاسم

اعتاد الموفق أبو أحمد على مغاداة الفاسق الحرب ومراوحته، وكان الخبيث - صاحب الزنج - قد أعاد بناء بعض الثلم التي ثلمت في السور، فأمر الموفق بهدم ذلك، وهدم ما يتصل به. وركب في عشية من العشايا في أول وقت العصر، وقد كانت الحرب متصلة في ذلك اليوم، مما يلي نهر منكي، والفسقة مجتمعون في تلك الناحية قد شغلوا أنفسهم بها، وظنوا أنهم لا يحاربون إلا فيها، فوصل الموفق وقد أعد الفعلة، وتقرب في نهر منكي، وناوش الفسقة فيه، حتى إذا استعرت الحرب، أمر الجذافين أن يحثوا السير ففعلوا، ووصلوا الى - جوي كور - وهو نهر متفرع عن دجلة - وقد خلا من المقاتلة والرجال، فأخرج الفعلة، فهدموا من السور ما كان يلي ذلك النهر، وصعد المقاتلة وولجوا النهر، فقتلوا فيه من الزنج مقتلة عظيمة، ووصلوا الى قصور من قصورهم، فانتهبوا ما كان فيها وأحرقوها واستنقذوا عدداً من النساء اللواتي كن فيها، وأخذوا خيلاً من خيولهم فحملوها إلى غربي دجلة، وانصرف الموفق في وقت غروب الشمس بالظفر والسلامة، وغاداهم الحرب والقصد لهدم السور، فأسرع فيه، ودارت معركة ضارية، وسقط عدد كبير من القتلى، وزاد عدد الجرحى على الألفين، واستطاع جند الموفق في النهاية الوصول الى منزل صاحب الزنج واحراقه مع احراق القصور المجاورة والتي كانت لكبار أصحاب الزنج. واضطرمت النار في هذه البيوت، واتصلت بما يليها، وأعجلت النار الخبيث فخرج هارباً، وصعد غلمان الموفق قصر الخبيث، فانتهبوا ما لم تأت النار عليه من الأمتعة الفاخرة والذهب والفضة والجوهر والحلي وغير ذلك، واستنقذوا جماعة من النساء اللواتي كان الخبيث استرقهن. ودخل غلمان الموفق سائر دور الخبيث فأضرموها ناراً، وعظم سرور الناس بما هيأ الله لهم في هذا اليوم.

لقد ظهرت في معركة هذا اليوم فائدة ظلال الخشب التي أمر بصنعها الموفق لحماية السفن، والتي تمت تغطيتها بجلود الجواميس، وتغطية ذلك بالخيش المطلي بصنوف العقاقير والأدوية التي تمنع النار من الاحراق، فقد أمكن بذلك حماية

الرامحة والغاشية وجاعة الحذاق النفاطين الذين قامـوا بـإحـراق دار الفـاسـق صاحب الزنج، ودور أصحابه. وفي هذا اليوم أيضاً عمل أبو العباس على قطع سلسلة حديد عظيمة وثيقة كان الخبيث قطع بها نهر أبي الخصيب ليمنع السفن من دخوله، وحازها، فحملت في بعض سفنه.

كان الموفق أبو أحمد مريضاً يعاني من وجع المفاصل ـ فاشتدت علته، وانصرف لمدة شهرين ـ شعبان ورمضان ـ فلما استبل من علته وتماثل، أمر بإعداد ما يحتاج إليه لحرب الفسقة، فتأهب لذلك جميع أصحابه.

أفاد الخبيث عدو الله من انشغال الموفق بعلته، فعمل على إعادة بناء القنطرة القائمة على نهر الخصيب، وزاد فيها ما ظن انه قد أحكمها، ونصب دونها أدقال ساج وصل بعضها ببعض وألبسها الحديد، وأقام سداً بالحجارة ليضيق المدخل فيمنع السفن من الدخول. كما أن إقامة السد، قد زادت من شدة التيار، فبات قادراً على جرف السفن، فأمر الموفق قائدين من قادته بقيادة اربعة ألاف مقاتل، وأن يتقـدما كل على جانب من جانبي النهر ـ شرقيه وغربيه ـ حتى يصلا الى القنطرة التي أصلحها الفاجر، وما عمل في وجهها من السد ـ السكر ـ فيحاربا أصحاب الخبيث حتى يجلياهم عن القنطرة، وأعدّ معهما النجارين والفعلة لقطع القنطرة والسدود التي وضعت أمامها. وأمر بإعداد سفن محشوة بالقصب المصبوب عليه النفط، لتدخل النهر وتضرم النار فتحرق بها القنطرة في وقت المد. وركب الموفق في الجيش حتى وصل الى فوهة نهر أبي الخصيب ـ وأمر بإخراج المقاتلة في عدة مواضع من أعلى معسكر الخبيث وأسفله، ليشغلهم بذلك عن التعاون مع الجنـد المدافعين عـن القنطـرة. وتقـدم القـائـدان في جندهما، وتلقاهما أصحاب الخائن من الزنج يقودهم ابنه ـ أنكلاي ـ وعلي بن أبان المهلبي وسليمان بن جامع، فاشتبكت الحرب بين الفريقين، ودامت، وقاتل الفسقة أشد قتال دفاعاً عن القنطرة. فكثر القتل والجراح بين الفريقين، واتصلت الحرب إلى وقت صلاة العصر. ثم إن جند الموفق أزالوا الفسقة عن القنطرة وجاوزوها. وأخذ النجارون والفعلة في هدم القنطرة، ولكن تعذر عليهم الاسراع في هدمها بسبب إحكام بنائها وقوتها وقوة السدود التي تحميها. فأمر الموفق عند ذلك، بإدخال السفن التي فيها

القصب والنفط، وضربها بالنار. وإرسالها مع الماء، ووصلت السفن الى القنطرة فأحرقتها، وتمكن النجارون من قطع السدود وتدميرها. واستطاع أصحاب السفن دخول النهر فدخلوه. وكشفوا أصحاب الفاجر عن مواقفهم حتى وصلوا إلى الجسر الأول الذي يتلو هذه القنطرة، وقتل من الفجرة خلق كثير، واستأمن فريق منهم، فأمر الموفق أن يخلع عليهم في ساعتهم تلك، وأن يوقفوا بحيث يراهم أصحابهم، ليرغبوا في مثل ما صار إليه من استأمن. **وأقبل الليل، وكره الموفق أن يظلم الليل والجيش موغل في النهر، فيتهيأ للفجرة بذلك انتهاز فرصة. فأمر الناس بالانصراف، فانصرفوا سالمين الى المدينة ـ الموفقية ـ. وأمر الموفق بالكتابة الى النواحي، بما هيأ الله له من الفتح والظفر، ليقرأ بذلك على المنابر. وأمر بإثابة المحسنين من جنده كل على قدر غنائهم وبلائهم وحسن طاعتهم، ليزدادوا بذلك جداً واجتهاداً في حرب عدوهم.**

عاد العمال في الغد لاستتمام قلع ما بقي من القنطرة، فوجدوا أن الفجرة قد أعادوا بناء ما تهدم منها في ليلتهم تلك، فأمر الموفق بنصب عرادتين كانتا قد أعدتا في سفينتين، ونصبت لهما القواعد حتى استقرتا، ووكل بهما من أصحاب السفن، وأمر برمي كل من يقترب من أصحاب الفاسق، ومنعهم من العمل في الليل أو النهار، فتجنب الفجرة الاقتراب من الموضع وأحجموا عنه، وألح الموكلون بقلع هذه الحجارة بعد ذلك حتى استتموا ما أرادوا واتسع المجال أمام السفن والزوارق في دخول النهر والخروج منه.

لما أحرقت دار الفاسق ودمرت وانتهب ما فيها، وأخرج طريداً سليباً من غربي نهر أبي خصيب، تحول إلى شرقيه. ولجأ الى التحصن في المنازل الواغلة في نهر أبي خصيب، ونزل منزلاً وجمع فيه عياله وولده حوله، ونقل أسواقه الى قرب الموضع الذي اعتصم به. وضعف أمره ضعفاً شديداً، وتبين للناس زوال أمره، فتهيبوا جلب الميرة إليه، فانقطعت عنه كل مادة تموينية ـ غذائية ـ فأكلوا الشعير، ثم أكلوا أصناف الحبوب، ثم

لم يزل الأمر بهم إلى أن كانوا يتبعون الناس، فإذا خلا أحدهم بامرأة أو صبي أو رجل، ذبحه وأكله، ثم صار القوي من الزنج يأكل الضعيف. ثم أكلوا لحم أولادهم. ونبشوا الموتى وأكلوا لحومها.

عرف الموفق أبو أحمد ما نزل بالزنج، وما وصل إليه حالهم، فقرر ان يخرب الجانب الشرقي لتصير حال الخبيث فيه كحاله في الغربي في الجلاء عنه. فأمر ابنه أبا العباس في ركوب السفن، وترك له أمر اختيار الجند ـ اشجعهم وأصلبهم ـ مع أخذ ما يحتاجه من العمال ـ الفعلة ـ لهدم كل ما يلقاهم من دور أصحاب الفاجر ومنازلهم. وأمر الموفق جماعة من قادته وجنده بالتوجه نحو دار الهمداني ومعهم العمال ـ الفعلة ـ وكان هذا الموضع محصناً بجمع كثير من أصحاب الخبيث من الزنج وغيرهم، وعليه عرادات ومجانيق منصوبة ـ اشتبكت الحرب وكثر القتلى والجرحى الى ان كشف جند الموفق الزنج، وأبعدوهم، ووضعوا فيهم السلاح، فقتل منهم مقتلة عظيمة. والتقى جند الموفق وجند أبي العباس وشنوا هجوماً مدمراً على الزنج، فولوا منهزمين، وانتهوا الى دار الهمذاني وعليها الاعلام. فتعذر على جند الموفق صعود السور العالي والحصين المحيط بالدار. فوضعوا عليها السلاليم الطوال، فلم تبلغ آخره. فرمى بعض جند الموفق بكلاليب كانوا أعدوها، وجعلوا فيها الحبال لمثل هذا الموضع، فأثبتوها في الأعلام وجذبوها، فانقلبت الأعلام منكوسة من أعلى السور حتى صارت في أيدي أصحاب الموفق، فلم يشك المدافعون عن هذه الدار أن أصحاب الموفق وجنده قد صعدوها فوجلوا وانهزموا وأسلموها وما حولها، وصعد النفاطون فأحرقوا ما كان عليها من المجانيق والعرادات وما كان فيها للهمداني من متاع وأثاث، وأحرقوا ما كان حولها من دور الفجرة، واستنقذوا في هذا اليوم من نساء المسلمين المأسورات عدداً كثيراً، فأمر الموفق بحملهن في السفن والمعابر الى الموفقية. استمرت الحرب من أول النهار الى ما بعد صلاة العصر، واستأمن يومئذ جماعة من أصحاب الفاسق. وجماعة من خاصة غلمانه الذين كانوا في داره يلون خدمته، فآمنهم الموفق وأمر بالإحسان إليهم، وأن يخلع عليهم، ويوصلوا وتجرى لهم الأرزاق. وانصرف الموفق، وأمر أن تنكس أعلام الفاسق في صدور السفن ليراها أصحابه. ودلت جماعة من المستأمنة الموفق على سوق

عظيمة كانت للخبيث في ظهر دار الهمداني، متصلة بالجسر الأول المعقود على نهر أبي الخصيب، كان الخبيث سماها المباركة، وأعلموه أنه إن تمكن من إحراقها ، فإنه لن يبقى هناك سوق لصاحب الزنج، وأن التجار الذين بهم قوامهم سيخرجون، وقد يضطرون لطلب الأمان. فقرر الموفق عندها مهاجمة السوق من ثلاث اتجاهات. ووزع جيشه الى ثلاث مجموعات، وقام بالهجوم وفزع الزنج، ونهضوا كرجل واحد، واستعرت الحرب وغلظت. وقام جند الموفق بإضرام النار في أطراف السوق فاحترق، واتصلت النار بأكثر السوق. فكان الفريقان يتحاربون والنار محيطة بهم، ولقد كان ما علا من ظلال - مظلات - يحترق فيقع على رؤوس المقاتلين، واستمر القتال على أشده حتى غابت الشمس وأقبل الليل. فحجزت الظلمة بين المتقاتلين، وانصرف الموفق وجنده الى سفنهم، ورجع الزنج الى طاغوتهم. وجلا أهل السوق عنه، وانتقلوا الى أعلى مدينته بما استنقذوه من أموالهم وأمتعتهم.

عمل الخبيث في الجانب الشرقي ما كان قد عمله من قبل في الجانب الغربي، فاحتفر بعد هذه الوقعة خندقاً عريضاً من حد - جوى كور - إلى نهر الغربي، وعني عناية خاصة بتحصين ما بين دار الكرنبائي حتى جوى كور، لأن معظم منازل أصحابه ومساكنهم كانت في هذا الموضع. وكان امتداد الخندق والسور يحيط بالمواضع والبساتين التي تم اخلاؤها ما بين حد جوى كور وحتى النهر الغربي. وكانت الحرب إذا وقعت في هذا الموضع، قصد الزنج من موضعهم إليه للدفاع عنه. فقرر الموفق عند ذلك ان يدمر باقي السور إلى النهر الغربي. **ووقعت معركتان قاسيتان قاتل الزنج فيها بعناد كبير، وأفادوا من قوة تحصيناتهم وأسوارهم لإنزال الخسائر الكبيرة في صفوف جند الموفق، مما اضطره لاعادة النظر في اساليب الهجوم التي اتبعها في الهجومين السابقين. وتبين له أنه كان يجب مهاجمة معسكر الزنج من عدة مواضع، ليفرق جمعهم، فيخف وطؤهم على من يقصد سور النهر الغربي.** فأعاد تنظيم قواته تنظيماً جديداً للمعركة وأمر ابنه أبا العباس ومجموعة القادة التابعين له في العبور واختيار أنجاد رجاله. ووجه قوة بقيادة مولاه مسرور للهجوم من ناحية نهر منكي، وأمره أن يخرج رجاله في ذلك الموضع وما يتصل به من الجبال

والنخل لإشغال الفجرة من تلك الجهة ونظم السفن على هذه المواضع لتعمل حتى أسفل النهر الغربي. وأمر قادة غلمانه ان يخرجوا في أصحابهم فيحاربوا الفسقة في حصنهم ومعقلهم، وألا ينصرفوا عنهم حتى يفتح الله لهم أو يبلغ إرادته منهم. ووكل بالسور من يهدمه، وبدأ الهجوم، وأسرع الفسقة كعادتهم، وأطمعهم ما حققوه من نصر في الموقعتين السابقتين، فثبت لهم جند الموفق، وصدقوهم اللقاء، حتى أنزل الله عليهم نصره، فأزالوا الفسقة عن مواقفهم، وقوي أصحاب الموفق، فحملوا عليهم حملة كشفوهم بها، فانهزموا وتخلوا عن حصنهم. وصار في أيدي جند الموفق فهدموه، وأحرقوا منازلهم، وغنموا ما كان فيها، واتبعوا المنهزمين منهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة؛ وأسروا. واستنقذوا من النساء المأسورات خلقاً كثيراً، فأمر الموفق بحملهن والإحسان إليهن. وأمر أصحابه بالرجوع الى سفنهم، ففعلوا، وانصرف إلى معسكره بالموفقية.

عمل الموفق أبو أحمد بعد ذلك على إصلاح المسالك والطرق في جنبي نهر أبي الخصيب، وفي قصر الفاسق حتى يتسع المجال أمام المقاتلين لدخول المعركة والخروج منها. وقرر بعد ذلك تدمير الجسر الأول الذي كان قائماً على نهر أبي الخصيب، الأمر الذي يحرم الزنج من تبادل الدعم والمعاونة عند وقوع المعركة في نواحي معسكرهم. وأمر باعداد سفينة كبيرة تملأ قصباً قد سقي النفط، وأن ينصب في وسط السفينة دقل طويل - سارية عالية - يمنعها من تجاوز الجسر إذا اصطدمت به. وانتهز الفرصة في غفلة الزنج وتفرقهم. فقدمت السفينة في آخر النهار. وأشعلت فيها النار. وأرسلت وقد قوي المد. فوصلت الى القنطرة، وأسرع الزنج، وتجمعوا وكثروا، حتى ستروا الجسر وما يليه، وجعلوا يقذفون السفينة بالحجارة والآجر ويهيلون عليها التراب، وغاص بعضهم فنقبها، وكانت السفينة قد أحرقت شيئاً يسيراً من الجسر فأطفأه الزنج، وأغرقوا السفينة.

رأى الموفق أبو أحمد ما فعله الزنج، فزاد تصميمه على مجاهدتهم لتدمير الجسر، وكلف قائدين من قادته بالعبور مع جندهما وما يلزمهما من الاعتدة والنفاطين والآلات التي تقطع بها الجسور. وأمر أحدهما بالسير على الجانب الشرقي من النهر، وأمر الثاني

بالسير على الجانب الغربي منه. وركب الموفق وجنده السفن والزوارق واتجه نحو فوهة نهر الخصيب، فسبق إلى الجسر القائد الذي سار على الجانب الغربي من النهر، فأوقع بمن كان قائماً على حمايته والدفاع عنه، وقتل منهم جماعة، وضرب الجسر بالنار، وطرح عليه القصب وما كان أعد له من الأشياء المحرقة، فانكشف من كان هناك من الزنج ووصل بعد ذلك من تحرك على الجانب الشرقي من النهر، فقام بدوره بإحراق الجسر.

كان صاحب الزنج قد أمر ابنه ـ انكلاي ـ وسليمان بن جامع بالتمركز في جيشهما للدفاع عن الجسر، وإحباط كل محاولة لقطعه، ففعلا ذلك، فاتجه اليهما الجند القريبون منهم، وحاربوهما حرباً غليظة حتى انكشفا وتراجعا مهزومين. وتقدم جند الموفق فتجاوزوا الجسر، ووصلوا الى الحظيرة التي كان يعمل فيه عمال الفاسق لصنع السفن والزوارق وجميع آلات الحرب. فأحرق ذلك عن آخره. ووصل جند الموفق إلى سجن كان للفاسق في غربي نهر أبي الخصيب، فدافع عنه الزنج ساعة من النهار، وغلبهم عليه جند الموفق، وخلصوا من كان فيه من الرجال والنساء، كما اقتحم الجند دار مصلح ـ وهو من قدماء قادة الفاسق ـ فنهبوها وسبوا ولده ونساءه وأحرقوا ما تهيأ لهم إحراقه في طريقهم. وبقيت من الجسر عند وسطه أدقال ـ سواري ـ كان الفاسق قد أحكمها، فأمر الموفق ابنه أبا العباس بدفع بعض الزوارق الى ذلك الموضع وعليها العمال، فقطعوها، وجذبوها، وأخرجوها عن النهر، فسقط ما بقي من قنطرة الجسر. وعاد الموفق بجيشه وقد حقق هدفه. فتم هدم وتدمير ما كان يعيق المقاتلين عن محاربة الفجرة من قصور الفاسق وقصور أصحابه. كما تم توسيع الطرق على جانبي النهر. مما أرغم الفاسق وجميع أصحابه على الانتقال الى الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب. وزاد الرعب في قلوب أصحاب الفاسق، فمال جمع كثير من قادته وأصحابه الذين كان لا يظن انهم يفارقونه، إلى طلب الأمان، فبذل ذلك لهم، فخرجوا الى معسكر الموفق، فتقبلهم وأحسن اليهم وألحقهم بنظرائهم في الأرزاق والصلات والخلع.

واظب الموفق على ادخال السفن والزوارق في النهر، وأمر بإحراق ما كان على ضفتيه من منازل الفجرة، وما في بطنه من السفن، وأحب تمرين جنده على دخول النهر وممارسة التحرك فيه استعداداً لإحراق الجسر الثاني، والوصول

الى أقصى مواضع الفجرة - الزنج -.

عمل صاحب الزنج على جمع ما بقي له من السفن البحرية وغيرها، وحشدها امام الجسر الثاني، وجمع قادته وأنجاد رجاله وجنده هنالك. فأمر الموفق بعض جنده بالاقتراب من الجسر وإحراق ما يمكن لهم احراقه من المراكب البحرية، والاستيلاء على ما يمكن أخذه منها. وتم تنفيذ ذلك، فزاد عملهم من حيطة صاحب الزنج وتدابيره للدفاع عن الجسر. وألزم نفسه وجميع أصحابه بحراسته والدفاع عنه. ولكن الموفق أبا أحمد وضع خطة محكمة لمهاجمة الجسر الثاني. وكانت مشابهة لخطة تدمير الجسر الاول. مع زيادة القوى للاحاطة بميدان المعركة. وجاءت النتائج مشابهة لما حدث عند تدمير الجسر الاول.

كان من أول نتائج هذه المعركة، تقدم - سليمان بن موسى الشعراني - أحد رؤساء أصحاب الفاسق، بطلب الأمان له من الموفق أبي أحمد. وامتنع أبو أحمد عن منحه الأمان نظراً لما كان سلف منه من العيث وسفك الدماء، ثم عاد عن قراره ووافق على منحه الأمان بهدف استصلاح القادة الآخرين وإفساح المجال أمامهم، وتبعه شبل بن سالم، ولحق بهما عدد من قدماء قادة صاحب الزنج، فأحسن الموفق إليهم، ووفى لهم، وضمهم الى قادته.

عمل الموفق بعد ذلك على ارسال السرايا الى معسكر الزنج، ليلاً ونهاراً، من جانبي نهر الخصيب، ويكدهم بالحرب، ويحرمهم من النوم في ليلهم، ويمنعهم من طلب أقواتهم. وجنده في ذلك يتعرفون على المسالك، ويتدربون على الوغول في مدينة الزنج واقتحامها. ويزيلون بذلك الهيبة التي كانت تحول بينهم وبين مثل هذا الاقتحام. ثم جلس الموفق مجلساً عاماً، وأمر بإحضار قادة المستأمنة ووجوه فرسانهم ومشاتهم من الزنج والبيض، فأدخلوا عليه، ووقفوا بحيث يسمعون كلامه، ثم خاطبهم؛ فعرفهم ما كانوا عليه من الضلالة والجهل وانتهاك المحارم. وما كان الفاسق دين لهم من معاصي الله، وأن ذلك قد كان أباح له دماءهم. وأنه قد غفر الزلة وعفا عن الهفوة وبذل الأمان، وعاد من لجأ إليه بفضله، فأجزل الصلات وأسنى الأرزاق وألحقهم بالأولياء وأهل الطاعة، وان ما كان منهم من

ذلك يوجب عليهم حقه وطاعته، وأنهم لن يأتوا شيئاً يتعرضون به لطاعة ربهم والاستدعاء لرضا سلطانهم، أولى بهم من الجد والاجتهاد في مجاهدة عدو الله الخائن وأصحابه، وأنهم من الخبرة بمسالك معسكر الخبيث ومضايق طرق مدينته والمعاقل التي أعدها للهرب إليها على ما ليس عليه غيرهم، فهم أحرياء ان يمحضوه نصيحتهم، ويجتهدوا في الولوج على الخبيث، والتوغل إليه في حصونه، حتى يمكنهم الله منه ومن أشياعه فإذا فعلوا ذلك فلهم الإحسان والمزيد، وإن من قصر منهم استدعى من سلطانه اسقاط حاله وتصغير منزلته ووضع مرتبته. فارتفعت أصواتهم جميعاً بالدعاء للموفق والإقرار بإحسانه، وبما هم عليه من صحة الضمائر في السمع والطاعة والجد في مجاهدة عدوه، وبذل دمائهم ومهجهم في كل ما يقربهم منه. وان ما دعاهم إليه قد قوى نيتهم ودلهم على ثقته بهم وإحلاله إياهم محل أوليائه. وسألوه ان يفردهم بناحية يحاربون فيها، فيظهر من حسن نياتهم ونكايتهم في العدو ما يعرف به إخلاصهم وتورعهم عما كانوا عليه من جهلهم. فأجابهم الموفق الى ما سألوا. وعرفهم حسن موقع ما ظهر له من طاعتهم. وخرجوا من عنده مبتهجين بما أجيبوا به من حسن القول وجميل الوعد.

مضى الموفق في استعداداته للهجوم النهائي على الفاسق في مدينته بالجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، فأمر بجمع السفن والمعابر من دجلة والبطيحة ونواحيها ليضيفها الى ما في معسكره: إذ كان ما لديه منها أقل مما يحتاجه جيشه الكبير. وأحصى ما في السفن والزوارق والعبارات التي كانت تنقل الخيل، فكانوا زهاء عشرة الآف ملاح، ممن يتقاضون رواتب شهرية من بيت المال، بالاضافة الى سفن أهل المعسكر التي تحمل فيها المواد التموينية ـ الميرة ـ ويركبها الناس في حوائجهم، وسوى ما كان لدى كل قائد، ومن يحضر من قادته من السفن والزوارق. فلما تكاملت له السفن والمعابر. ورضي عددها، أمر ابنه أبا العباس وقادة جنده بالاستعداد والتأهب للقاء عدوهم. وأمر بتوزيع السفن والمعابر لنقل الخيل وجند المشاة. وضم الى ابنه أبي العباس قادة من قادته وثمانية آلاف من جنده، وأمره أن ينزل بجيشه على الجانب الغربي من نهر أبي الخصيب، ثم يسير الى مؤخرة معسكر الفاسق حتى يتجاوز دار المعروف بالمهلبي، حيث

كان الخبيث قد عمل على تحصينها ووضع فيها قوة كبيرة من جنده لحماية مؤخرة معسكره. وليحبط كل محاولة للاقتراب من هذا الموضع. وأحضر قائده ـ راشداً ـ ومعه عشرون ألفاً من الفرسان والمشاة ـ وأمره بالنزول على الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب. ووجه قوة من جنده نحو دار ـ الكرنبائي كاتب المهلبي ـ والواقعة على زاوية في الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، وأمرها بالتقدم على شاطىء النهر حتى تصل الى الدار التي نزلها الخبيث. كما أمر قوة من جنده بالخروج على فوهة نهر أبي شاكر ـ وهو أسفل من نهر أبي الخصيب ـ وأمر قوة أخرى بالخروج على فوهة نهر ـ جوى كور ـ. وأوعز الى الجميع في تقديم المشاة امام الفرسان، وأن يزحفوا بجميعهم نحو دار الخائن، فإن أظفرهم الله به وبمن فيها من أهله وولده، وإلا قصدوا دار المهلبي ليلقاهم هناك جند أبي العباس فتكون قوتهم واحدة على صاحب الزنج وقواته.

تحرّك الجيش الكبير عشية يوم الاثنين لسبع ليال خلون من ذي القعدة، سنة تسع وستين ومائتين (٨٨٢ م). ودفعت السفن الى النهر. وسارت كتائب الفرسان يتلو بعضها بعضاً، ومشت كتائب المشاة، وسارت السفن منذ صلاة الظهر الى آخر وقت العشاء الآخرة حتى وصلوا الى موضع من أسفل المعسكر. وكان الموفق قد أمر بإصلاحه وتنظيفه وتنقية ما فيه من خراب ودخل، وردم سواقيه وأنهاره حتى استوى واتسع وبعدت أقطاره؛ واتخذ فيه قصراً وميداناً لاستعراض قوات المشاة والفرسان بإزاء قصر الفاسق، وهدفه من ذلك هو إبطال ما كان الخبيث يعد به أصحابه من سرعة انتقاله عن موضعه، فأراد ان يعلم الفريقين أنه غير راحل حتى يحكم الله بينه وبين عدوه. **فبات الجيش ليلة الثلاثاء في هذا الموضع بإزاء معسكر الفاسق، وكان الجميع زهاء خمسين ألف رجل من المشاة والفرسان، في أحسن زي وأكمل هيئة، وجعلوا يكبرون ويهللون ويقرؤون القرآن ويصلون ويوقدون النار.**

رأى الخبيث ـ صاحب الزنج ـ من كثرة الجمع والعدة والعدد ما بهر عقله وعقول أصحابه. وركب الموفق في عشية يوم الاثنين السفن التي خصّصها له ولقوات قيادته ـ وكانت مائة وخمسين سفينة ـ وشحنها بأنجاد أبطاله ومواليه من حملة الرماح ورماة السهام ـ النشاب ـ ونشرها من أول معسكر الخبيث حتى آخره لتكون حصناً للجيش

من ورائها. وطرحت مراسيها لتكون قريبة من الشاطىء. واحتفظ لنفسه ولمرافقيه ورجال حرسه بعدد من السفن لمواكبته عند اقتحامه النهر، **وانتخب من المشاة والفرسان عشرة آلاف رجل، وأمرهم بالسير على جانبي نهر أبي الخصيب، وأن يسيروا لمسيره ويقفوا لوقوفه، ويتصرفوا فيما يرى أن يصرفهم فيه أثناء المعركة.** توجه الموفق لقتال الخبيث صاحب الزنج - صباح يوم الثلاثاء - وتوجه كل قائد من قادته لتنفيذ المهمة التي كلف بتنفيذها. وزحف الجيش نحو الفاسق وأصحابه، فتلقاهم الخبيث في جيشه. واشتبكت القوات، ودارت رحى المعركة، وكثر القتل والجراح بين الفريقين، ودافع الزنج عن مواقعهم في المدينة بعناد وصلابة، واستماتوا. وصبر أصحاب الموفق وجنده، وصدقوا القتال، فمنَّ الله عليهم بالنصر، وهزم الفسقة، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا من مقاتلتهم وأنجادهم جمعاً كثيراً. وحمل الأسرى الى الموفق، فأمر بهم فضربت أعناقهم في المعركة، وتوجه بقواته الى دار الكافر فوصلها وقد حشد الكافر فيها أبطال جنده للدفاع عنها، فلمّا لم يغنوا عنها شيئاً أسلمها، وتفرق جنده عنها. واقتحمها جند الموفق، وفيها بقايا ما كان سلم للخبيث من ماله وأثاثه، فانتهبوا ذلك كله، وأخذوا حرمه وولده الذكور والإناث، وكانوا أكثر من مائة بين امرأة وصبي، وحملوا الى الموفق، فأمر بنقلهم الى مدينة الموفقية، والتوكل بهم، والإحسان إليهم، وتخلّص الفاسق ومضى هارباً نحو دار المهلبي، لا يلوي على أهل ولا مال، وأحرقت داره وما بقي فيها من متاع وأثاث، وكان جماعة من قادة أبي العباس قد عبروا نهر أبي الخصيب أثناء ذلك، وساروا إلى دار المهلبي، ولم ينتظروا التحاق جندهم بهم. فوصلوا إلى الدار وقد لجأ إليها أكثر الزنج بعد انسحابهم من دار الخبيث، فدخل قادة أبي العباس الدار، وتشاغل جندهم بالنهب وأخذ ما كان قد استولى عليه المهلبي من حرم المسلمين وأولاده منهن، وجعل كل من ظفر بشيء انصرف به الى سفينته في نهر أبي الخصيب. ولما رأى الزنج قلة من بقي منهم، وتشاغلهم بالنهب، انقضوا عليهم من عدة مواضع كانوا قد كمنوا فيها، فطردوهم عن مواضعهم، وأرغموهم على التراجع والانسحاب، وطاردهم الزنج حتى وصلوا بهم الى نهر أبي الخصيب، وقتلوا من مشاتهم وفرسانهم جماعة قليلة، وارتجعوا

بعض ما كانوا قد أخذوه من النساء والمتاع. وكان فريق من جند الموفق الذين اقتحموا دار الخبيث ـ في شرقي نهر أبي الخصيب قد تشاغلوا أيضاً بالنهب وحمل الغنائم الى سفنهم، فأطمع ذلك الزنج فيهم، وانقضوا عليهم، فأبعدوهم، وطاردوهم. وثبتت جماعة من قادة الجند ومعها أشداء المقاتلين وأبطالهم، فردوا الزنج، حتى ثاب الناس وتراجعوا الى مواقفهم. ودامت الحرب بينهم الى وقت صلاة العصر. فأمر الموفق أبو أحمد عندها جنده ان يهاجموا الزنج بكل قواتهم، ففعلوا ذلك، وانهزم الزنج، وأخذتهم السيوف حتى وصلوا الى دار الخبيث، فرأى الموفق عند ذلك ان يعود بجنده، فأمرهم بالرجوع، وانصرف على هدوء وسكون. وأقام الموفق في النهر، يحميهم، حتى دخلوا سفنهم، وأدخلوها خيلهم. وأحجم الزنج عن مطاردتهم لما نالهم في المرحلة الأخيرة من المعركة.

طلب الموفق الى ابنه أبي العباس ان يوجّه قوة في خمس سفن بقيادة واحد من قادته، الى مؤخر معسكر الخبيث بنهر أبي الخصيب، لاحراق بيادر ثم جليل قدرها، كان الخبيث يقوت أصحابه منها ـ من الزنج وغيرهم ـ ففعل ذلك وأحرق اكثره. وكان إحراق ذلك من أقوى الأشياء على إدخال الضعف على الفاسق وأصحابه، إذ لم يكن لهم معول في قوتهم غيره، فأمر أبو أحمد بالكتابة الى الآفاق للإعلام بما تهيأ له على الخبيث وأصحابه من النصر في هذا اليوم، ليقرأ على الناس. وانصرف الموفق ومعه أبو العباس وسائر قادته وجميع جيشه وقد غنموا أموال الفاسق، واستنقذوا جمعاً كثيراً من النساء اللواتي كان غلب عليهن من حرم المسلمين، وجعلن يخرجن في ذلك اليوم أرتالاً الى فوهة نهر أبي الخصيب، فيحملن في السفن الى الموفقية حتى انقضاء القتال.

استقبل الموفق في معسكره جيشاً من عشرة آلاف مقاتل من المشاة والفرسان بقيادة صاعد بن مخلد ـ وقد قدم إليه من سامرا. فأمر الموفق بمنح هذا الجيش الراحة، وتجديد أسلحته وإصلاح أموره. والاستعداد لمحاربة الخبيث.

بينما كان الموفق أبو أحمد ماضياً في استعداداته، وصلته رسالة من ـ لؤلؤ ـ قائد جيش حاكم مصر ـ ابن طولون ـ يستأذنه في القدوم عليه ليشاركه في حرب الفاسق. فأجابه الى ذلك، وأذن له في القدوم عليه، وأخر تنفيذ ما كان قرره

من الإسراع في حرب صاحب الزنج انتظاراً منه قدوم لؤلؤ الذي كان يومها مقيماً بالرقة في جيش عظيم من الفراغنة والأتراك والروم والبربر والسودان وغيرهم من نخبة جند ابن طولون. وتحرك لؤلؤ فوصل الى معسكر الموفق يوم الخميس لليلتين خلتا من شهر المحرم سنة سبعين ومائتين (٨٨٣ م). فجلس له الموفق أبـو أحمد، وحضر ابنه أبو العباس وصاعد والقادة، فأدخل عليه لؤلؤ في زي حسن، فأمر أبو العباس ان ينزل معسكراً كان أعد له بإزاء نهر أبي الخصيب، فنزله في أصحابه. ثم تقدّم إليه في وقت مبكر من اليوم التالي ـ الجمعة ـ ومعه قادته للسلام عليه، فقرّبه الموفق ووعده وأصحابه خيراً، وأمر أن يخلع عليه وعلى خمسين ومائة قائد من قادته، وحمله على خيل كثيرة، بالسروج واللجم المحلاة بالذهب والفضة، وحمل بين يديه من أصناف الكسى والأموال في البدور ما حمله مائة غلام. وأمر لقادته من الصلات والحملان والكسى على قدر محل كل إنسان منهم عنده وأقطعه ضياعاً جليلة القدر، وصرفه الى عسكره بأجمل حال، وأعدت له ولجنده الأنزال والعلوفات، وأمره برفع جرائد لأصحابه بمبلغ أرزاقهم على مراتبهم، فرفع ذلك، فأمر لكل إنسان منهم بالضعف مما كان يجري له وضع لهم بالعطاء عند رفع الجرائد، ووفوا ما رسم لهم. ثم طلب الى لؤلؤ الاستعداد للعبور الى غربي دجلة لمحاربة صاحب الزنج وجيشه.

كان الخبيث ـ صاحب الزنج ـ قد عمل بعد هزيمته على نهر أبي الخصيب، وقطع القناطر والجسور، فبنى سداً على جانبي النهر، وجعل في وسطه باباً ضيقاً لتتسارع مياه التيار، فتمنع السفن من دخوله، ويتعذّر خروجها منه في المد. فقرر الموفق أبو أحمد أن تبدأ المعركة بتدمير هذا السد، وحاول ذلك، فاشتد دفاع الزنج عنه، وجعلوا يزيدون فيه كل يوم وليلة، قرر الموفق أبو أحمد زج قوات لؤلؤ فريقاً بعد فريق، حتى يتمرنوا على قتال الزنج، ويتعرفوا على الطرق والمسالك في مدينتهم. ودفع بقوة من جيش لؤلؤ ـ بقيادة لؤلؤ، للقتال عند السد، وأمر بإرسال العمال ـ الفعلة ـ للقيام بهدم السد. ورأى الموفق من نجدة لؤلؤ وإقدامه وشجاعة جنده وصبرهم على ألم الجراح، وثبات العدد القليل منهم في مواجهة الحشد الكبير لقوات الزنج، ما سرّه، فأمر لؤلؤاً بصرف جنده إشفاقاً عليهم، وضناً بهم، ووصلهم الموفق وأحسن إليهم

وردّهم الى معسكرهم. وألح الموفق على هذا السد، فكان يحارب المدافعين عنه من الزنج، بجنود لؤلؤ وغيرهم، فيما كان العمال يعملون على تدميره واقتلاعه، ويحارب الخبيث وجنده من عدة نواحٍ، فيحرق مساكنهم، ويقتل مقاتلتهم، ويستأمن إليه الجماعة من قادتهم ورؤسائهم.

كانت قد بقيت للزنج وقائدهم أرض من ناحية نهر الغربي، لهم فيها مزارع وخضر وقنطرتان على نهر الغربي، يعبرون عليهما الى هذه الأرض. وعلم أبو العباس بذلك فاستأذن والده الموفق في مهاجمتها، فأذن له، وأمره باختيار الرجال من شجعان جنده وأجلدهم. ففعل ذلك، ووجّه قوة من جنده بقيادة قائده - زيرك - لنصب كمين في غربي النهر، وأمره ألا يتحرك إلا عندما يرى هزيمة الزنج. ووجّه قوة أخرى بقيادة قائده - رشيق - الى نهر العميسين، لشن هجوم على الزنج من خلفهم. ثم أقام هو ومن معه من الجند في السفن عند فوهة نهر الغربي. فلمّا قام رشيق بهجومه المباغت من وراء ظهور الزنج، راعهم، فأقبلوا يريدون العبور الى غربيه ليهربوا الى معسكرهم، ولكن أبا العباس أسرع إليهم في السفن، وبثّ جنده على حافتي النهر، فلحقوا بهم، ووضعوا السيف فيهم، فقتل منهم في النهر وعلى ضفتيه خلق كثير، وأسر منهم أسرى، وأفلت آخرون، فتلقاهم - زيرك - وجنده، فقتلوهم ولم يُفلت منهم إلاّ الشريد، وأخذ جند أبي العباس من أسلحتهم ما ثقل عليهم حمله، حتى إنهم ألقوا أكثره. ودمر أبو العباس القنطرتين، وأمر بإخراج ما كان فيهما من السدود والأخشاب ونقلها الى دجلة، وانصرف الى والده الموفق بالأسرى والرؤوس، فطيف بها في المعسكر، وانقطع عن الزنج ما كانوا يرتفقون به من المزارع التي كانت لهم بنهر الغربي.

أخذت الأرض تضيق على الخبيث يوماً بعد يوم، فيما كانت تتزايد اتساعاً ورحباً على الموفق وجنده، وسهل عليه في موضعه الذي كان مقيماً فيه كل ما أراده من رخص الأسعار، وتدفق الامداد والتموين، ممّا كان يحمل إليه من الأموال من البلدان، وأخذ الناس في الالتحاق بمعسكره رغبة في جهاد الخبيث ومن معه من أشياعه. فكان ممن وصل إليه من المطوعة جمع كبير من المشاة والفرسان من نواحي الأهواز بقيادة عامل - ايذج - ونواحيها. أحمد بن دينار والذي لازم الموفق حتى آخر يوم من حرب الزنج.

ثم قدم بعده ألفـا رجل من أهل البحرين بقيادة رجل من عبدالقيس، فجلس لهم الموفق أبو أحمد، ودخل إليه رئيسهم ووجوههم، فأمر أن يخلع عليهم، واستعرضهم أجمعين، وأمر بإقامة الانزال لهم.

وورد بعدهم زهاء ألف رجل من نواحي فارس بقيادة شيخ من المطوعة يكنى ـ أبا سلمة ـ فجلس لهم الموفق، وتقدم إليه هذا الشيخ ووجوه أصحابه، فأمر لهم بالخلع، وأقرّ لهم الانزال ثم تتابعت المطوعة من البلدان، فيما كان الموفق يتابع استعداد قواته، وأمر بإعداد السفن والمعابر وإصلاح آلة الحرب في الماء وعلى الظهر ـ اليابسة ـ واختار من يثق ببأسه ونجدته في الحرب من المشاة والفرسان، لضيق المواضع التي كان يحارب فيها وصعوبتها وكثرة الخنادق والأنهار بها، فكان عدة من تخير من الفرسان زهاء ألفي فارس ومن المشاة خمسين ألفاً أو يزيدون، سوى من عبر من المطوعة والجند غير المسجلين في ديوان الجند، وخلف بالموفقية من لم تتسع السفن لحمله جمعاً كثيراً معظمهم من الفرسان. وأصدر الموفق أمره الى ابنه أبي العباس بالتوجه الى الموضع الذي كان يحتله من الجانب الشرقي ـ بازاء دار المهلبي ـ. وأصدر أمره أيضاً الى ـ صاعد بن مخلد ـ بالتوجه الى ناحية نهر أبي شاكر ـ في الجانب الشرقي كذلك ـ. ونشر قوة بقيادة قادته من فوهة نهر أبي الخصيب حتى نهر الغربي. وزجّ قوة من عشرين ألف مقاتل من المشاة والفرسان بقيادة راشد ولؤلؤ، للانطلاق من حد دار الكرنبائي الى نهر أبي شاكر. فسارت كتائبهم يتلو بعضها بعضاً. ووجّه قوة للعمل من خلف دار المهلبي، فتخرج هذه القوة وراء الزنج عندما يقع الاشتباك وتبدأ المعركة. وأمر الناس ان يزحفوا بجميعهم لقتال الزنج، لا يتقدم بعضهم بعضاً. وجعل لهم شارة الزحف بتحريك علم أسود أمر بنصبه على دار الكرنبائي بفوهة نهر أبي الخصيب، في موضع منها مشيد عال، وأن ينفخ لهم ببوق بعيد الصوت. وانطلق بعض من كان على نهر ـ جوى كور ـ قبل ظهور شارة بدء الهجوم، واقتربوا من دار المهلبي، فلقيهم الزنج وردوهم الى مواضعهم، وقتلوا منهم جمعاً، ولم يشعر سائر الناس بما حدث لهؤلاء المتسرعين للقتال لكثرتهم ولبعد المسافة فيما بين بعضهم وبعض. فلمّا خرج القادة وجندهم واحتلوا المواقع التي حددت لهم. واستوى المشاة والفرسان في أماكنهم، أمر

الموفق بتحريك العلم والنفخ في البوق، ودخل النهر في السفن، وزحف الناس يتلو بعضهم بعضاً، فلقيهم الزنج وقد حشدوا وجمعوا واجترؤوا بما تهيأ لهم من النصر على من كان تسرع إليهم. فلقيهم الجيش بنيات صادقة وبصائر نافذة. فأزالوهم عن مواضعهم بعد كرات كانت بين الفريقين، قتل فيها منهم جمع كثير. وصبر جند الموفق، فمنّ الله عليهم بالنصر، ومنحهم اكتاف الفسقة - الزنج - فولوا منهزمين، وطاردهم جند الموفق يقتلون ويأسرون. وأحاط جند الموفق بالزنج الفجرة من كل موضع، فقتل الله منهم في ذلك اليوم ما لا يحيط به الإحصاء، وغرق منهم في نهر - جوى كور - مثل ذلك، وحوى جند الموفق مدينة الفاسق بأسرها، واستنقذوا من كان فيها من الأسرى من الرجال والنساء والصبيان، وظفروا بجميع عيال - علي بن أبان المهلبي وأخويه الخليل ومحمد ابني أبان وسليمان بن جامع وأولادهم، وعبروا بهم الى مدينة الموفقية. ومضى الفاسق في أصحابه ومعه المهلبي وابنه انكلاي وسليمان بن جامع وقادة الزنج وغيرهم - هراباً -. عامدين لموضع كان الخبيث قد اختاره لنفسه ولمن معه، ليلجأ إليه إذا ما غلب على مدينته، وذلك على نهر السفياني. وانصرف جند الموفق - حين انهزم الخبيث، وظفروا بما ظفروا به، فأقاموا عند دار المهلبي الواغلة في نهر أبي الخصيب، وتشاغلوا بانتهاب ما كان في الدار وإحراقها وما يليها. وتفرقوا في طلب النهب، وكل ما بقي للفاسق وأصحابه مجموعاً في تلك الدار.

تقدم الموفق أبو أحمد في السفن نحو نهر السفياني، ومعه لؤلؤ في جنده من المشاة والفرسان، فانعزل عن باقي الجيش الذي ظنّ أفراده ان الموفق قد انصرف فعادوا الى سفنهم بما حووا، ووصل الموفق ومن معه الى معسكر الفاسق وأصحابه وهم منهزمون، فطاردهم لؤلؤ وجنده حتى عبروا نهر السفياني، فاقتحم لؤلؤ النهر بفرسه، ولحق به جنده، ومضى الفاسق هارباً حتى وصل الى نهر - القريري - فوصل إليه لؤلؤ وجنده، فأوقعوا به وبمن معه وأحلودم، فولوا هاربين وهم يطاردونهم حتى تجاوزوا نهر القريري، وعبر لؤلؤ وجنده النهر خلفهم، وألجؤوهم الى نهر المساوان، فعبروه واعتصموا بجبل وراءه. وانفرد لؤلؤ وجنده بهذا العمل دون سائر الجيش، فأقبل عليه الموفق وشكره على صدق جهاده وحميد فعله، وحمله معه في سفينته، وجدد له من البر

والكرامة ورفيع المرتبة بما هو أهل له. وأمره بالانصراف وجنده، ورجع الموفق في السفينة في نهر أبي الخصيب، وجند لؤلؤ يسايرونه، فلمّا حاذى دار المهلبي، لم ير بها أحداً من جنده، فعرف أنهم قد انصرفوا، فاشتد غيظه عليهم، وسار قاصداً لقصره، وأمر لؤلؤ بالمضي بجنده الى معسكره، وأيقن بالفتح لما رأى من بشائره وأماراته. واستبشر الناس جميعاً بما هيأ الله من هزيمة الفاسق وجنده وإخراجهم من مدينتهم، واستباحة كل ما كان لهم من مال وذخيرة وسلاح، واستنقاذ جميع من كان في أيديهم من الأسرى. **وكان في نفس الموفق أبي أحمد على أصحابه من الغيظ لمخالفتهم أمره، وتركهم مواقعهم بدون أمره. فجمع القادة والرؤساء، ووبّخهم على ما كان منهم، وأغلظ لهم، وبين لهم عجزهم.** فاعتذروا بما ظنّوه من انصرافه، وانهم لم يعلموا بمسيره الى الفاسق ووصوله الى حيث وصل من معسكره، وأنهم لو عرفوا ذلك لأسرعوا نحوه، ولما برحوا موضعهم، وتحالفوا وتعاقدوا على ألا ينصرف منهم أحد إذا توجهوا نحو الخبيث، حتى يظفرهم الله به، فإن أعياهم ذلك، أقاموا بمواضعهم حتى يحكم الله بينهم وبينه. وسألوا الموفق ان يأمر برد السفن التي يعبرون فيها الى الموفقية عند خروجهم منها للحرب، لتقطع أطماع الذين يريدون الرجوع عن حرب الفاسق من ذلك، فجزاهم الموفق أبو أحمد الخير على تنصلهم من خطئهم. ووعدهم الإحسان، وأمرهم التأهب للعبور، وأن يعظوا أصحابهم بمثل الذي وُعظوا به. وأقام الموفق في معسكره أربعة أيام تم خلالها إصلاح ما يحتاج للإصلاح، فلمّا كمل ذلك، تقدّم الى من يثق إليه من خاصته وقادة جنده ومواليه. وحدد لهم بدقة ما يجب عليهم عمله في وقت عبورهم. ثم أمرهم باحتلال مواقعهم التي عيّنها لكل واحد منهم، وتمت التحضيرات بدقة مثيرة. ولم يبق إلاّ إعطاء الشارة لبدء الهجوم الجديد.

كان الخبيث صاحب الزنج وأصحابه قد رجعوا الى المدينة بعد انصراف جيش الموفق عنها، وأقاموا بها، وأملوا أن تتطاول بهم الأيام، وتتدافع عنهم المناجزة، فوجد الموفق المتسرعين من مشاة جنده وفرسانهم وقد سبقوا الكتلة الرئيسة للجيش، وانقضوا على الخبيث وأصحابه فطردوهم عن مواقعهم، فانهزم الزنج وتفرقوا لا يلوي بعضهم على بعض، واتبعهم الجيش يقتلون ويأسرون من لحقوا منهم، وانعزل الخبيث في جماعة

من جنده وقادة جيشه. وفارقه ابنه ـ انكلاي ـ وسليمان بن جامع، فتوجّه نحوهم فريق من الجند الكثيف ممّن كان قد تم تكليفهم للقيام بهذا الواجب فوضعوا فيهم السلاح، فوقع سليمان بن جامع أسيراً وقتل اكثر من كان معه، وحمل الى الموفق بغير عهد ولا عقد، فاستبشر الناس بأسر سليمان وارتفع الصوت بالتكبير والتهليل، وأيقن الجند بالفتح، إذ كان أكثر أصحاب الزنج غناء وعناداً في القتال. وأسر بعده إبراهيم بن جعفر الهمداني ـ وهو أحد أمراء جيوش صاحب الزنج ـ وأسر نادر الأسود المعروف بالحفّار، وهو أحد قدماء أصحاب الفاجر. فأمر الموفق بالاستيثاق منهم ونقلهم في سفينة لأبي العباس. ثم إن الزنج الذين انعزلوا مع الفاسق، انقضوا على الجند وهاجموهم بعنف، فأزالوهم عن مواقفهم، ففتروا لذلك، وشعر الموفق بفتورهم، فجد في طلب الفاسق، وأمعن في نهر الخصيب، فشدّ ذلك من قلوب جنده. فعادوا وجدوا في المطاردة. **ووصل الموفق الى نهر أبي الخصيب، فوصل إليه أحد الجند مبشراً بقتل الخبيث، ولم يلبث ان وافاه بشير آخر ومعه كفّ زعم أنها كفه، ثم أتاه غلام من أصحاب لؤلؤ يركض على فرس ومعه رأس الخبيث، فأدناه منه، وعرضه على جماعة ممن كان بحضرته من قادة المستأمنة، فعرفوه. فخرّ لله ساجداً على ما أولاه وأبلاه. وسجد أبو العباس وقادة جند الموفق شكراً لله، واكثروا حمد الله والثناء عليه. وأمر الموفق برفع رأس الفاجر على قناة ونصبه بين يديه، فتأمّله الناس، وعرفوا صحة الخبر بقتله، فارتفعت أصواتهم بالحمدلله**. وسار الموفّق ورأس الخبيث بين يديه على القناة، وسليمان بن جامع والهمداني مصلوبان في السفن، حتى وصل قصره بالموفقية. وأمر ابنه أبا العباس بركوب السفينة، وإبقاء الرأس وسليمان والهمداني على حالهم، والسير بهم الى ـ نهر جطى ـ وهو أول عسكر الموفق، لتقع عليهم عيون الناس جميعاً في العسكر، ففعل ذلك وانصرف الى أبيه أبي أحمد، فأمر بحبس سليمان والهمداني، وإصلاح الرأس وتنقيته.

تتابع وصول الزنج الى معسكر الموفق في ذلك اليوم، فالتحق منهم زهاء ألف رجل، ورأى الموفق بذل الأمان، لما رأى من كثرتهم وشجاعتهم، لئلا تبقى منهم بقية تخاف معرتها على الإسلام وأهله. فكان من استأمن من قادة الزنج ورجالهم في اليومين

التاليين زهاء خمسة آلاف زنجي.

وانعزلت منهم قوة من ألف رجل، اتجهوا نحو الصحراء. فمات أكثرهم عطشاً، وظفر الأعراب بمن سلم منهم واسترقوهم. وعلم الموفق بهرب انكلاي والمهلبي، ومقامهما مع من بقي من قادة الزنج ورجالهم، فأرسل مفارز من قواته اختار رجالها من بين أنجاد جنده، وأمرها بمطاردتهم والتضييق عليهم. فظفر بهم الموفّق وبمن معهم، حتى لم يبق أحد. فأمر الموفق بحبسهما، غير أن أكبر حدث وقع في ذلك اليوم هو استئمان ـ درمويه الزنجي ـ واستسلامه الى الموفق أبي أحمد. وكان ـ درمويه ـ هذا من انجاد الزنج وأبطالهم. وكان الخبيث قد وجهه قبل هلاكه بمدة طويلة الى أواخر نهر الفهرج ـ وهي من البصرة في غربي دجلة ـ فأقام هنالك بموضع وعر كثير النخل والدغل والآجام، متصل بالبطيحة. وكان ـ درمويه ـ ومن معه هنالك يقطعون على السابلة في زوارق خفاف وسفن اتخذوها لأنفسهم، فإذا طاردهم أصحاب السفن، دخلوا الى الأنهار الضيقة واعتصموا بمواضع الأدغال منها. وإذا تعذّر عليهم مسلك نهر منها لضيقها، خرجوا من سفنهم وحملوها على ظهورهم، ولجؤوا الى هذه المواضع الممتنعة. وفي خلال ذلك يغيرون على قرى البطيحة وما يليها، فيقتلون ويسلبون من ظفروا به. فمكث ـ درمويه ـ ومن معه يفعلون هذه الأفعال الى ان قتل الفاجر وهم بموضعهم، لا يعلمون بشيء ممّا حدث على صاحبهم. فلمّا فتح بقتل الخبيث، وأمن الناس وانتشروا في طلب المكاسب وحمل التجارات، وسلكت السابلة دجلة، أوقع درمويه بهم فقتل وسلب، فأوحش الناس ذلك، واشرأب لمثل ما فيه درمويه جماعة من شرار الناس وفساقهم، وحدثوا أنفسهم بالسير إليه والإقامة معه.

وقرر الموفق توجيه جيش من جنده السودان، وممن لهم خبرة بالحرب في الأدغال ومضايق الأنهار. وأعد لذلك صغار السفن وصنوف السلاح. فبينما هو في ذلك، وصله رسول من قبل درمويه وهو يطلب الأمان لنفسه ولأصحابه. فرأى الموفق ان يؤمنه ليقطع مادة الشر الذي كان فيه الناس من الفاجر وأشياعه. وذكر أن سبب طلب ـ درمويه ـ الأمان هو أنه كان قد أوقع بقوم ممن خرجوا من جيش الموفق قاصدين منازلهم بمدينة السلام. فيهم نسوة، فقتلهم وسلبهم وغلب على النسوة اللاتي كنّ معهم،

فلمّا صرن في يده، أخبرنه بقتل الفاسق والظفر بالمهلبي وأنكلاي وسليمان بن جامع وغيرهم من قادة الفاسق ممن صاروا في قبضة الموفق، بالإضافة الى من حصل على الأمـان من الموفق والذين صفح عنهم وأحسن إليهم. فأسقط في يده. ولم ير لنفسه ملجأ إلاّ التعوّذ بالأمان، وسؤال الموفق الصفح عن جرائمه، فأجابه الموفق الى ما طلبه، وأسرع فخرج وجميع من معه حتى وصل الى معسكر الموفق. فأحسن الموفق إليه والى أصحابه، وعندها ردّ - درمويه - كل شيء ممّا كان قد أخذه من أموال الناس وأمتعتهم، وأظهر صدق توبته وإنابته، فخلع الموفق عليه وعلى أصحابه وضمهم الى قواته. **وكتب الى أمصار الإسلام بالنداء في أهل البصرة والأبلة ونواحي دجلة وأهل الأهواز ونواحيها وأهل واسط وما حولها، بقتل الفاسق وانتهاء ثورة الزنج. وأن يؤمروا بالعودة الى أوطانهم. وأقام الموفق بالموفقية ليزداد الناس بمقامه أمنة وإيناساً. واختار لولاية الأقاليم رجالاً ممن عرفوا بتقواهم وحسن إدارتهم. وعاد بعد ذلك إلى مدينة السلام. وقد انصرف الناس لبناء ما خربته ثورة الزنج.**

د - مع الشعر في نهاية ثورة الزنج.

كان خروج صاحب الزنج في يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين (٨٦٨ م) وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة سبعين ومائتين (٨٨٣ م) فكانت أيامه من لدن خرج الى اليوم الذي قتل فيه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام. وكان دخوله الأهواز لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ست وخمسين ومائتين (٨٦٩ م) وكان دخوله البصرة وقتله أهلها وإحراقه لها، لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال سنة سبع وخمسين ومائتين. وقال الشعراء أشعاراً كثيرة في ثورة الزنج، وفيما كان من أمر الموفق مع الخبيث. فمما قيل في ذلك **قول يحي بن محمد الأسلمي - ومن قصيدة طويلة له -:**

أقول وقد جاء البشير بوقعة	أعزت من الإسلام ما كان واهيا
جزى الله خير الناس للناس بعدما	أبيح حماهم - خير ما كان جازيا

تفــرد إذ لم ينصــر الله نـــاصر … بتجـديـد ديـن كـان أصبح باليـا
وتشديـد ملـك قـد وهـي بعـد عـزة … وإدراك ثـارات تبير الأعـاديـا
ورد عمارات أزيلـت وأخـربـت … ليرجـع فيء قـد تخـرم وافيـا
ويرجـع أمصاراً أبيحـت وأحـرقـت … مـراراً فقـد أمست قـواءً عـوافيـا
ويشفـي صـدور المؤمنين بـوقعـة … يقـرّ بها منّـا العيـون البـواكيـا
ويتلى كتـاب الله في كـل مسجـد … ويلقـى دعـاء الطـالبين خـاسيـا
فـأعـرض عـن أحبـابـه ونعيمـه … وعـن لـذة الدنيا وأقبل غـازيـاً.

ومن ذلك أيضاً قوله في قصيدة طويلة أخرى.

أيـن نجـوم الكـاذب المـارق … مـا كـان بـالطّـب ولا الحـاذق
صبحـه بـالنحس سعـد بـدا … لسيـد في قـولـه صـادق
فخـر في مـأزقـه مسلماً … الى أسـود الغـاب في المـازق
وذاق مـن كـأس الردى شربـة … كـريهة الطعـم على الذائـق.

وقال يحي بن خالد :

يـا بـن الخلائـف مـن أرومـة هـاشم … والغـامـريـن النـاس بـالأفضـال.
والذائـديـن عـن الحريم عـدوّهـم … والمعلمين لكـل يـوم نـزال
ملـك أعـاد الديـن بعـد دروسـه … واستنقـذ الأسرى مـن الأغـلال
أنـت المجير مـن الزمـان إذا سطـا … وإليـك يقصـد راغـب بسـؤال
أطفـأت نيران النفـاق وقـد علـت … يـا واهـب الآمـال والآجـال
لله درك مـن سليـل خلائـف … مـاضي العـزيمة طـاهـر السربـال
أفنيـت جمع المارقين فـأصبحـوا … متلـدديـن قـد أيقنـوا بـزوال
أمطـرتهم عـزمـات رأيٍ حـازم … ملأت قلـوبهُم مـن الأهـوال
لما طغـى الرجس اللعين قصـدتـه … بـالمشرفي وبـالقنـا الجـوال
وتـركتـه والطير يحجـل حـولـه … متقطـع الأوداج والأوصـال
يهوي الى مـر الجحيم وقعـرهـا … بسلاسـل قـد أوهنتـه ثقـال

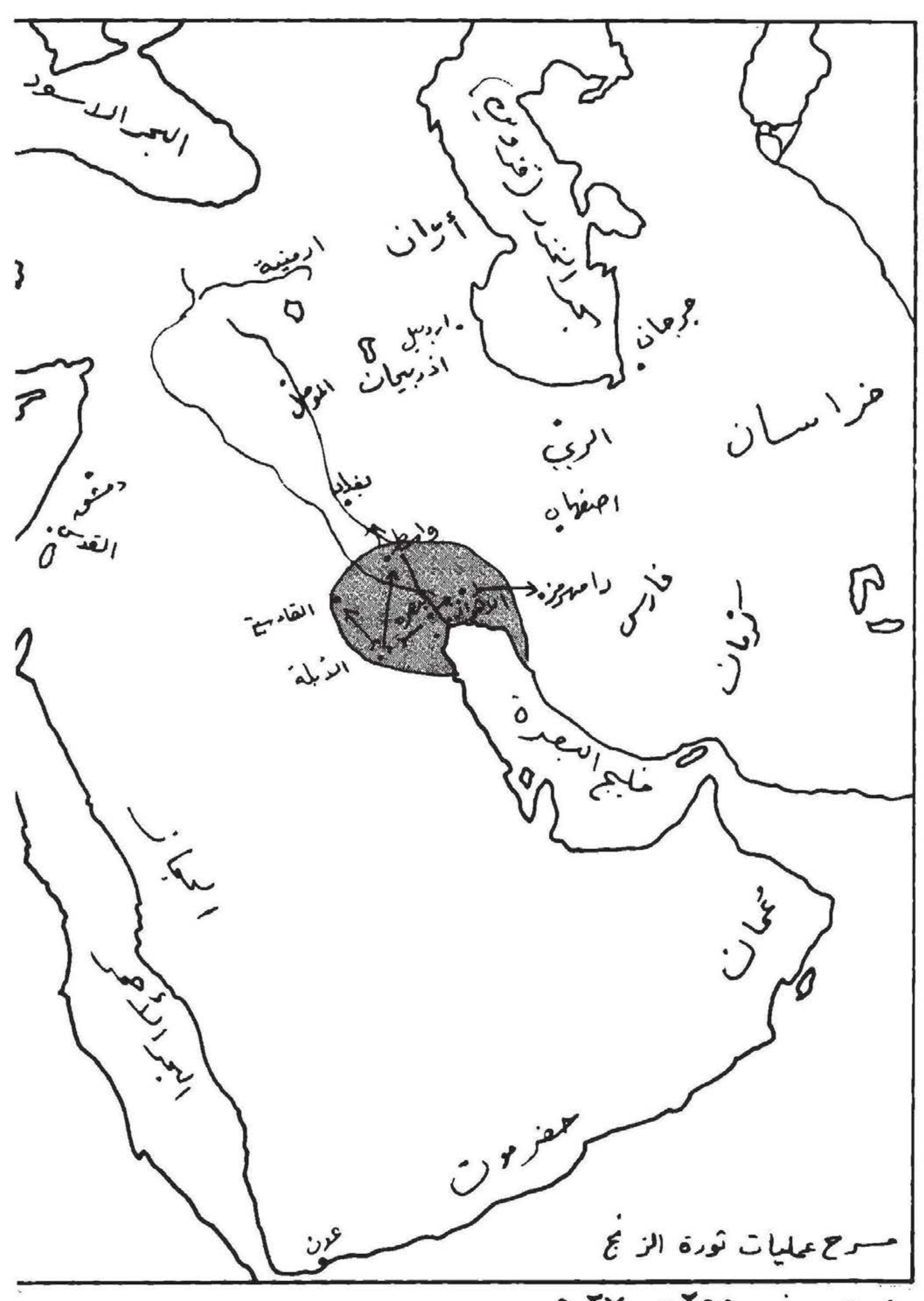
هــذا بما كسبت يــداه ومــا جنــى ... وبما أتـــى مـــن سيء الأعمـال
أقـــررت عين الديـــن ممن قــاده ... وأدلتـه مـن قـاتـل الأطفـال
صـال الموفـق بـالعـراق فـأفـزعـت ... من بـالمغـارب صـولـة الأبطـال

وفيه قال أيضاً يحي بن خالد بن مروان:

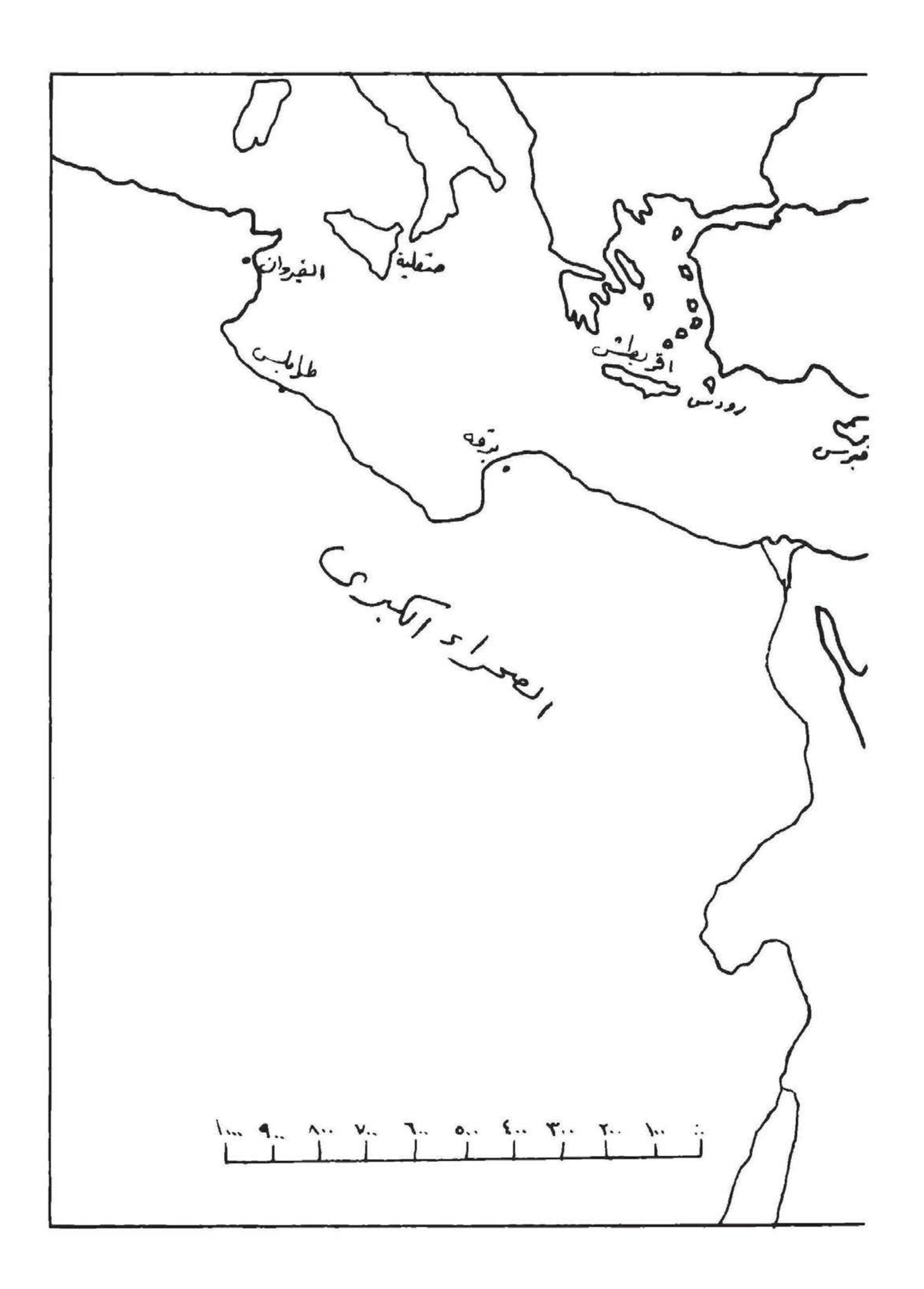
أبِـن لي جـوابـاً أيها المنـزل القفـر ... فلا زال منهلاً بسـاحـاتـك القطـر
أبِـن لي عــن الجيران أيــن تحملـوا ... وهل عادت الدنيا ؟ وهل رجع السفـر ؟
وكيـف تجيـب الدار بعـد دروسهـا ... ولم يبـق مـن أعلام سـاكنهـا سطـر
منـازل أبكـاني مغـاني أهلهـا ... وضـاقـت بي الدنيـا وأسلمني الصبر
كـأنهم قـوم رغـا البكـر فيهـم ... وكـان على الأيـام في هلكهـم نـذر
وعاثت صروف الدهر فيهم فأسرعـت ... وشر ذوي الاصعاد مـا فعـل الدهـر
فقـد طـابـت الدنيـا وأينـع نبتهـا ... بيمـن ولي العهـد وانقلـب الأمـر
وعاد الى الأوطـان مـن كـان هـارباً ... ولم يبـق للملعـون في مـوضـع إثـر
بسيـف ولي العهـد طـالـت يـد الهدى ... وأشرق وجـه الديـن واصطلم الكفـر
وجـاهـدهـم في الله حـق جهـاده ... بنفس لها طـول السلامـة والنصر

وقال يحي بن محمد ـ من قصيدة طويلة:

عني اشتغـالـك إني عنـك في شغـل ... لا تعـذلي مـن بـه وقـرٌ عـن العـذل
لا تعـذلي في ارتحالي إنني رجـل ... وقـف على الشـد والأسفـار والرحـل
فيم المقـام إذا مـا ضـاق بي بلـد ... كـأنني لحجـال العين والكلـل
ما استيقظت همّة لم تلـف صـاحبهـا ... يقظـان قـد جـانبتـه لـذة المقـل
ولم يبـت آمِنـاً مـن لم يبـت وجلاً ... مـن أن يبيـت لـه جـار على وجـل



ثورة الزنج ٢٥٥ - ٢٧٠ هـ
المنطقة المظللة


صقلية
القيروان
اقريطش
طرابلس
رودس
برقة
قبرس
الصحراء الكبرى
١٠٠٠ ٩٠٠ ٨٠٠ ٧٠٠ ٦٠٠ ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠



٦ - القرامطة بعد الزنج ٢٧٨ - ٢٧٨ هـ.

أ - القرامطة يعيدون تنظيم أمورهم .

ب - ماذا حدث في مكة المكرمة ؟

٦ - القرامطة بعد الزنج. ٢٧٨ - ٢٧٨ هـ.

لم يكد المسلمون يتنفسون الصعداء مما أحدثته ثورة الزنج، حتى دهمتهم دهماء تمثّلت بحركة القرامطة، وهي حركة طالما شغلت الناس في القديم والحديث، بسبب دورها المنحرف وبسبب ما تشعّب عنها. ففي سنة ٢٧٨ هـ = ٨٩١ م تحرك قوم بسواد الكوفة عرفوا باسم القرامطة. وكان ابتداء أمرهم فيما ذكر أن رجلاً منهم قدم من ناحية - خوزستان - الى سواد الكوفة، واستقرّ بموضع يقال له - النهرين -. وأظهر الزهد والتقشّف فكان يسف الخوص، ويأكل من كسب يده، ويكثر الصلاة، فأقام على ذلك مدة، وكان إذا قعد إليه رجل ذاكره أمر الدين، وزهده في الدنيا، وأعلمه ان الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة، حتى فشا ذلك عنه بموضعه. ثم أعلمهم أنه يدعو الى إمام من آل بيت الرسول، فلم يزل على ذلك حتى استجاب له جمع كثير. فاتخذ منهم اثني عشر نقيباً، وأمرهم ان يدعوا الناس الى مذهبهم. وقال: أنتم كحواري عيسى ابن مريم. فاشتغل أهل النواحي هناك عن أعمالهم بما ذكر لهم من الصلوات، وكان للأمير الهيصم في تلك النواحي ضياع، فرأى تقصير العمال الزراعيين عن أعمالهم، وسأل عن السبب، فعلم بخبر ذلك الرجل، فأخذه وحبسه وحلف أن يقتله لما اطلع على مذهبه ولكن بعض الجواري سرقت مفتاح الحجرة التي سجن فيها صاحب القرامطة وأطلقت سراحه في الليل. فلما أصبح - الهيصم - فتح الباب ليقتلـه فلم يجده. وشاع ذلك في الناس، فافتتن أهل تلك الناحية، وقالوا: رفع - كما رفع السيد المسيح -. ثم ظهر في ناحية أخرى؛ ولقي جماعة من أصحابه وغيرهم، وسألوه عن قصته، فقال لهم: «لا يمكن أحداً أن ينالني بسوء». فعظم في أعينهم. ثم خاف على نفسه؛ فخرج الى ناحية الشام، فلم يعرف عنه أي خبر. **وقيل إن - قرمط - هو لقب رجل كان بسواد الكوفة، يحمل غلة السواد على أثوار له، واسمه - حمدان -. ثم فشا مذهب القرامطة بسواد الكوفة. وقدم قوم من الكوفة فرفعوا أمر القرامطة الى أمير المؤمنين، وأخبروه ان القرامطة قد أحدثوا ديناً غير دين**

الإسلام وأنهم يرون السيف على أمة محمد ﷺ، إلاّ من بايعهم، فلم يلتفت إليهم ولم يسمع قولهم.

وكان فيما حكي عن القرامطة من مذهبهم، أنهم جاؤوا بكتاب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. يقول الفرج بن عثمان ـ وهو من قرية يقال لها نصرانة ـ داعية المسيح، وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد ابن الحنفية، وهو جبريل» وذكر ان المسيح تصور له في جسم الإنسان وقال له: «إنك الداعية، وإنك الحجة، وانك الناقة، وانك الدابة، وانك يحيى بن زكريا، وانك روح القدس» وعرفه ان الصلاة أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان بعد غروبها. وان الأذان في كل صلاة ان يقول المؤذن: «الله اكبر الله اكبر الله اكبر، أشهد ان لا إله إلاّ الله ـ مرتين ـ أشهد ان آدم رسول الله، أشهد ان نوحاً رسول الله، أشهد ان ابراهيم رسول الله، أشهد ان موسى رسول الله، أشهد ان عيسى رسول الله، أشهد ان محمداً رسول الله، أشهد أن أحمد بن محمد ابن الحنفية رسول الله». وان يقرأ في كل ركعة الاستفتاح، وهي مما زعم بأنه منزل على أحمد بن محمد ابن الحنفية. وجعل **القبلة الى بيت المقدس، والحج الى بيت المقدس، وجعل يوم الاثنين يوماً لا عمل فيه بدلاً من يوم الجمعة. وأما سورة الاستفتاح ـ فهي:** «الحمدلله بكلمته، وتعالى باسمه، المتخذ لأوليائه بأوليائه. قل إن الأهلة مواقيت للناس، ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها أوليائي الذين عرفوا عبادي سبيلي. اتقوني يا أولي الألباب. وأنا الذي لا أسأل عمّا أفعل وأنا العليم الحكيم، وأنا الذي أبلو عبادي وأمتحن خلقي، فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري ألقيته في جنتي، وأخلدته في نعمتي، ومن زال عن أمري، وكذب رسلي، أخذته مهاناً في عذابي، وأتممت أجلي وأظهرت أمري على ألسنة رسلي، وأنا الذي لم يعل عليّ جبّار إلا وضعته ولا عزيز إلاّ أذللته، وليس الذي أصر على أمري وداوم على جهالته، وقالوا لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين أولئك هم الكافرون». **ثم يركع ويقول في ركوعه:** «سبحان ربي ربّ العزة وتعالى عمّا يصف الظالمون» يقولها مرتين. **فإذا سجد قال:** «الله أعلى، الله أعلى، الله أعظم، الله أعظم» ومن شريعته أن **يصوم يومين في السنة، وهما:**

المهرجان والنيروز. وأن النبيذ حرام والخمر حلال. ولا غسل من جنابة إلاّ الوضوء كوضوء الصلاة. وأن من حاربه وجب قتله. ومن لم يحاربه ممن يخالفه أخذ منه الجزية. ولا يأكل كل ذي ناب ولا كل ذي مخلب. **وكان مصير قرمط الى سواد الكوفة قبل قتل صاحب الزنج، فسار قرمط إليه وقال له: اني على مذهب ورأي، ومعي مائة ألف ضارب سيف، فتناظرني، فان اتفقنا على المذهب، انضممت إليك بمن معي، وإن تكن الأخرى انصرفت عنك. فتناظرا، فاختلفت آراؤهما فانصرف قرمط عنه.**

مضى القرامطة بدعوتهم، وأخذ أمرهم في الظهور بناحية ـ **البحرين** ـ حيث توجّه إليها رجل منهم يعرف باسم ـ يحي بن المهدي ـ ونزل على رجل يعرف باسم ـ علي بن المعلى بن حمدان ـ وهو مولى الزيادنيين وكان يغالي في التشيع، فأظهر له يحي انه رسول المهدي ـ **وكان ذلك سنة ٢٨١ هـ = ٨٩٤ م** ـ. وذكر أنه خرج الى شيعته في البلاد يدعوهم الى أمره وأن ظهوره قد قرب، فوجه علي بن المعلى الى الشيعة من أهل القطيف فجمعهم وأقرأهم الكتاب الذي مع يحي بن المهدي إليهم ـ من المهدي ـ فأجابوه وأعلموه أنهم خارجون معه إذا ظهر أمره. وكان فيمن أجابه ـ **أبو سعيد الجنابي ـ وكان يبيع للناس الطعام ويحسب لهم بيعهم،** ثم غاب عنهم يحي بن المهدي، ثم رجع ومعه كتاب زعم أنه من المهدي الى شيعته وفيه: «بأن رسولي يحي بن المهدي قد عرفني مسارعتكم الى أمري، فليدفع إليه كل رجل منكم ستة دنانير وثلثين» ففعلوا ذلك. ثم غاب عنهم وعاد ومعه كتاب جاء فيه: «أن ادفعوا الى يحي خمس أموالكم» فدفعوا إليه الخمس. وكان يحي يتردد في قبائل قيس، ويورد إليهم كتباً زعم أنها من المهدي، وأنه ظاهر، فكونوا على أهبة. وحكى إنسان منهم يقال له ـ ابراهيم الصائغ ـ **أنه كان عند أبي سعيد الجنابي وأتاه يحي فأكلوا طعاماً، فلمّا فرغوا خرج أبو سعيد من بيته وأمر امرأته ان تدخل الى يحي وان لا تمنعه إن أراد.** فعلم الوالي بذلك فأخذ يحي وضربه وحلق رأسه ولحيته. وهرب أبو سعيد الجنابي الى جنابا. وسار يحي بن المهدي الى بني كلاب وعقيل والخريس، فاجتمعوا معه. فعظم أمر أبي سعيد حتى إذا ما كانت سنة ٢٨٦ هـ = ٨٩٩ م. اجتمع إليه

جماعة من الأعراب والقرامطة ـ بالبحرين ـ وقوي أمره، فقتل من حوله من أهل القرى، ثم سار الى القطيف، فقتل من بها. وأظهر انه يريد البصرة، فكتب والي البصرة ـ أحمد بن محمد بن يحيى الواثقي ـ الى أمير المؤمنين ـ المعتضد ـ بذلك، فأمره ببناء سور على البصرة، واستخدام الخراج. وكان مبلغ الخراج عليه أربعة عشر ألف دينار. كما وجه قوة من ثلاثمائة رجل بالسفن إلى البصرة، وعزل والي ـ **العباس بن عمرو الغنوي** ـ عن بلاد فارس، وعينه والياً على اليمامة والبحرين، وضمّ إليه زهاء ألفي رجل، وأمره بمحاربة القرامطة. وسار الغنوي الى البصرة فاجتمع إليه جمع كثير من المتطوعة والجند والخدم. ثم سار منها لقتال ـ أبي سعيد الجنابي ـ فلقيه مساء. وتناوشوا القتال، وحجز بينهم الليل، فلمّا كان الليل، انصرف عن الغنوي من كان معه من أعراب بني ضبة ـ وكانوا ثلاثمائة ـ إلى البصرة، وتبعهم مطوعة البصرة. فلمّا أصبح الغنوي باكر الحرب، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم قامت قوة من جناح الغنوي ـ من مائة رجل ـ فهاجمت جناح الجنابي، وأوغلت في تقدمها فطوقتها قوات الجنابي وأبادتها كما قام الجنابي بهجوم على الغنوي فهزم قواته وأخذ الغنوي أسيراً واستولى على كل ما حواه معسكره، فلمّا كان الغد أحضر الجنابي أسرى جيش الغنوي وقتلهم جميعاً. وبقي الغنوي أسيراً عدة أيام، ثم أطلقه وأعطاه ـ رسالة مغلقة ـ وقال له: «أوصلها الى أمير المؤمنين المعتضد فإن لي فيها أسراراً». فلمّا دخل الغنوي على المعتضد عاتبه المعتضد، فسلّمه الغنوي الكتاب، وفتح الكتاب، وإذ ليس فيه شيء. فقال المعتضد مخاطباً الغنوي: «انه أراد أن يعلمني أني أنفذتك إليه في العدد الكثير، فردك فرداً». وأما الجنابي، فإنه سار بعد ذلك الى ـ هجر ـ فدخلها وأمن أهلها. وكانت قافلة تحمل الزاد ـ التموين ـ قد خرجت من البصرة في نحو أربعمائة رجل على الرواحل، ومعهم الطعام والكسوة والماء، فخرج عليهم بنو أسد وأخذوا الرواحل وما عليها. فاضطربت البصرة. وعزم أهلها على الانتقال منها فمنعهم واليها ـ الواثقي ـ. وخرج بدر غلام الطائفي بقوة، فهاجم القرامطة على غرة منهم ـ بنواحي ميسان ـ وغيرها. وقتل منهم مقتلة. ثم تركهم خوفاً أن تخرب السواد، وكانوا فلاحيه، وطارد رؤساءهم فقتل من ظفر به منهم.

كان ـ **زكرويه بن مهرويه** ـ واسمه يحي ويكنى بأبي القاسم ولقبه الشيخ، هو أحد دعاة القرامطة، فلمّا رأى ان جيوش المعتضد متتابعة لمحاربة القرامطة في الكوفة وسوادها. وأن القتل قد أبادهم؛ سعى في استغواء من قرب من الكوفة من أعراب قبائل أسد وطيء وسواهم فلم يجبه منهم أحد، فأرسل أولاده إلى ـ كلب بن وبرة ـ فاستغووهم، فلم يجبهم منهم إلا الفخذ المعروف ـ ببني القليص بن ضمضم بن عدي بن خباب ـ ومواليهم خاصة، فبايعوا في آخر سنة ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ م بناحية السماوة، **وزعم زكرويه بن مهرويه ـ أنه محمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ وقيل لم يكن لمحمد بن اسماعيل ولد اسمه عبدالله ـ** وزعم ان له بالبلاد مائة ألف تابع، وأن ناقته التي يركبها مأمورة فإذا تتبعوها في مسيرها نصروا. وأظهر غلاماً له عضد ناقصة وذكر أنه ابنه، وأتاه جماعة من بني الأصبع وسموا الفاطميين، ودانوا بدينه. فقصدهم ـ شبل ـ غلام المعتضد من ناحية ـ الرصافة ـ فاغتروه فقتلوه وأحرقوا مسجد الرصافة. وسار زكرويه بجموعه، واعترضوا كل قرية اجتازوا بها الى ان وصلوا قرب **دمشق** ـ فخرج إليهم ـ **طغج بن جف** ـ عاملها لأمير مصر ـ هرون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ـ فحاربهم، فهزموه أكثر من مرة.

تابع ـ شبل ـ غلام أحمد بن محمد الطائي ـ حرب القرامطة بسواد الكوفة، وظفر برئيس لهم يعرف باسم أبي الفوارس ـ فسيره الى أمير المؤمنين المعتضد، فأحضره بين يديه وقال له: «أخبرني هل تزعمون أن روح الله تعالى وأرواح أنبيائه تحل في أجسامكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل؟» فقال أبو الفوارس: «يا هذا! إن حلت روح الله فينا فما يضرك؟ وإن حلت روح إبليس فما ينفعك؟ لا تسأل عمّا لا يعنيك واسأل عمّا يخصّك». فقال له المعتضد: «ما تقول فيما يخصّني؟». وأجاب القرمطي: «أقول إن رسول الله ﷺ مات وأبوكم العباس حي، فهل طلب الخلافة ام هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك؟ ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص إليه. ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة أنفس ولم يوص إليه ولا أدخله فيهم. فبماذا تستحقون انتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع

جدك عنها؟». فأمر به المعتضد، فعذب، وخلعت عظامه، ثم قطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه، ثم حملت جثته الى الياسرية فصلب مع من صلب هنالك من القرامطة. ولم يلبث المعتضد أن مات(*) واستراح القرامطة من عدو شديد البأس.

اشتد أمر القرامطة على أهل دمشق ـ سنة ٢٩٠ هـ = ٩٠٢ م. فوجه إليهم أميرها ـ طغج بن جف ـ جيشاً بقيادة غلام له اسمه بشير، فهزمه القرامطة وقتلوه ثم شرعوا في حصار دمشق والتضييق على أهلها، وقتلوا جند طغج حتى لم يبق منهم إلاّ القليل، وأشرف أهل دمشق على الهلكة، وهاج أهل بغداد، فوعدهم أمير المؤمنين بإرسال نجدة الى دمشق وأهلها، ووجّه المصريون قوات كثيرة. فقاتلوا الشيخ مقدم القرامطة، وقتلوه على باب دمشق حيث رماه بعض المغاربة بمذراق وقذفه نفاط بالنار فاحترق. وقتل من القرامطة خلق كثير. وكان هذا القرمطي يزعم أنه إذا أشار بيده الى جهة من التي فيها محاربوه، انهزموا. **فلمّا قتل وقتل أصحابه، اجتمع من بقي منهم على أخيه ـ الحسين، وسمى نفسه أحمد، وكنيته أبو العباس، ودعا الناس، فأجابه أكثر أهل البوادي وغيرهم، فاشتدت شوكته، وأظهر شامة في وجهه وزعم أنها آيته ـ فسار الى دمشق فصالحه أهلها على خراج دفعوه إليه وانصرف عنهم.**

(*) المعتضد بالله، أبو العباس أحمد بن الموفق بن المتوكل (٢٤٢ ـ ٢٨٩ هـ = ٨٥٦ ـ ٩٠١ م) تولى الخلافة سنة ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م وكان شجاعاً، مقداماً، عفيفاً، حكى القاضي اسماعيل بن إسحق قال: دخلت على المعتضد وعلى رأسه أحداث روم صباح الوجوه، فأطلت النظر فيهم، فلمّا قمت أمرني بالقعود، فجلست حتى تفرق الناس، فقال: يا قاضي، والله ما حللت سراويلي على غير حلال قط، وكان مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته، ويكفون عن الظلم خوفاً منه. فلما حضرته الوفاة أنشد:

تمتع من الدنيا فإنك لا تبقى ... وخذ صفوها ما إن صفت ودع الرنقا
ولا تأمنن الدهر إني أمنته ... فلم يبق لي خلا ولم يرع لي حقاً.
قتلت صناديد الرجال ولم أرع ... عدواً ولم أمهل على طغيه خلقاً
وأخليت دار الملك من كل نازع ... فشردتهم غرباً ومزّقتهم شرقاً
فلمّا بلغت النجم عزاً ورفعة ... وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقاً
رماني الردى سهماً فأخمد جمرتي ... فها أنذا في حفرتي عاجلاً ألقى
فيا ليت شعري بعد موتي ما القى ... الى نعم الرحمن أم ناره ألقى.

سار الحسين ـ صاحب الشامة ـ بقواته الى أطراف ـ **حمص** ـ فغلب عليها، وخطب له على منابرها، وتسمى ـ بأمير المؤمنين المهدي ـ وأتاه ابن عمه ـ عيسى بن المهدي المسمى عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل ـ فلقبه المدثر وزعم انه المدثر الذي في القرآن ـ وعهد إليه. ولقب غلاماً من أهله بلقب ـ المطوق ـ وقلده قتل أسرى المسلمين. ولمّا أطاعه أهل حمص، وفتحوا له بابها خوفاً منه على أنفسهم، سار إلى ـ **حماه** ـ **و** ـ **معرة النعمان** ـ وغيرهما فقتل أهلها، وقتل النساء والصبيان، ثم سار الى ـ **بعلبك** ـ فقتل عامة أهلها ولم يبق منهم إلاّ اليسير. ثم سار الى ـ **سلمية** ـ فمنعه أهلها ثم صالحهم وأعطاهم الأمان، ففتحوا له بابها، فغدر بهم، وبدأ بمن فيها من بني هاشم، وكانوا جماعة، فقتلهم أجمعين، ثم قتل البهائم والصبيان بالمكاتب، ثم خرج منها وليس بها عين تطرف. وسار فيما حولها من القرى يسبي ويقتل ويقطع الطرق. وذكر عن متطبب بباب المحول يدعى أبا الحسن قال: « جاءتني امرأة بعدما أدخل القرمطي صاحب الشامة بغداد، وقالت: أريد ان تعالج جرحاً في كتفي. فقلت لها: ههنا امرأة تعالج النساء. فجلست في انتظارها وهي تبكي. فسألتها عن قصّتها فقالت: كان لي ولد طالت غيبته عني، فخرجت أطوف عليه البلاد، فلم اعثر عليه، فخرجت من ـ الرقة ـ في طلبه، حتى نزلت في معسكر القرمطي؛ فرأيته، فشكوت إليه حالي وحال أخواته، فقال: دعيني من هذا وأخبريني ما دينك؟ فقلت: أما تعرف ما ديني؟ فقال: ما كنا فيه باطل، والدين ما نحن فيه اليوم. فعجبت من ذلك، وخرج وتركني وأرسل اليّ خبزاً، فلم أمسّه حتى عاد فأصلحه، وأتاه رجل من أصحابه فسألني هل أحسن من أمر النساء شيئاً؟ وأجبته: نعم. فأدخلني داراً؛ فإذا امرأة تطلق، فقعدت بين يديها، وجعلت أكلمها ولا تكلمني حتى ولدت غلاماً، فأصلحت من شأنه، وتلطفت بها حتى كلمتني. فسألتها عن حالها فقالت: أنا امرأة هاشمية، أخذنا هؤلاء الأقوام، فذبحوا أبي وأهلي جميعاً. وأخذني صاحبهم، فأقمت عنده خمسة أيام. ثم أمر بقتلي، فطلبني منه أربعة أنفس من قواده، فوهبني لهم. وكنت معهم، فوالله ما أدري ممّن هذا الولد منهم ثم جاء رجل، فقالت لي: هنيه. فهنّيته فأعطاني سبيكة فضة. وجاء آخر، وآخر، أهنىء كل واحد منهم ويعطيني سبيكة فضة، وجاء الرابع ومعه جماعة فهنّيته، فأعطاني ألف

درهم. وبتنا ليلتنا، فلمّا أصبحنا قلت للمرأة: قد وجب حقّي عليك، فالله الله خلّصيني. قالت: ممّن أخلّصك؟ فأخبرتها خبر ابني. فقالت لي: عليك بالرجل الذي جاء آخر القوم. فأقمت يومي، فلما أمسيت وجاء الرجل، قمت له وقبلت يده ورجله، ووعدته أنني أعود بعد أن أوصل ما معي الى بناتي. فدعا قوماً من غلمانه، وأمرهم بحملي الى مكان ذكره، وقال: اتركوها فيه وارجعوا، فساروا بي عشرة فراسخ، فلحقنا ابني فضربني بالسيف فجرحني ومنعه القوم. وساروا بي إلى المكان الذي سمّاه لهم صاحبهم، وتركوني وجئت الى ههنا. وعندما قدم الأمير بالقرامطة وبالأسارى، رأيت ابني فيهم، على جمل عليه برانس وهو يبكي. فقلت له: لا خفف الله عنك ولا خلّصك».

ضجّ أهل الشام ومصر، وكتبوا الى أمير المؤمنين المكتفي بما يلقون من القرمطي وأصحابه من القتل والسبي وتخريب البلاد، فأمر الجند بالتأهب، وخرج من بغداد في رمضان، وسار الى الشام، وجعل طريقه على الموصل، ودفع أمامه قوة متقدمة من عشرة آلاف رجل بقيادة ـ أبي الأغر ـ الذي سار بقوته حتى وصل قريباً من حلب، فباغتهم القرمطي صاحب الشامة بهجومه، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وانسحب ابو الأغر ومعه ألف رجل فدخل حلب. فتبعهم القرمطي الى باب حلب، فحاربه أبو الأغر بمن بقي معه وأهل البلد فرجع القرمطي عنهم. وسار المكتفي حتى نزل الرقة وسير الجيوش اليه بقيادة الكاتب محمد بن سليمان. وكان القرمطي صاحب الشامة قد اصطدم بجيش قدم من مصر بقيادة بدر مولى ابن طولون، فانهزم القرمطي. وقتل من أصحابه خلق كثير. ومضى من سلم منهم نحو البادية، فوجّه المكتفي في أثرهم القوات بقيادة الحسين ابن حمدان وغيره من القادة. وفي تلك الفترة ذاتها قاد أمير البحرين ـ ابن بانو ـ قواته وباغت حصناً للقرامطة، فظفر بمن فيه، كما اصطدم بقوة للقرامطة بقيادة أحد أقارب أبي سعيد الجنابي، فانتصر ابن بانو ـ وقتل قائد قوة القرامطة. وسار ابن بانو الى القطيف فافتتحها. هذا فيما كان جند أمير المؤمنين ـ المكتفي ـ بقيادة محمد بن سليمان يطاردون القرمطي صاحب الشامة حتى التقوا به على بعد اثني عشر ميلاً من مدينة ـ حماه ـ. ودارت معركة عنيفة انتهت بهزيمة القرامطة، وقتلوا كل قتلة، وأسر

من رجالهم بشر كثير وتفرّق الباقون في البوادي، وتبعهم جند أمير المؤمنين. فلمّا رأى صاحب الشامة ما نزل بأصحابه، حمل أخاً له يكنى - أبا الفضل - مالاً، وأمره أن يلحق بالبوادي الى أن يظهر بمكان فيسير إليه. وركب هو وابن عمه المسمى - بالمدثر - وصاحبه - المطوق -. وغلام له رومي، وأخذ دليلاً وسار يريد الكوفة عرضاً في البرية، فوصل الى الدالية من نواحي الفرات وقد نفد ما معهم من الزاد والعلف. فوجّه بعض أصحابه الى الدالية لشراء ما يحتاجون إليه، واشتبه أهل الدالية فرفعوا الأمر الى الوالي الذي حقّق في الأمر، وعرف مكان - صاحب الشامة، فسار اليهم واعتقلهم. ووجههم الى المكتفي بالرقة، ورجعت الجيوش من المطاردة بعد أن قتلت من القرامطة وأسرت. وظهر في هذا الصراع اسم - الحسين بن حمدان - الذي كان من أكثر الناس أثراً في الحرب. وكتب - محمد بن سليمان - الى أمير المؤمنين المكتفي، فأثنى على ما أبلاه الحسين بن حمدان، وما فعله - بنوشيبان الذين اصطلوا الحرب وهزموا القرامطة وأكثروا القتل فيهم والأسر حتى لم ينج منهم إلاّ القليل. ووصل القرمطي صاحب الشامة الى الرقة يوم الاثنين لأربع بقين من المحرم سنة ٢٩١ هـ = ٩٠٣ م وقد أركب على فالج - وهو الجمل ذو السنامين. وبين يديه المدثر والمطوّق على جملين. وسار المكتفي الى بغداد ومعه صاحب الشامة وكبار رجال القرامطة وأمر المكتفي بحبس القرامطة، ثم أمر بقطع أيديهم وأرجلهم وضرب أعناقهم.

كان - **زكرويه بن مهرويه** - يتابع التطورات من الكوفة، فلما علم بقتل - صاحب الشامة - أخذ في التحرك بسرعة وكتب إلى أشياعه يثبتهم ويعلمهم أنه مما أوصي إليه أن صاحب الشامة وأخاه يقتلان، وأن إمامه الذي هو حي يظهر بعدهما ويظفر. **ثم أرسل رجلاً كان يعلم الصبيان بالزابوقة - من الفلوجة - يسمى عبد الله بن سعيد ويكنى أبا غانم فسمي نصراً**. فدار على أحياء العرب من كلب وغيرهم يدعوهم إلى رأيه، فلم يقبله منهم أحد، إلا رجلاً من بني زياد - يسمى مقدام بن الكيال - واستغوى طوائف من الاصبغيين المنتمين إلى - الفواطم - وغيرهم من العليصين وصعاليك من سائر بطون كلب. وتوجه بهم نحو الشام، مغتنماً فرصة غياب والي دمشق والأردن - أحمد بن كيغلغ - في مصر. فوصل إلى - **بصرى واذرعات والبثينة** -

فحارب أهلها ثم أمنهم. فلما استسلموا إليه قتل مقاتلهم وسبى ذراريهم وأخذ أموالهم، ثم قصد - دمشق - فخرج إليهم نائب ابن كيغلغ - وهو صالح بن الفضل - فهزمه القرامطة، ومزقوا جنده، ودمروا معسكره وقتلوا صالحاً. وساروا إلى دمشق - فمنعهم أهلها، فتوجهوا إلى - طبرية - وانضم إليهم جماعة من جند دمشق، افتتنوا بهم. فتصدى لهم عامل ابن كيغلغ في الأردن - وهو يوسف بن بغامردي - فهزموه وبذلوا له الأمان وغدروا به وقتلوه ونهبوا طبرية. وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا النساء. فأرسل أمير المؤمنين إلى الحسين بن حمدان وجماعة من قادته، وأمرهم بمطاردة القرامطة. وسار الجند حتى وصلوا دمشق، فلما علم بهم القرامطة، ساروا نحو السماوة. وتبعهم الحسين في السماوة وهم ينتقلون في المياه ويغورونها - يفسدونها ويعملون على ردم آبارها - حتى وصلوا إلى ماءين يعرف أحدهما بالدمعانة والآخر بالحبالة. وانقطع - ابن حمدان - عنهم لعدم وجود المياه، وعاد إلى الرحبة. فسار القرامطة ليلاً بقيادة نصر إلى - هيت - وأهلها غافلون، فنهبوا ربضها، واستولوا على السفن ونهبوا الأموال والمتاع وصادروا ثلاثة آلاف راحلة من الحنطة. وتحصن أهل - هيث - بمدينتهم ودافعوا عنها، فلم يقدر القرامطة على دخولها. وقتلوا من أمكن لهم العثور عليه من أهل هيت - فقتلوا حوالى مائتي رجل -. وعلم أمير المؤمنين المكتفي، فأرسل جيشاً بقيادة - محمد بن اسحق بن كنداج - فانسحب القرامطة ورجعوا إلى الماءين، فسار جند أمير المؤمنين لمطاردتهم، فوجد قائدهم - محمد بن اسحق - أن القرامطة قد غوروا المياه. فأرسل إليهم المكتفي من بغداد الأزواد والدواب، كما كتب إلى - ابن حمدان - بالمسير إليهم من جهة الرحبة، ليجتمع هو ومحمد على حربهم - وأسرع ابن حمدان بجيشه، فلما علم الكلبيون بتقدم الجيش نحوهم، عملوا على قتل نصر - قتله رجل منهم يقال له الذئب بن القائم - وسار برأسه إلى المكتفي متقرباً بذلك مستأمناً، فأجيب إلى ذلك، وأجيز بجائزة سنية، وأمر بعدم التعرض للكلبيين. واقتتلت القرامطة بعد قتل نصر حتى سالت بينهم الدماء، وسارت فرقة منهم كرهت أمورهم إلى - بني أسد بنواحي عين التمر - واعتذروا إلى أمير المؤمنين المكتفي فقبل عذرهم. وبقي على الماءين بقيتهم. فكتب أمير المؤمنين إلى ابن حمدان وأمره بمعاودتهم واجتثاث أصلهم. فأرسل إليهم

- زكرويه بن مهرويه - داعية له - يسمى القاسم بن أحمد ويعرف بأبي محمد - « وأعلمهم أن ما فعله - الذئب - قد نفره منهم، وأنهم ارتدوا عن دين القرامطة، وأن وقت ظهور القرامطة قد آن أوانه، وأنه قد بايع له من أهل الكوفة أربعون ألفاً، وأن يوم موعدهم الذي ذكره الله في شأن موسى ﷺ وعدوه فرعون إذ يقول: ﴿إن موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾ وأمرهم أن يخفوا أمرهم وأن يسيروا إلى الكوفة يوم النحر - عيد الأضحى - سنة ٢٩٣ هـ = ٩٠٥ م. فإنهم لا يمنعون منها، وأنه يظهر لهم، وينجز لهم وعده الذي يعدهم إياه، وأن يحملوا إليه القاسم بن أحمد ». فامتثلوا رأيه، ووصلوا إلى باب الكوفة وقد انصرف الناس من صلاة عيد الأضحى.

فأقاموا معسكرهم، وكانوا زهاء ثمانمائة فارس عليهم الدروع والجواشن والآلات الحسنة، وضربوا قبة على - القاسم بن أحمد - وقالوا: « **هذا أثر رسول الله** ». ودعوا: « **يا لثارات الحسين** » وهم يعنون - الحسين بن مهرويه الذي صلب ببغداد. وجعلوا شعارهم: « **يا أحمد - يا محمد** » وهم يعنون ابني زكرويه المقتولين. ورفعوا الأعلام البيض. وأرادوا استمالة رعاع الناس بالكوفة بما يفعلون، فلم يلتفت إليهم أحد، فقتل القرامطة نحواً من عشرين نفساً من أهل الكوفة ممن أمكن لهم اللحاق به. ودخل مدينة الكوفة مائة فارس من القرامطة. فقتل منهم عشرين نفساً وطردوا منها. وبادر أهل الكوفة إلى حمل السلاح ونهض بهم واليها اسحق بن عمران فحارب القرامطة حتى العصر وهزمهم، فانسحبوا إلى القادسية. وكتب الوالي اسحق إلى أمير المؤمنين يستمده. فأمده بجيش وصل إلى الصوان - قرب القادسية - **وكان - زكرويه بن مهرويه - قد صنع لنفسه ملجأ أعده منذ سنين كثيرة بقرية - الدرية - وكان على الملجأ - الجب - باب حديد محكم العمل، فإذا خاف زكرويه المطاردة، وضع تنوراً هناك على الباب، وقامت امرأة تسجره، فلا يفطن إليه. وكان ربما أخفي في بيت خلف باب الدار التي كان بها ساكناً، فإذا انفتح باب الدار انطبق على باب البيت، فيدخل الداخل الدار فلا يرى شيئاً**. فلما علم القرامطة بقدوم جيش أمير المؤمنين - استخرجوا زكرويه من الملجأ - الجب -. وحملوه على أيديهم وسموه « ولي الله » ولما رأوه - سجدوا له، وحضر معه جماعة من دعاته وخاصته

« وأعلمهم أن ـ القاسم بن أحمد ـ هو من أعظم الناس عليهم ذمة ومنة لأنه ردهم إلى الدين بعد ارتدادهم عنه. وأنهم إن امتثلوا أوامره أنجز موعدهم وبلغوا آمالهم، ورمز لهم رموزاً ذكر فيها آيات من القرآن نقلها عن الوجه الذي أنزلت فيه. فاعترف له من رسخ الكفر في قلبه أنه رئيسهم وكهفهم، وأيقنوا بالنصر وبلوغ الأمل». وسار بهم ـ زكرويه ـ وهو محجوب عنهم، يدعونه ـ السيد ـ ولا يبرزونه، والقاسم هو الذي يتولى الأمور. وأعلمهم أن أهل السواد قاطبة خارجون إليه، فأقام ـ بسقي الفرات ـ عدة أيام، فلم يصل إليه منهم إلا خمسمائة رجل، ثم وصلت إليه قوات أمير المؤمنين، فلقيهم ـ زكرويه ـ بالصوان، وقاتلهم، واشتدت الحرب بينهم، وكانت الهزيمة أول النهار على القرامطة، وكان ـ زكرويه ـ قد نصب لهم كميناً من خلفهم، فلم يشعر جند أمير المؤمنين إلا والسيف فيهم من ورائهم؛ فانهزموا أقبح هزيمة، ووضع القرامطة السيف فيهم، فقتلوهم كيف شاؤوا، وغنموا متاعهم، ولم يسلم من جند أمير المؤمنين إلا من تمكن من الهرب أو من أثخن بالجراح فوضع نفسه بين القتلى فتحاملوا بعد ذلك. واستولى القرامطة على أكثر من ثلاثمائة جازة عليها المال والسلاح وخمسمائة بغل. وقتل من جند أمير المؤمنين ألف وخمسمائة رجل ـ سوى الغلمان ـ وقوي القرامطة بما غنموا. ولما ورد خبر هذه الوقعة إلى بغداد، أعظمها الخليفة والناس ـ وندب قائده ـ محمد بن اسحق بن كنداج ـ لحرب القرامطة. وضم إليه من الأعراب ـ بني شيبان ـ وغيرهم أكثر من ألفي رجل، وأعطاهم الأرزاق. ورحل زكرويه من مكانه إلى نهر المثنية هرباً من نتن القتلى.

ما إن وصل ـ زكرويه ـ إلى المثنية حتى وصلته الأنباء عن داعية القرامطة باليمن والذي وصل إلى صنعاء، فحاربه أهلها، فانتصر عليهم وقتلهم فلم ينج منهم إلا القليل. وأنه تغلب على سائر مدن اليمن، ثم اجتمع أهل صنعاء وغيرها على حرب القرامطة فهزموهم، وأرغموهم على اللجوء إلى موضع من نواحي اليمن.

قرر ـ زكرويه ـ الهجوم على قوافل الحجاج ونهبها، فغادر وقواته نهر المثنية ووصل إلى ـ السلمان ـ وأقام ينتظرهم. ووصلت القافلة الأولى من الحجاج في اليوم السابع من المحرم إلى واقصة ـ فأنذر أهلها الحجاج، وأخبروهم بقرب القرامطة. فارتحلوا

لساعتهم، وسار الترامطة إلى ـ واقصة ـ فسألوا أهلها عن الحجاج، فأعلموهم أنهم ساروا؛ فاتهمهم زكرويه وقتل العلافة وأحرق العلف. وتحصن أهل ـ واقصة ـ في حصنهم، فحصرهم أياماً ثم ارتحل عنهم نحو ـ زبالة ـ وأغار في طريقه على جماعة من بني أسد، ووصل جند أمير المؤمنين المكلفين بحماية الحجاج. فبلغهم مسير ـ زكرويه ـ من السلمان، فاقتاد قائد الجند ـ علان ابن كشمرد ـ قوة من الفرسان الخفيفة، وسار بها من ـ عيون الطف ـ إلى ـ واقصة ـ وكانت القافلة الأولى قد تجاوزتها. ولقي ـ زكرويه القرمطي ـ قافلة من حجاج خراسان عند ـ عقبة الشيطان ـ عند رجوعهم من مكة، فحاربهم حرباً قاسية، فلما رأى شدة حربهم، سألهم: «هل فيكم نائب أمير المؤمنين؟» فقالوا: «ما معنا أحد». فقال لهم: «لست أريدكم». فاطمأنوا، وساروا، فلما ساروا غدر بهم وباغتهم بهجومه، وقتلهم عن آخرهم، ولم ينج إلا الشريد، وسبوا من النساء ما أرادوا، وقتلوا منهن. ولقي بعض المنهزمين ـ علان بن كشمرد ـ فأخبروه خبرهم. وقالوا له: «ما بينك وبينهم إلا القليل، ولو رأوك لقويت نفوسهم، فالله الله فيهم». فقال علان: «لا أعرض جند أمير المؤمنين للقتل». ورجع هو وأصحابه. وكتب من نجا من هذه القافلة الثانية إلى رؤساء القافلة الثالثة من الحجاج، وأعلموهم ما جرى من القرامطة، وأمروهم بالحذر وتجنب السير على الطريق الرئيسي الذي يصل إلى ـ واسط والبصرة ـ أو الرجوع إلى ـ فيد والمدينة ـ إلى أن تصل جيوش أمير المؤمنين. فلم يسمعوا ولم يقيموا. وسارت القرامطة من العقبة بعد مهاجمة الحجاج، وردموا الآبار والبرك بالجيف والتراب والحجارة في كل من ـ واقصة والثعلبية والعقبة ـ وسواها من المناهل في جميع طريقهم. وأقام بالهبير ينتظر القافلة الثالثة، فساروا فصادفوه هناك، فقاتلهم ـ زكرويه ـ ثلاثة أيام ـ وهم على غير ماء ـ فاستسلموا لشدة العطش، فوضع فيهم السيف، وقتلهم عن آخرهم، وجمع القتلى كالتل. وأرسل خلف المنهزمين من يبذل لهم الأمان، فلما رجعوا قتلهم. وكان في القتلى مبارك القمي وولده أبو العشائر بن حمدان. **وكان نساء القرامطة يطفن بالماء بين القتلى يعرضن عليهم الماء، فمن كلمهن قتلنه، وبلغت عدة القتلى عشرين ألفاً، ولم ينج إلا من كان بين القتلى فلم يفطن له، فنجا بعد ذلك، أو من هرب عند**

اشتغال القرامطة بالقتل والنهب. فكان من مات من هؤلاء أكثر ممن سلم ومن استعبدوه. وكان مبلغ ما أخذوه من هذه القافلة ألفي ألف دينار، وكان في جملة ما أخذوا فيها أموال الطولونية وأنشابهم. ذلك أنه لما عزم الطولونيون على الانتقال من مصر إلى بغداد خافوا أن يستصحبوها فتؤخذ منهم. فعملوا الذهب والنقرة سبائك وجعلوها في حدائج الجمال وجميع مالهم من الحلي والجوهر. وسيروا الجميع إلى مكة سراً. وسار من مكة في هذه القافلة، فأخذها القرامطة. ونشر ـ زكرويه ـ الطلائع خوفاً من جند أمير المؤمنين الذين كانوا بالقادسية وأقام ينتظر وصول من كان في الحج من جند أمير المؤمنين الذين توقفوا ـ بفيد ـ وهم ينتظرون ما سيفعله القرامطة. فلما علموا بما فعله القرامطة، انتظروا وصول جند أمير المؤمنين ومعهم التجار وأرباب الأموال. فسار إليهم القرامطة بقيادة ـ زكرويه ـ إلى ـ فيد ـ. وعملوا أثناء سيرهم على ردم الآبار وتدمير المصانع وتغوير المياه وافسادها. وعلم أهل فيد ومن بها من الحجاج بتحرك القرامطة نحوهم، فتحصنوا بالحصنين اللذين بفيد. ووصل القرامطة وحاصروهم، وأرسل ـ زكرويه ـ إلى أهل فيد وأمرهم بإخراج الحجاج وتسليم الحصنين له مقابل منحهم الأمان. ولكنهم لم يستجيبوا لطلبه، فتهددهم بالنهب والقتل، فازداد امتناعهم. فأقام على حصارهم أياماً، ثم انصرف عنهم إلى جعفر أبي موسى.

عظم على أمير المؤمنين خاصة، وعلى كافة المسلمين عامة، ما فعله القرامطة بالحجاج، فجهز أمير المؤمنين المكتفي الجيوش وسيرها لقتال القرامطة بقيادة ـ وصيف ابن صوارتكين ـ. واختار وصيف السير على طريق ـ خفان ـ ولم يلبث أن اصطدم بقوات القرامطة بقيادة ـ زكرويه ـ فاقتتلوا يومهم، ثم حجز الليل بينهم، وباتوا يتحارسون. ثم بكروا إلى القتال، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل من القرامطة عدد كبير، **ووصل جند أمير المؤمنين إلى عدو الله زكرويه، فضربه بعض الجند وهو هارب بالسيف على رأسه فبلغت الضربة دماغه، وأخذه أسيراً، وأخذ خليفته وجماعة من خواصه وأقربائه وفيهم ابنه وكاتبه وزوجته، واحتوى الجند على ما في معسكر القرامطة، وعاش زكرويه خمسة أيام ومات، فسيرت جيفته والأسرى إلى بغداد. وانهزم جماعة من أصحابه إلى الشام فأوقع بهم الحسين بن حمدان،**

فقتلوهم جميعاً، وأخذوا جماعة من النساء والصبيان وحمل رأس زكرويه إلى خراسان لئلا ينقطع الحجاج. وأخذ الأعراب رجلين من أصحاب ـ زكرويه ـ يعرف أحدهما بالحداد، والآخر بالمنتقم ـ وهو أخو امرأة زكرويه ـ كانا قد سارا إليهم يدعوانهم إلى الخروج معهم، فلما أخذوهما سيروهما إلى بغداد، وتتبع أمير المؤمنين القرامطة بالعراق، فقتل بعضهم وحبس بعضهم، ومات بعضهم بالحبس.

كان مقتل ـ زكرويه ـ سنة ٢٩٥ هـ = ٩٠٧ م. بمثابة الضربة القاضية لحركة القرامطة. وخيل للناس أنهم استراحوا من شرهم. ومات أمير المؤمنين المكتفي بالسنة التالية (*) . ومضت سنوات لم يمارس خلالها القرامطة أي نشاط ظاهر، وفي سنة ٢٩٩ هـ = ٩١١ م. جاء نفر من القرامطة من أصحاب أبي سعيد الجنابي إلى باب البصرة ـ وقت صلاة يوم الجمعة، وجاء الانذار بوصول القرامطة، فخرج إليهم الموكلون بحفظ باب البصرة، فرأوا رجلين منهم، فقتل القرامطة رجلاً من أهل البصرة، وعاد الباقون، وأسرع والي البصرة ـ محمد بن اسحق بن كنداجيق ـ في جمع كبير لمطاردة القرامطة، فلم ير منهم أحداً، فسير في أثرهم جماعة، فأدركوهم وكانوا نحو ثلاثين رجلاً، فقاتلوهم، فقتل بينهم جماعة. وعاد ابن كنداجيق، وأغلق أبواب البصرة ظناً منه أن أولئك القرامطة كانوا مقدمة لأصحابهم، وكتب إلى الوزير ببغداد، يعرفه وصول القرامطة ويستمده. فلما أصبح ولم ير للقرامطة أثراً، ندم على ما فعل، وسير إليه من بغداد جنداً مع بعض القادة.

(*) المكتفي بالله، أبو محمد علي بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق بن المتوكل (٢٦٤-٢٩٥ هـ = ٨٧٧-٩٠٧ م) وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوماً. وكان يضرب المثل بحسنه في زمانه، ومن حين تولى الخلافة ضعف أمرها، يحكى أنه صلى بالناس يوم عيد النحر، كان بين يديه ألوية الملوك، وترجل الملوك والامراء بين يديه ـ ما خلا وزيره القاسم بن عبيد الله، فانه ركب وسايره دون الناس. فكان هذا أول وهن وقع في حق الخلفاء. وخلفه المقتدر بالله ـ أبو الفضل جعفر بن المعتضد.

أ ـ القرامطة يميدون تنظيم أمورهم.

اكتملت نكبة القرامطة بقتل كبيرهم ـ أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي ـ (*) والذي كان قد استولى على هجر والاحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين. وكان أمير المؤمنين المقتدر قد كتب إلى أبي سعيد كتاباً ليناً في ما عنده من أسرى المسلمين، ويناظره، ويقيم الدليل على فساد مذهبه، وأرسله مع الرسل، فلما وصلوا إلى البصرة بلغهم خبر موته، فأعلموا الخليفة بذلك، فأمرهم بالمسير إلىٰ ولده، فأتوا **أبا طاهر**، فأكرم الرسل، وأطلق الأسرى وأنفذهم إلى بغداد، وأجاب عن الكتاب (سنة ٣٠١ هـ = ٩١٣ م). وأمضى أبو طاهر سليمان عشر سنوات في إعادة تنظيم قواته، وإعادة نشر شبكاته، لم يمارس خلالها أي نشاط ظاهري. حتى إذا ما كانت سنة ٣١١ هـ = ٩٢٣ م. قاد أبو طاهر قواته المكونة من ألف وسبعمائة رجل، ووصل إلى ـ **البصرة** ـ ليلاً، فوضع السلاليم الشعر على السور، وصعد القرامطة على السور، وفتحوا الباب، وقتلوا الموكلين به. ولم يشعر أمير البصرة ـ سبك المفلحي ـ بالهجوم إلا في السحر، ولم يعرف أنهم القرامطة. وظن أنهم عرب تجمعوا، فركب إليهم، ولقيهم، فقتلوه، ووضعوا السيف في أهل البصرة، وهرب الناس إلى الكلأ. وحاربوا القرامطة عشرة أيام، فظفر بهم القرامطة، وقتلوا خلقاً كثيراً، وطرح الناس أنفسهم في الماء فغرق أكثرهم. وأقام أبو طاهر سبعة عشر يوماً، يحمل من البصرة ما يقدر على حمله من المال والأمتعة والنساء والصبيان، ثم عاد إلى بلده. واستعمل أمير المؤمنين المقتدر على البصرة ـ محمد بن عبد الله الفارقي ـ فانحدر إليها وقد انسحب القرامطة منها. فلما كانت السنة التالية (٣١٢ هـ = ٩٢٤ م) قاد أبو طاهر سليمان جيشاً كبيراً،

(*) كان أصله كيالاً، فهرب واستغوى خلقاً من القرامطة والاعراب، وشغل المعتضد عنه الموت فاستفحل أمره، ووقع له مع عساكر المكتفي وقائع وأمور مما سبق ذكره. وقتله خادم له صقلبي في الحمام. أراده على الفاحشة، فخنقه الخادم. فلما قتله استدعى رجلاً من أكابر قادة القرامطة، وقال له: السيد يستدعيك، فلما دخل قتله، ففعل ذلك بأربعة نفر من رؤسائهم. واستدعى الخامس، فلما دخل فطن لذلك وأمسك بيد الخادم، وصاح، فدخل الناس وصاح النساء، وجرى بينهم وبين الخادم مناظرات ثم قتلوه. وكان أبو سعيد قد عهد إلى ابنه سعيد وهو الاكبر، فعجز عن الأمر، فغلبه أخوه الأصغر أبو طاهر سليمان.

وسار به إلى ـ الهبير ـ لمهاجمة قوافل الحجاج عند رجوعهم من مكة. فوقع على قافلة تقدمت معظم الحجيج، وكان فيها خلق كثير من أهل بغداد وغيرهم، فنهبهم، واتصل الخبر بباقي الحجاج وهم ـ بفيد ـ فأقاموا بها حتى فني زادهم، فارتحلوا مسرعين. وكان ـ أبو الهيجاء بن حمدان ـ قد أشار عليهم بالعود إلى وادي القرى وعدم الاقامة ـ بفيد ـ فاستطالوا الطريق ولم يقبلوا منه. فلما فني زادهم سار بهم أبو الهيجاء على طريق الكوفة. فهاجمهم القرامطة وأخذوهم، وأسروا أبا الهيجاء وأحمد بن كشمرد ونحرير، وأحمد بن بدر عم والدة المقتدر، واستولى القرامطة على جمال الحجاج جميعها، وما أرادوا من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان. وعاد إلى ـ هجر ـ. وترك الحجاج في موضعهم، فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً من حر الشمس. ثم عمل ـ أبو طاهر ـ على اطلاق سراح الأسرى ـ وفيهم ابن حمدان وغيره ـ وأرسل إلى المقتدر يطلب تعيينه والياً ـ أميراً ـ على البصرة والأهواز، فلم يجبه المقتدر إلى ما طلب، ورفض منحه الامارة.

رد ـ أبو طاهر القرمطي ـ على ذلك، فقاد جيشه، وغادر ـ هجر ـ وهو يريد مهاجمة قافلة للحجاج. وكان ـ جعفر بن ورقاء الشيباني ـ متقلداً أعمال الكوفة وطريق مكة. فلما خرجت قافلة الحجاج من بغداد، سار ـ جعفر ـ على مقدمتها. ومعه ألف رجل من بني شيبان. كما رافق قافلة الحجاج عدد من قادة أمير المؤمنين ـ منهم ثمال صاحب البحر وجني الصفواني وطريف السبكري ـ ومعهم ستة آلاف رجل. فلقي أبو طاهر القرمطي قوات جعفر الشيباني، فقاتله جعفر، فبينما هو يقاتله إذ طلع جمع من القرامطة عن يمينه، فانهزم من بين أيديهم. فلقي قافلة الحجاج الأولى وقد انحدرت من العقبة، فردهم إلى الكوفة ومعهم جند أمير المؤمنين، وتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة، فقاتلهم، فانهزم جند أمير المؤمنين، وقتل منهم، وأسر جنياً الصفواني، وهرب الباقون والحجاج من الكوفة، **ودخل أبو طاهر الكوفة**، وأقام ستة أيام بظاهر الكوفة. يدخل البلد نهاراً فيقيم في الجامع إلى الليل، ثم يخرج يبيت في معسكره، وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال والثياب وغير ذلك، وعاد إلى هجر. ودخل المنهزمون بغداد. فأمر المقتدر أحد قادته ـ مؤنس المظفر ـ بالخروج إلى الكوفة. فسار

إليها ووصلها وقد عاد القرامطة عنها. فاستخلف عليها ـ ياقوتاً ـ وسار مؤنس إلى ـ واسط ـ خوفاً عليها من أبي طاهر والقرامطة، وخاف أهل بغداد، وانتقل الناس إلى الجانب الشرقي. ولم يحج في هذه السنة من الناس أحد. ثم عاد ـ أبو طاهر القرمطي ـ سنة **٣١٣ هـ = ٩٢٥ م** فاعترض قافلة للحجاج ـ عند زبالة ـ فقاتل جند أمير المؤمنين قوات القرامطة فانتصر القرامطة، وفرضوا على الحجاج قطيعة ـ مبلغاً معيناً من المال ـ فأخذوا المال، وكفوا عنهم، وسار الحجاج إلى مكة.

أصدر أمير المؤمنين المقتدر أمره إلى ـ يوسف بن أبي الساج ـ بالمسير من ـ أذربيجان ـ إلى واسط لمحاربة أبي طاهر القرمطي. وجعل له أموال الخراج بنواحي همذان وساوه وقم وقاشان وماه البصرة وماه الكوفة وماسبذان ليستعين بها على محاربة القرامطة

وصلت المعلومات إلى أمير المؤمنين ـ المقتدر ـ عن مسير أبي طاهر القرمطي من هجر إلى الكوفة، ثم وردت معلومات من البصرة بأن أبا طاهر والقرامطة قد مروا قريباً من الكوفة. فكتب المقتدر إلى يوسف بن أبي الساج، وأعلمه بما توافر له من المعلومات، وأمره بالتحرك سريعاً إلى الكوفة، فسار ابن أبي الساج من واسط في منتصف شهر رمضان (**٣١٥ هـ ـ ٩٢٧ م**). ولكن أبا طاهر والقرامطة وصلوا إلى الكوفة قبل يوم واحد من وصول يوسف بن أبي الساج وجنده، فهرب منها نواب أمير المؤمنين واستولى عليها أبو طاهر، وأخذ القرامطة ما كان قد خزن في الكوفة من المواد التموينية والأغذية والعلوفة لجيش أمير المؤمنين ـ ومنها مائة كر دقيقاً وألف كر شعيراً. فتقوى بها القرامطة بعد أن كان قد نفد ما معهم من الطعام والمؤونة. فلما وصل جند أمير المؤمنين بقيادة يوسف، منعهم القرامطة من دخول الكوفة، فأرسل يوسف بن أبي الساج إلى القرامطة، ودعاهم إلى طاعة المقتدر وأنذرهم بالحرب بعد يومين إن هم أبوا الخضوع، فردوا عليه: **« لا طاعة علينا إلا لله تعالى، والموعد بيننا للحرب غداً »**.

وجاء الغد، وابتدأ أوباش الجند بالشتم ورمي الحجارة، ورأى يوسف قلة القرامطة، فاحتقرهم وقال: **« سيقع هؤلاء الكلاب في قبضتي بعد ساعة »**. وأعد كتاب الفتح والبشارة بالظفر قبل المعركة لإرساله إلى أمير المؤمنين، تهاوناً بالقرامطة واستصغاراً لشأنهم. ثم زحف الناس بعضهم إلى بعض، فسمع أبو طاهر القرمطي أصوات البوقات

والزعقات، فقال لصاحب له: «ما هذا؟». فأجابه صاحبه: «فشل» فعقب أبو طاهر: «أجل» ولم يزد على هذا. فاقتتلوا من ضحوة النهار إلى غروب الشمس، وصبر الفريقان، ولما رأى أبو طاهر القرمطي شدة القتال، نزل فخاض المعركة ومعه جماعة ممن يثق بهم، وهاجم بهم - فطحن جند أمير المؤمنين ومزقهم فانهزموا بين يديه - وأسر يوسف وعدداً كثيراً من أصحابه، وكان أسره وقت المغرب، وحملوه إلى عسكرهم وضربت له خيمة وفرش. ووكل به أبو طاهر طبيباً يعالج جراحه - وورد الخبر إلى بغداد بذلك، فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفاً شديداً، وعزموا على الهرب إلى حلوان وهمذان، ودخل المنهزمون إلى بغداد مشاة حفاة عراة، فقرر - مؤنس المظفر - السير بجيشه إلى الكوفة، فجاءته المعلومات بأن القرامطة قد ساروا يريدون - عين التمر - فوجه من بغداد خمسمائة سفينة فيها الجند لمنع القرامطة من عبور نهر الفرات. ووجه فرقة من الجند إلى الأنبار لحمايتها والدفاع عنها ومنع القرامطة من العبور هنالك. ثم إن القرامطة ساروا إلى الأنبار، فعمل أهلها على قطع الجسر، فنزل القرامطة غرب الفرات. وأرسل أبو طاهر القرمطي قوة من جنده إلى - الحديثة - فأتوه بالسفن التي قامت بنقل ثلاثمائة رجل من القرامطة إلى شرقي النهر. فقاتلوا جند أمير المؤمنين، وهزموهم، وقتلوا منهم جماعة. واستولى القرامطة على مدينة الأنبار، وعقدوا الجسر، وعبر أبو طاهر وقوة من الفرسان الخفيفة إلى الجهة الشرقية، وترك الكتلة الرئيسة من قواته على أرض الجانب الغربي من الفرات.

وصلت المعلومات إلى بغداد بعبور أبي طاهر والقرامطة واستيلائهم على الأنبار، فخرج - نصر الحاجب - بجيش جرار؛ حتى وصل إلى معسكر - مؤنس المظفر - الذي بات يضم نيفاً وأربعين ألف مقاتل - سوى الغلمان ومن يريد النهب -. وكان ممن معه أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان ومن إخوته أبو الوليد وأبو السرايا في أصحابهم. وساروا حتى بلغوا نهر - زبارا - على فرسخين من بغداد - عند عقرقوف - فأشار أبو الهيجاء بن حمدان بقطع القنطرة التي عليه فقطعوها. وسار أبو طاهر القرمطي ومن معه نحوهم، فوصلوا إلى نهر - زبارا - وفي مقدمتهم رجل أسود يقال له - صبح -. فما زال الأسود يقترب من النهر، والنشاب تنهال عليه حتى أشرف على القنطرة فرآها مقطوعة.

فعاد وهو مثل القنفذ. وأراد القرامطة العبور فلم يتمكنوا من ذلك لعدم وجود مخاضة في النهر، ولما أشرفوا على معسكر جند أمير المؤمنين، هرب منهم خلق كثير إلى بغداد، من غير أن يقع أي اشتباك، فلما رأى ابن حمدان ذلك، قال لمؤنس: **« كيف رأيت ما أشرت به عليكم، فوالله لو عبر القرامطة النهر لانهزم كل من معك، ولأخذوا بغداد »**. ولما رأى القرامطة ذلك عادوا إلى ـ الأنبار ـ.

وجه مؤنس المظفر قوة من ستة آلاف مقاتل بقيادة القائد ـ يلبق ـ لقتال القرامطة في غربي الفرات، وتحرير ـ ابن أبي الساج ـ وسواه من أسرى المسلمين، وكان أبو طاهر القرمطي قد ركب زورق صياد وأعطاه ألف دينار لينقله من شرقي الفرات إلى غربيه، فلما وصل قويت قلوب أصحابه القرامطة، وانطلقوا لقتال مؤنس المظفر، فدارت رحى معركة طاحنة، انتهت بانتصار القرامطة وهزيمة جند أمير المؤمنين. ورأى أبو طاهر أن ابن أبي الساج قد خرج من خيمته التي كان معتقلاً فيها، ينظر ويرجو الخلاص وقد ناداه أصحابه: « أبشر بالفرج ». فلما انهزموا ـ أحضره وقال له: « أردت الهرب، وطمعت أن يخلصك غلمانك »، وأمر به فضربت عنقه بحضرته، وضرب أعناق جماعة كانوا بالأسر. وشاع خبر انتصار القرامطة فأصاب الهلع قلوب أهل بغداد، فاستأجر كثير منهم سفناً ونقلوا إليها أموالهم وربطوها لينحدروا بها إلى واسط، ومنهم من نقل متاعه إلى حلوان ليسيروا إلى خراسان. **وكان عدة القرامطة ألف وخمسمائة رجل، منهم سبعمائة فارس وثمانمائة راجل ـ مشاة ـ. وقيل كانوا ألفين وسبعمائة. ولما علم المقتدر بعدة عسكر القرامطة وعدة عسكره قال: « لعن الله نيفاً وثمانين ألفاً يعجزون عن ألفين وسبعمائة »**.

توجه القرامطة بعد ذلك إلى مدينة ـ هيت ـ. وكان المقتدر قد سير إليها سعيد بن حمدان وهارون بن غريب، فلما وصلها القرامطة وجدوا أن جند أمير المؤمنين قد سبقوهم إليها، فقاتلوهم على السور، وقتل من القرامطة جماعة كثيرة، فعادوا عنها. ولما بلغ أهل بغداد عودهم عن ـ هيت ـ سكنت قلوبهم. وجاء إنسان الى وزير أمير المؤمنين المقتدر ـ وكان الوزير يومها علي بن عيسى ـ وأخبره أن في جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة، وأنه يكاتب أبا طاهر بالأخبار، فأحضره وسأله،

فاعترف أنه قرمطي، وقال: «ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندي أنه على الحق وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم، ولا بد لله من حجة في أرضه، وإمامنا هو المهدي محمد بن فلان بن فلان بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب. ولسنا كالرافضة والاثني عشرية الذين يقولون بجهلهم: إن لهم إماماً ينتظرونه، ويكذب بعضهم على بعض فيقول: قد رأيته وسمعته وهو يقرأ. ولا ينكرون بجهلهم وغباوتهم أنه لا يجوز أن يعطى من العمر ما يظنونه». فقال له الوزير: «لقد خالطت عسكرنا وعرفتهم، فمن فيهم على مذهبك؟» فأجاب القرمطي: «وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة، كيف تطمع مني أنني أسلم قوماً مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم؟ لا أفعل ذلك». فأمر به، فضرب ضرباً شديداً ومنع الطعام والشراب حتى مات بعد ثلاثة أيام.

لما سار القرامطة من الأنبار، عاد مؤنس الخادم إلى بغداد فدخلها ثالث المحرم سنة ٣١٦ هـ = ٩٢٨ م. وسار القرامطة بقيادة أبي طاهر الى ـ الدالية ـ من طريق الفرات. فلم يجدوا فيها شيئاً، فقتلوا من أهلها جماعة. ثم سار إلى الرحبة فدخلها ثامن المحرم، بعد أن حاربه أهلها، فوضع فيهم السيف بعد أن ظفر بهم. فسار ـ مؤنس المظفر بجيشه إلى الرقة، وجعل طريقه على الموصل، فوصلها ونزل بها. وأرسل أهل ـ قرقيساء إلى أبي طاهر يطلبون منه الأمان، فأمنهم وأمرهم أن لا يظهر أحد منهم بالنهار، فأجابوه إلى ذلك. ووجه أبو طاهر سرية من القرامطة إلى الاعراب بالجزيرة. فنهبوهم وأخذوا أموالهم واستاقوا خمسة آلاف جمل ومواشي كثيرة، فخافه الأعراب خوفاً شديداً وهربوا من بين يديه. وفرض عليهم إتاوة قدرها دينار على كل رأس يحملونها إليه في ـ هجر ـ. ثم سار أبو طاهر وقرامطته من الرحبة الى الرقة، فدخل القرامطة الربض وقتلوا من أهل الرقة ثلاثين رجلاً. وأعان أهل الرقة أهل الربض، وقتلوا من القرامطة جماعة فقاتلوهم ثلاثة أيام أشد قتال، واشتد أهل الربض في حربهم، ورموا القرامطة من أعالي دورهم بالماء والتراب والآجر، وقذفوهم بسهام مسمومة فمات منهم نحو مائة رجل، وانصرفوا عنها مفلولين. وأرسل أبو طاهر سرية من القرامطة الى رأس عين وكفرتوثا، فطلب أهلها الأمان فأمنوهم. وساروا أيضاً إلى ـ سنجار ـ

فنهبوا الجبال، ونازلوا سنجار، فطلب أهلها الأمان، فأمنوهم. وعاد القرامطة الى الرحبة. ووصل - مؤنس - الى الرقة بعد انصراف القرامطة عنها. ثم إن القرامطة ساروا إلى - هيت - وقد أحكم أهلها سور مدينتهم. فقاتلوهم، فعاد القرامطة إلى الكوفة. وعلم أمير المؤمنين بما حدث، فوجه جيشاً من بغداد بقيادة هارون بن غريب وبني بن نفيس ونصر الحاجب. ووصل فرسان القرامطة الى قصر ابن هبيرة، فقتلوا منه جماعة ثم إن - نصراً الحاجب - أصيب بالحمى واشتدت عليه وطأة المرض، فتجلد وسار حتى اقترب من جند القرامطة وليست به قوة للنهوض وخوض المعركة. فاستخلف أحمد بن كيغلغ. وأرسل نصراً الحاجب الى بغداد فمات في الطريق، فجعل مكانه على الجيش - هارون بن غريب - وانصرف القرامطة إلى البرية، وعاد هارون إلى بغداد، فدخلها وجيشه.

كان من نتيجة الانتصارات التي حققها القرامطة، وما نشروه من الذعر، أن اشتد أمر أنصارهم في السواد. واجتمع من كان يعتقد مذهب القرامطة فيكتم اعتقاده خوفاً، وأظهروا اعتقادهم، واجتمع منهم بسواد واسط أكثر من عشرة آلاف رجل، وولوا أمرهم رجلاً يعرف باسم - حريث بن مسعود - واجتمعت طائفة أخرى - بعين التمر -، ونواحيها في جمع كثير، وولوا أمرهم إنساناً يسمى - عيسى بن موسى - وكانوا يدعون الى المهدي الذي ظهر ببلاد المغرب - جد الفاطميين -. وسار عيسى إلى الكوفة ونزل بظاهرها، وجبى الخراج، وصرف العمال عن السواد. وسار - حريث بن مسعود - إلى أعمال الموفقي. وبنى بها داراً أسماها - دار الهجرة - واستولى على تلك الناحية، فكانوا ينهبون ويسبون ويقتلون. وكان يتقلد الحرب بواسط - بني بن نفيس - فقاتلهم فهزموه، فأرسل أمير المؤمنين المقتدر بالله، قوة لقتال - حريث بن مسعود - ووجه قوة أخرى لقتال - عيسى بن موسى - وانتصر جند أمير المؤمنين على القرامطة، وأسروا منهم عدداً كبيراً، وقتلوا أكثر مما أسروا. وأخذت أعلامهم، وكانت بيضاء وقد كتب عليها: **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم الوارثين﴾**. فأدخلت الأعلام الى بغداد منكوسة، واضمحل أمر من بالسواد من القرامطة، وكفى الله الناس شرهم.

ب ـ ماذا حدث في مكة المكرمة؟

أقبل موسم الحج من سنة ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م. وسارت قوافل الحجاج من بغداد ـ وعليها منصور الديلمي ـ ووصلت إلى مكة المكرمة بسلام؛ وأدى الحجاج مناسك الحج؛ فلما كان يوم التروية ـ وهو من أشرف الأيام ـ بوغت الحجاج بانقضاض القرامطة عليهم، فنهبوا أموالهم، واستباحوا قتالهم في رحاب مكة وشعابها، وحتى في المسجد الحرام وفي جوف الكعبة ـ فيما كان رئيسهم أبو طاهر ـ قد اتخذ له مجلساً عند باب الكعبة وهو يرقب ما يجري حوله، والرجال تصرع، والسيوف تعمل في الناس. وتفجر حقده على المسلمين المؤمنين حجاج بيت الله الحرام(*). وكان الناس يفرون منهم فيتعلقون بأستار الكعبة، فلا يغني عنهم ذلك شيئاً، فيقتلهم القرامطة وهم على ذلك، وتابع يوم الطواف، فلحقتهم سيوف القرامطة وأفنتهم(**). ودخل رجل من القرامطة إلى دائرة الطواف وهو راكب على فرسه، وفي حالة السكر، فبال فرسه عند البيت، ثم ضرب الحجر الأسود بدبوس ـ مخل ـ فكسره ثم اقتلعه، وألحد هذا اللعين في المسجد الحرام إلحاداً لم يسبقه إليه أحد ولا يلحقه فيه أحد [1]. وأرسل القرامطة الحجر الأسود إلى مدينتهم وقاعدتهم ـ هجر ـ. وخرج أمير مكة يومها ـ ابن محارب ـ ومعه جماعة من الأشراف، فسألوا صاحب القرامطة أموالهم. فلم يقبل فقاتلوه، فقتلهم أجمعين. وأمر صاحب القرامطة ـ أبو طاهر ـ بقلع باب البيت الحرام، فقلع، وأصعد رجلاً ليقلع الميزاب، فسقط الرجل ومات. وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام حيث قتلوا، بغير كفن ولا غسل ولا صلى أحد على أحد منهم. وجرد

(*) قال القرمطي أبو طاهر ـ وقد تناثرت أشلاء الحجاج المسلمين حوله:

أنـــا لله وبـــالله أنـــا ... يخلـــق الخلـــق وأفنيهـــم أنـــا

(**) كان بعض أهل الحديث يومئذ يطوف، فلما قضى طوافه أخذته السيوف، فقال وهو يلفظ أنفاسه:

تـرى المحبين صرعـى في ديـارهـم ... كفتيـة الكهـف لا يـدرون كم لبثـوا

(١) قال القرمطي لما اقتلع الحجر الأسود شعراً يدل على عظيم زندقته. وكان مما قاله:

فلـو كـان هـذا البيـت لله ربنـا ... لصب علينـا النـار مـن فـوقنـا صبا

لأنـا حججنـا حجـة جـاهليـة ... محللـة لم تبـق شرقـاً ولا غـربـاً

وأنـا تـركنـا بين زمـزم والصفـا ... جبـابـر لا تبقـى سـوى ربها ربـا

الكعبة من كسوتها فقسمها بين أصحابه، وأخذ جميع ما كان فيها من آثار الخلفاء التي زينوا بها الكعبة، وذهبوا ـ بدرة اليتيم ـ وكانت تزن فيما ذكر أهل مكة أربعة عشر مثقالاً، وبقرطي مارية، وقرن كبش ابـراهيم، وعصـا مـوسى، ملبسين بـالـذهـب، مرصعين بالجوهر، وطبق ومكبة من ذهب، وسبعة عشر قنديلاً كانت بها فضة، وثلاثة محاريب فضة كانت دون القامة، منصوبة في صدر البيت. ثم انصرف القرامطة لنهب دور مكة. وأقام القرمطي أبو طاهر بمكة أحد عشر يوماً. ثم انسحب وقرامطته وعادوا إلى ـ هجر ـ.

علم المهدي أبو محمد عبيد الله العلوي الذي كان قد استولى على الحكم في مصر وافريقية، بما فعله القرامطة، فكتب الى صاحب القرامطة أبي طاهر، وأنكر عليه فعلته ولامه ولعنه وأقام عليه القيامة، وكان مما قاله له: «لقد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والالحاد بما فعلت. وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم، وترد الحجر الأسود إلى مكانه، وترد كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة» فلما وصله هذا الكتاب أجاب: «إن الناس قد اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج، ولا أقدر على منعهم».

مضت خمس سنوات، لم يمارس القرامطة خلالها نشاطاً كبيراً، فقد أمكن لهم الحصول على أموال ضخمة؛ وكان أنصارهم في البلاد يثيرون الرعب ويحصلون على الاتاوات من مختلف البلاد. وفي سنة ٣٢٢ هـ = ٩٣٤ م. عمل حاجب أمير المؤمنين ـ محمد بن ياقوت ـ على ارسال رسول إلى أبي طاهر القرمطي دعاه الى طاعة الخليفة ليقره على ما بيده من البلاد، ويقلده بعد ذلك ما شاء من البلدان ويحسن إليه، والتمس منه عدم التعرض للحجاج. وأن يعيد الحجر الأسود إلى مكة. فأجاب أبو طاهر إلى أنه لن يتعرض للحجاج ولن يصيبهم منه مكروه. ولم يجب على رد الحجر الأسود إلى مكة. وطلب أن ترسل له المواد التموينية من البصرة ليخطب للخليفة في أعمال ـ نواحي ـ هجر. فسار الحجاج إلى مكة وعادوا ولم يعترض لهم أحد من

القرامطة. وبدأ أمر القرامطة بالانحلال، وبدأ القرامطة بالتفسخ والتمزق. وانصرف بعضهم لقتال بعض. وكان من ذلك ما حدث سنة ٣٢٦ هـ = ٩٣٨ م بخاصة، حيث عمل أحد كبار القرامطة ـ واسمه ابن سنبر وهو من خواص أبي سعيد القرمطي والمطلعين على سره ـ على التآمر مع رجل من أصبهان لقتل رجل من خصومه من كبار القرامطة اسمه ـ أبو حفص الشريك ـ وذلك مقابل قيام ابن سنبر بدعم الاصبهاني ليحل محل أبي طاهر في زعامة القرامطة. وحضر الاصبهاني، فخضع له القرامطة وأطاعوه ودانوا له حتى انه كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله، وكان إذا كره رجلاً يقول عنه: «انه مريض» وذلك يعني أنه قد شك في دينه، فيكون ذلك أمراً بقتله. وعلم أبو طاهر أن الاصبهاني يعد العدة لقتله، فأسرع بنصب شرك له وقتله وذلك بعد أن تمكن من قتل خلق كثير من عظماء القرامطة وشجعانهم وكان هذا سبب إقامة أبي طاهر وإخوته في ـ هجر ـ وعدم مغادرتهم لها، وقعودهم عن غزو البلاد والإفساد فيها.

ولم يطل الأمد كثيراً، فقد أصيب أبو طاهر ـ بالجدري ـ وطال عذابه، وتقطعت أوصاله وأطرافه، وتناثر الدود من لحمه حتى جاءته سكرة الموت بالحق سنة ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ م وكان له ثلاثة إخوة، إلا أن أحداً منهم لم يكن لديه خبث أبي طاهر أو قدرته. **وبقي الحجر الأسود لدى الإخوة القرامطة حتى ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م حيث عمل القرامطة على إعادة الحجر الأسود إلى ـ مكة المكرمة ـ.** وكان القائد بجكم ـ قد بذل لهم في رده خمسين ألف دينار فلم يجيبوه. فردوه في هذه السنة ـ وقالوا: «أخذناه بأمر وأعدناه بأمر». فكانت مدة احتفاظ القرامطة بالحجر اثنتين وعشرين سنة.

★ ★ ★

أدى تمزق القرامطة إلى توزعهم بين مراكز القوى. وكان البويهيون قد نشروا هيمنتهم على أقطار المشرق، فيما كان العلويون ـ الفاطميون قد سيطروا على مصر والمغرب ـ وبقيت بلاد الشام، والسيطرة عليها، هي مجال الاحتكاك بين آل بويه والفاطميين. وحدث في سنة ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م. أن وجه معز الدولة أبو الحسين

أحمد بن بويه قوة من جيشه إلى ـ عُمان ـ فخضع نافع الاسود للبويهيين، وخطب لمعز الدولة، وضرب له اسمه على الدينار والدرهم. فلما رجعت قوة البويهيين ثار أهل عمان، فأخرجوا نافع الأسود، وأدخلوا القرامطة الهجريين اليهم وتسلموا البلد، فكانوا يقيمون فيه نهاراً، ويخرجون ليلاً إلى معسكرهم. وكتبوا إلى أصحابهم بهجر؛ يعرفونهم الخبر، ويطلبون توجيهاتهم فيما يفعلون. ثم أرسل القرامطة سرية إلى عُمان والشراة فتجمع كثير من الرجال في شعاب الجبال، فأوقعوا بالقرامطة وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وعاد الباقون. وكان هناك رجل من كبار القرامطة قد استأمن لسيف الدولة الحمداني، فوثق به وكلفه بحماية السواحل. فلما تمكن مروان القرمطي، فرض سيطرته على مدينة حمص وغيرها وأعلن تمرده. فوجه إليه سيف الدولة قوة بقيادة ـ بدر ـ وأمكن له قتل مروان، والقضاء على تمرده.

اضطربت الأوضاع في عُمان، فوجه المعز البويهي في السنة التالية (٣٥٥ هـ = ٩٦٥ م) جيشاً أمكن له السيطرة عليها، وقتل من أهلها مقتلة عظيمة.

اتجهت الأحداث على جبهة الشام في غير مصلحة القرامطة أيضاً. ففي سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م مات ـ كافور الأخشيدي ـ وانتقل الحكم الى المعز لدين الله أبي تميم محمد بن اسماعيل العلوي، فأمر بتوجيه جيش من مصر بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي لاحتلال بلاد الشام وانتزاعها من قبضة البويهيين. فسار جعفر بجيشه الى الرملة، وهناك اصطدم بجيش بقيادة أبي محمد الحسن بن عبدالله بن طغج ـ فقاتله، وجرت بينهما حروب كان الظفر فيها لجعفر بن فلاح وجيشه؛ وأسر ابن طغج فأرسل الى المعز في مصر ـ ودخل جعفر بن فلاح مدينة الرملة عنوة، فقتل كثيراً من أهلها، ثم أمن من بقي وجبى الخراج. وسار الى طبرية فرأى أن حاكمها ـ ابن ملهم ـ قد أقام الدعوة للمعزلدين الله، فسار عنها إلى دمشق، فقاتله أهلها فظفر بهم، ودخل دمشق ونهب منها ثم كف عن الباقي. وأقام الخطبة للمعز يوم الجمعة لأيام خلت من المحرم (سنة ٣٥٩ هـ = ٩٦٩ م). وقطعت الخطبة العباسية.

عندما علم القرامطة باستيلاء جعفر بن فلاح على دمشق ـ أهمهم الأمر

وأزعجهم، ذلك لأنهم كانوا قد اتفقوا مع أميرها السابق ابن طغج على أن يحمل إليهم كل سنة ثلاثمائة ألف دينار . فلما ملكها جعفر علموا أن المال يفوتهم، فعزموا على قصد الشام بقيادة أميرهم الحسن بن أحمد بن بهرام القرمطي؛ الذي أرسل الى عز الدولة بختيار ـ البويهي ـ طلباً لدعمه بالمال والسلاح . فأرسل اليه بختيار ما طلبه . وعلم جعفر بن فلاح بمسيرهم إليه ولكنه استهان بهم، ولم يتخذ تدابير الحيطة. فلم يشعر بهم حتى باغتوه بهجومهم في ظاهر دمشق وقتلوه وأخذوا ماله وسلاحه ودوابه. وملكوا دمشق وأمنوا أهلها. وجلس صاحب القرامطة الحسن بن أحمد بن بهرام القرمطي وبكى رفيقه في التشيع جعفر بن فلاح. وندب الأيام التي أوقعت بين أبناء المذهب الواحد ـ الفاطمي والقرمطي ـ.

سار القرامطة بعد ذلك بقيادة صاحبهم الى الرملة، واستولوا على جميع البلاد ما بين دمشق والرملة. فلما سمع من بها من المغاربة خبرهم ساروا الى يافا فتحصنوا بها. واستولى القرامطة على الرملة. وساروا إلى مصر وتركوا قوة لحصار يافا. فلما وصلوا إلى مصر انضم إليهم جمع كبير من العرب والجند والأخشيدية والكافورية، فاجتمعوا بعين شمس وجمع جوهر الصقلي جيشه وخرج لقتالهم. فاقتتلوا غير مرة والظفر في جميع تلك الأيام للقرامطة، وحصروا المغاربة حصراً شديداً. ثم إن المغاربة خرجوا في بعض الأيام من مصر، وحملوا على ميمنة القرامطة، فانهزم من بها من العرب وغيرهم، وقصدوا معسكر القرامطة فنهبوه. واضطر القرامطة للانسحاب والعودة إلى الشام، فنزلوا الرملة، ثم حصروا يافا حصاراً شديداً وضيقوا على من بها. فسير جوهر الصقلي نجدة من مصر الى الحامية المصرية المدافعة عن يافا والتي ضمت خمسة عشر مركباً من المواد التموينية. فأرسل القرامطة مراكبهم إليها واستولوا عليها ـ ولم ينج منها غير مركبين فغنمها الروم(*).

(*) أشاع المغاربة أن القرامطة قد خافوا فانسحبوا من مصر. فقال الحسين بن بهرام مقدم القرامطة شعراً في المغاربة أصحاب المعز لدين الله منه.

زعمت رجال الغرب أني هبتها ... فدمي إذاً ما بينهم مطلول

يا مصر إن لم أسق أرضك من دم ... يروي ثراك فلا سقاني النيل

تأخر رد فعل حاكم مصر ـ المعز لدين الله ـ حتى سنة ٣٦٣ هـ = ٩٧٣ م. فأمر بتعيين القائد ـ ظالم بن موهوب العقيلي ـ حاكماً على دمشق. كما وجه قوة أخرى لمطاردة القرامطة بقيادة القائد أبي محمود ـ وسار ظالم ـ الى دمشق، فدخلها وعظم حاله وكثرت جموعه وأمواله وعدته. واعتقل أبا المنجا وابنه ـ صاحبي القرمطي الحسين بن بهرام ـ ومعهما جماعة من القرامطة وحبسهم وأخذ أموالهم وجميع ما يملكونه. وكان ممن تم حبسهم قرمطي يعرف باسم النابلسي ـ كان قد ذكر: «بأنه لو كان معي عشرة أسهم لرميت تسعة في المغاربة وواحداً في الروم» فأمر به وسلخ جلده وحشي تبناً وصلب.

لم يستقر حكم المعز لدين الله العلوي في دمشق، فقد جاء الفتكين التركي ـ مولى معز الدولة بن بويه ـ وانتزع حمص ودمشق وصيدا وعكا وطبرية وسواها. وقطع ذكر المعز لدين الله العلوي، وخطب للخليفة العباسي الطائع لله. فأسرع المعز لارسال جيش من مصر بقيادة جوهر الصقلي. **ووصل جوهر وجيشه الى دمشق (سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م) وألقى الحصار عليها. وقاتل ـ الفتكين ـ وأهل دمشق قتالاً ضارياً أذهل جوهراً، ودامت الحرب شهرين قتل فيها عدد كبير من الطائفتين. فلما رأى أهل دمشق طول مقام المغاربة، أشاروا على ـ الفتكين ـ بالكتابة الى الحسين بن بهرام القرمطي، واستنجاده. فسار القرمطي إليه من الاحساء. فلما قرب منه رحل جوهر عن دمشق خوفاً من أن يبقى بين عدوين ـ أهل دمشق في مواجهته والقرامطة من خلفه ـ وانسحب جوهر بعد حصار لدمشق دام سبعة أشهر.**

انضم القرمطي وقواته الى قوات ـ الفتكين ـ وساروا جميعاً في أثر جوهر، فأدركوه وقد نزل بظاهر الرملة، وسير أثقاله إلى عسقلان. فاقتتلوا، فكان جمع الفتكين والقرمطي متفوقاً بما ضمه من رجال الشام والعرب وغيرهم؛ فكانوا خمسين ألف فارس وراجل، فنزلوا على نهر الطواحين ـ على ثلاثة فراسخ من الرملة ـ وقطعوا ماء النهر عن البلد، فاحتاج جوهر ومن معه إلى ماء المطر في الصهاريج ـ وهو قليل لا يكفيهم ـ فرحل إلى عسقلان، وتبعه الفتكين والقرمطي، فحصراه بها، وطال الحصار، وقلت

المواد التموينية في معسكر جوهر، وعدمت الأقوات، وكان الزمن شتاء، مما أرغم جند جوهر على أكل الميتة. وكان جوهر يراسل ـ الفتكين ـ ويدعوه الى الاتفاق والتفاهم، والطاعة، مقابل تقديم وعود كثيرة واغراءات وفيرة، فكان الفتكين يرغب في مثل ذلك، إلا أن القرمطي كان يمنعه من القبول ويخوفه من الاتفاق مع جوهر. وعندما زادت الشدة على جوهر ومن معه حتى وصل الأمر إلى حد الهلاك، كتب إلى ـ الفتكين ـ وطلب الاجتماع به، والتقيا راكبين، فقال له جوهر: **«قد عرفت ما يجمعنا من عصمة الاسلام وحرمة الدين، وقد طالت هذه الفتنة، وأريقت فيها الدماء ونهبت الأموال، ونحن المؤاخذون بها عند الله تعالى. وقد دعوتك إلى الصلح والطاعة والموافقة، وبذلت لك الرغائب، فأبيت إلا القبول ممن يشب نار الفتنة، فراقب الله تعالى، وراجع نفسك، وغلب رأيك على هوى غيرك» فرد عليه الفتكين: «أنا والله واثق بك في صحة الرأي والمشورة منك، لكنني غير متمكن مما تدعوني إليه بسبب القرمطي الذي أحوجتني أنت إلى مداراته والقبول منه»**. فقال جوهر: «إذا كان الأمر على ما ذكرت، فإنني أصدقك الحال تعويلاً على أمانتك، وما أجده من الفتوة عندك. لقد ضاق الأمر بنا، وأريد أن تمن علي بنفسي وبمن معي من المسلمين. وأعود إلى صاحبي شاكراً لك، وتكون قد جمعت بين حقن الدماء واصطناع المعروف». فأجابه إلى ذلك، وحلف له على الوفاء به. وعاد الفتكين واجتمع بالقرمطي، وأعلمه بما تم الاتفاق عليه. فقال له القرمطي: «لقد أخطأت، فان جوهراً له رأي وحزم ومكيدة، وسيرجع إلى صاحبه، فيحمله على قصدنا بما لا طاقة لنا به ـ والصواب أن ترجع عن ذلك ليموتوا جوعاً، ونأخذهم بالسيف». فامتنع الفتكين عن الأخذ برأيه. وقال للقرمطي: «لا أغدر به» وأذن لجوهر ولمن معه بالمسير إلى مصر.

ما إن وصل جوهر إلى مصر، حتى اجتمع بالعزيز بالله ـ إذ كان المعز لدين الله قد توفي في تلك الفترة ـ وشرح له ما حدث معه، وقال له: «إن كنت تريدهم فاخرج إليهم بنفسك وإلا فانهم واصلون على إثري». فخرج العزيز وجمع الرجال، وفرق الأموال وسار نحو بلاد الشام، وجوهر على مقدمته. فلما علم ـ الفتكين ـ والقرمطي

عادا بقواتهما إلى الرملة، وجمعا العرب وغيرهم، وحشدا ما أمكن لهما جمعه. ووصل العزيز فنزل بظاهر الرملة فنزلا بالقرب منه، ثم اصطفوا للحرب (في المحرم سنة ٣٦٧ هـ = ٩٧٧ م) فرأى العزيز من شجاعة الفتكين ما أعجبه، فأرسل إليه في تلك الحال يدعوه إلى طاعته، ويبذل له الرغائب والولايات، وأن يجعله مقدم عسكره، والمرجوع إليه في دولته، وطلب إليه أن يحضر عنده ويسمع قوله. فترجل الفتكين، وقبل الأرض بين الصفين، وقال للرسول: «قل لأمير المؤمنين لو قدم هذا القول - قبل الآن - لسارعت وقبلت، وأما الآن فلا يمكن إلا ما ترى». وحمل على الميسرة فهزمها وقتل كثيراً منها. فلما رأى العزيز ذلك، نظم هجوماً عاماً - بقوات القلب والميمنة - فانهزم القرمطي والفتكين ومن معهما، ووضع المغاربة السيف، فاكثروا القتل حتى بلغت عدة من قتل عشرين ألفاً، ونزل العزيز في خيامه، وجاءه جنده بالأسرى، فكافأ كل من جاءه بأسير - وخلع عليه -. وبذل لمن أتاه بالقائد - الفتكين - أسيراً مائة ألف دينار، وكان الفتكين قد مضى منهزماً، ونال منه العطش، فلقيه - المفرج بن دغفل الطائي - وكانت بينهما صداقة قديمة، فطلب منه - الفتكين - ماء، فسقاه وأخذه معه إلى بيته، فأنزله وأكرمه، وسار إلى العزيز بالله فأعلمه بأسر - الفتكين - وطلب منه المال، فأعطاه ما ضمنه، وسير معه من تسلم - الفتكين - منه. فلما وصل الفتكين إلى العزيز، لم يشك أنه سيقتله بوقته، فرأى من اكرام العزيز له والاحسان إليه ما أعجزه عن النطق. وأمر له بالخيام، فنصبت، وأعاد إليه جميع من كان يخدمه، فلم يفقد من حاله شيئاً. وحمل إليه من التحف والأموال ما لم ير مثله، وأخذه معه إلى مصر. وجعله من أخص رجاله وحجابه. **وأما الحسين القرمطي - فانه وصل منهزماً إلى طبرية فأدركه رسول العزيز يدعوه إلى العود إليه ليحسن إليه ويفعل معه أكثر مما فعل مع الفتكين، فلم يرجع، فأرسل إليه العزيز عشرين ألف دينار، وجعلها له كل سنة، فكان يرسلها إليه. وعاد إلى الاحساء.** ولما عاد العزيز إلى مصر، أنزل الفتكين عند قصره، وزاد أمره وتحكم فتكبر على وزيره - يعقوب بن كلس - وترك الركوب إليه، فصارت بينهما عداوة متأكدة، فوضع عليه من سقاه سماً فمات. وحزن عليه العزيز، واتهم الوزير فحبسه نيفاً وأربعين يوماً، وأخذ منه خمسمائة ألف دينار، ثم

رضي عنه وخلع عليه وأعاده إلى وزارته.

لم يعد للقرامطة على ما هو راضح القدرة لفرض وجودهم على الآخرين، أو على بقية مراكز القوى في الدولة العباسية، إلا أنه بقي لهم قدر كاف من القدرة للحصول على الأموال. وكان ارتباطهم المعنوي بالدولة الفاطمية - حيث تجمع حجة التشيع بينهما - هو ضمان مادي لاستمرار وجودهم. إلا أنهم كانوا على استعداد لتأجير سيوفهم لكل راغب أو كل ذي حاجة. من ذلك ما حدث سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م. عندما تولى صاحب القرامطة - أبو بكر محمد بن علي بن شاهويه قوة من ألف رجل، وسار بهم إلى الكوفة وأقام الخطبة بها لعضد الدولة - البويهي - وأسقط خطبة عز الدولة بختيار. كما أن ما سبق ذكره عن تحالف الحسين القرمطي مع أهل دمشق وأميرها - الفتكين - هو نموذج أو مثال آخر للتحالف - السياسي بلغة العصر - والذي لم تكن للعقائدية فيه أي دور أساسي.

فقد القرامطة دعماً كبيراً بموت مقدمها وصاحبها - الحسين ويقال أيضاً الحسن بن أحمد القرمطي (سنة ٣٦٦ هـ)(*). فلم يظهر للقرامطة نشاط يذكر حتى سنة

(*) الحسين - أو الحسن - بن أحمد بن أبي سعيد بن بهرام الجنابي - أبو طاهر القرمطي المعروف بالأعصم أو بالأعظم - ولد بالاحساء (٢٧٨ - ٣٦٦ هـ = ٨٩١ - ٩٧٦ م) كان يلبس الثياب القصيرة - أصله فارسي - والجنابي نسبة إلى جنابة - بلدة صغيرة من سواحل فارس - والقرمطي - في اللغة تقارب الشيء بعضه من بعض، ويقال خط مقرمط، ومشي مقرمط إذا كان شديد التقارب بعضه من بعض، وكاب أبو سعيد قصيراً، مجتمع الخلق، أسمر كريه المنظر، ولذلك قيل له قرمطي، ونسبت إليه القرامطة. وكان الحسين شاعراً - كتب إلى جعفر بن فلاح - الذي كان حاكماً على دمشق - قبل وقوع الحرب بينهما:

الكتب معذرة والرسل مخبرة	والحق متبع والخير محمود
والحرب ساكنة والخيل صافنة	والسلم مبتذل والظل ممدود
فان أنبتم فمقبول إنابتكم	وإن أبيتم فهذا الكور مشدود
على ظهور المنايا أو يردن فنا	دمشق والباب مسدود ومردود
إني امرؤ ليس من شأني ولا أربي	طبل يرن ولا ناي ولا عود
ولا اعتكاف على خمر ومجمرة	وذات دل لها غنج وتفنيد
ولا أبيت بطين البطن من شبع	ولي رفيق خميص البطن مجهود

٣٧٥ هـ = ٩٨٥ م. عندما قام اثنان من الستة القرامطة الملقبين ـ بالسادة ـ وهما اسحق وجعفر الهجريان، فقادا جموعاً كبيرة من القرامطة، وتوجها الى الكوفة، وأقاما الخطبة لشرف الدولة أبي الفوارس ـ ابن عضد الدولة البويهي ـ فانزعج الناس لذلك لما في النفوس من هيبة القرامطة وبأسهم. وكان لهم من الهيبة ما إن عضد الدولة وبختيار أقطعاهم الكثير. وكان نائبهم ببغداد ـ المعروف باسم أبي بكر بن شاهويه ـ يتحكم تحكم الوزراء مما دفع صمصام الدولة أبو كاليجار البويهي ـ وهوأخو شرف الدولة ـ على اعتقاله. فقام القرمطيان بمحاولتهما للسيطرة على الكوفة، وجمعا الخراج، وجبيا المال، فأرسل صمصام الدولة جيشاً حارب القرامطة وهزمهم. فعادوا ووجهوا جيشاً آخر في عدد كثير وعدة فاضلة. ولكن الدائرة دارت على القرامطة، وقتل مقدمهم وغيره وأسر جماعة، ونهب سوادهم. وتبعهم جند صمصام الدولة الى القادسية فلم يلحقوا بهم ـ وزال من حينئذ وجودهم. فلما كانت سنة ٣٧٨ هـ = ٩٨٨ م. قام رجل من بني المنفتق يعرف بالاصفر ـ فجمع جمعاً كبيراً، واجتاح ديارهم في الاحساء والقطيف، ولم يبق للقرامطة ذكر.

= ولا تساءت بي الدنيا إلى طمع ... يوماً ولا غرني فيها المواعيد

ومن شعره أيضاً:

إني وقومي في أحساب قومهم ... كمسجد الخيف في بحبوحة الخيف

ما علق السيف منا يا ابن عاشرة ... إلا وهجمتُهُ أمضى من السيف



دولة القرامطة ٢٧٨ — ٣٧٨




٧ - الدولة العلوية الفاطمية

لا - الدعوة الفاطمية

ا - بناء الدولة والصراع مع مصر

ب - المعز لدين الله في مصر والشام

جـ - المعهد الجديد

د - ضعف من بعد قوة



لا ـ الدعوة الفاطمية .

لم تتمكن كل الحركات التي انتحلت التشيع لآل البيت من إقامة دولة، وحتى القرامطة الذين نجحوا في فرض وجودهم؛ وإقامة قاعدة ثابتة لهم في ـ هجر ـ لم يقيموا تنظيم دولة شيعية. فكانوا حركة ـ أو ثورة بالمفهوم الحديث ـ تضم مجموعات من العصابات والمنظمات المنتشرة في عدد من المدن والارياف، هدفها النهب والسلب وإيذاء العرب المسلمين خاصة والمسلمين عامة. وقد تمخضت هذه الحركات في نهاية الأمر عن دولة عرفت باسم ـ الفاطميين أو العلويين ـ. ولقد أثارت نسبة الحركة إلى الفاطميين أو العلويين جدلاً كبيراً في التاريخ فهناك من أيد صحة نسبها ودافع عنها، وهناك من أدانها باعتبارها حركة هدامة فكان ممن دافع عنها من الشيعة ـ الشريف الرضي (*) والمرتضى وأخوه الرضي وابن البطحاوي وابن الأزرق وابن الاكفاني وابن الخرزي وأبو العباس الابيوردي وأبو حامد والكشفلي والقدوري والصيمري وأبو الفضل النسوي وأبو جعفر النسفي وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة. وزعم القائلون بصحة نسبه أن الذين كتبوا، إنما كتبوا خوفاً وتقية وانه لا علم لهم بالاحساب.

لقد ذكر في هذه الحركة أن مؤسسها هو: محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وهناك من ينسب هذا النسب فيجعله (**عبد الله بن ميمون القداح ـ الذي ينسب**

(*) كان والد الشريف الرضي من رجال الدولة العباسية. ولكن ابنه كان من المتشيعين. فكان من شعر الشريف الرضي:

ما مقامي على الهوان وعندي	مقول صارم وأنف حمي
ألبس الذل في بلاد الأعادي	وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولا	ي إذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيد النـ	ـاس جميعاً محمد وعلي
إن ذلي بذلك الجد عز	وأوامي بذلك الربع ري

إلى القداحية) . وقيل هو : « عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل الثاني محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب » رضي الله عنهم.

قال القاضي عبد الجبار البصري : « اسم جد الخلفاء المصريين سعيد ، ويلقب بالمهدي ، **وكان أبوه يهودياً حداداً بمدينة سلمية ـ ثم زعم سعيد هذا أنه ابن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح**. وأهل الدعوة أبو القاسم الأبيض العلوي وغيره يزعمون أن سعيداً إنما هو من امرأة الحسين المذكور ـ وأن الحسين رباه وعلمه اسرار الدعوة. وزوجته هي بنت أبي الشلغلغ ، فجاءه ابن فسماه عبد الرحمن ، فلما دخل المغرب وأخذ سجلماسة تسمى بعبيد الله ، ثم تكنى بأبي محمد ، وسمى ابنه الحسن. وزعمت المغاربة أنه يتيم رباه وليس بابنه ولا بابن زوجته. وكناه أبا القاسم. وجعله ولي عهده ـ انتهى ». وقال القاضي أبو بكر الباقلاني :

« القداح جد عبيد الله كان مجوسياً ، ودخل عبيد الله المغرب وادعى أنه علوي ، ولم يعرفه أحد من علماء النسب ، وكان باطنياً خبيثاً حريصاً على إزالة ملة الإسلام. أعدم الفقه والعلم ليتمكن من إغراء الخلق. وجاء أولاده فساروا على نهجه ، وأباحوا الخمر والفروج ، وأشاعوا الرفض ، وبثوا دعاة فأفسدوا عقائد أهل جبال بلاد الشام ـ مثل النصيرية بالتصغير ـ والدرزية ـ وهي طائفة من الاسماعيلية تقول بإثبات الامامة لاسماعيل بن جعفر الصادق لأنه ابنه الأكبر. وكان القداح كاذباً محترفاً. وهو أصل دعاة القرامطة ».

وقال ابن خلكان : « اختلف في نسبهم ، فقال صاحب تاريخ القيروان : هو عبيد الله ابن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ». وقال غيره : « هو علي بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وقيل : هو عبيد الله بن التقي بن الوفي بن الرضي ـ وهؤلاء الثلاثة يقال لهم المستورون في ذات الله. والرضي المذكور هو ابن محمد بن اسماعيل بن جعفر. واسم التقي الحسين ، واسم الوفي أحمد ، واسم الرضي عبد الله. وإنما استتروا خوفاً على أنفسهم لأنهم كانوا

مطلوبين من جهة الخلفاء من بني العباس، لأنهم علموا أن فيهم من يروم الخلافة أسوة بغيرهم من العلويين، وقضاياهم ووقائعهم في ذلك مشهورة، وانما تسمى المهدي ـ عبيد الله ـ استتاراً. هذا عند من يصحح نسبه، وأما الذي ينكر نسبه فيقول: **إن اسمه سعيد، ولقبه عبيد الله، وزوج أمه الحسين بن أحمد القداح ـ كان كحالاً يقدح العين إذا نزل فيها ماء»**. وقال ابن خلكان: «جاء المعز من افريقية إلى مصر ـ فلما قرب منها وخرج الناس للقائه، اجتمع به جماعة من الأشراف، **فقال له من بينهم الشريف عبد الله بن طباطبا: إلى من ينتسب مولانا؟ فقال له المعز: سنعقد مجلساً ونسرد عليكم نسبنا. فلما استقر المعز بالقصر، جمع الناس في مجلس عام وجلس لهم وقال: هل بقي من رؤوسكم أحد؟. فقالوا: لم يبق معتبر. فسلّ عند ذلك نصف سيفه، وقال: هذا نسبي. ونثر عليهم ذهباً كثيراً، وقال: هذا حسبي. فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا. وفي نسب المعز أقوال كثيرة أخرى، أضربت عن ذكرها خوف الاطالة. والظاهر أنه ليس بشريف وأنه مدّعٍ. والله أعلم»**.

زعم الأمير عبد العزيز، صاحب تاريخ افريقية والمغرب، أن نسبه معروف في اليهودية، ونقل فيه عن جماعة من العلماء، وقد استقصى ذكر ابتداء دولتهم وبالغ، وأحسن فيما ذكر وقال: «لما بعث الله تعالى سيد الأولين والآخرين محمداً ﷺ، عظم ذلك على اليهود والنصارى والروم والفرس وقريش وسائر العرب. لأنه سفه أحلامهم، وعاب أديانهم وآلهتهم، وفرق جمعهم، فاجتمعوا يداً واحدة عليه. فكفاه الله كيدهم، ونصره عليهم، فأسلم منهم من هداه الله تعالى. فلما قبض ﷺ، نجم النفاق وارتدت العرب، وظنوا أن الصحابة يضعفون بعده، فجاهد أبو بكر رضي الله عنه، فقتل مسيلمة ورد الردة وأذل الكفر ووطأ جزيرة العرب، وغزا فارس والروم. فلما حضرته الوفاة ظنوا أن بوفاته ينتقض الإسلام، فاستخلف عمر بن الخطاب، **فأذل فارس** والروم وغلب على ممالكها، فدس عليه المنافقون أبا لؤلؤة فقتله ظناً أن بقتله ينطفىء نور الإسلام، فولي بعده عثمان، فزاد في الفتوح، واتسعت ممالك الإسلام. فلما قتل وولي بعده أمير المؤمنين علي، قام بالأمر أحسن قيام. **فلما يئس أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة، أخذوا في وضع الأحاديث الكاذبة، وتشكيك ضعفة العقول**

في دينهم بأمور قد ضبطها المحدثون وأفسدوا الصحيح بالتأويل والطعن عليه. فكان أول من فعل ذلك أبو الخطاب محمد بن أبي زينب مولى بني أسد، وأبو شاكر ميمون بن ديصان صاحب كتاب ـ الميزان في نصرة الزندقة ـ. وغيرهما، فألقوا إلى من وثقوا به: **أن لكل شيء من العبادات باطناً، وأن الله تعالى لم يوجب على أوليائه ومن عرف من الأئمة والأبواب صلاة ولا زكاة ولا غير ذلك، ولا حرم عليهم شيئاً. وأباحوا لهم نكاح الأمهات والأخوات، وإنما هذه قيود للعامة ساقطة عن الخاصة. وكانوا يظهرون التشيع لآل النبي ﷺ، ليستروا أمرهم، ويستميلوا العامة، وتفرق أصحابهم في البلاد، وأظهروا الزهد والعبادة يغرون الناس بذلك وهم على خلافه.** فقتل أبو الخطاب وجماعة من أصحابه بالكوفة. وكان أصحابه قالوا له: إنا نخاف الجند. فقال لهم: إن أسلحتهم لا تعمل فيكم، فلما ابتدؤوا في ضرب أعناقهم، قال له أصحابه: ألم تقل إن سيوفهم لا تعمل فينا؟ فقال: إذا كان قد أراد الله فما حيلتي؟ وتفرقت هذه الطائفة في البلاد، **وتعلموا الشعبذة والنارنجيات والزور والنجوم والكيميا، فهم يحتالون على كل قوم بما ينفق عليهم وعلى العامة بإظهار الزهد.** ونشأ لابن ديصان ابن يقال له: عبد الله القداح، علمه الحيل، وأطلعه على أسرار هذه النحلة فحذق وتقدم، **وكان بنواحي كرخ وأصبهان رجل يعرف بمحمد بن الحسين ويلقب بدندان، يتولى تلك المواضع وله نيابة عظيمة، وكان يبغض العرب ويجمع مساويهم، فسار إليه القداح وعرفه من ذلك ما زاد به محله، وأشار عليه أن لا يظهر ما في نفسه، إنما يكتمه ويظهر التشيع والطعن على الصحابة، فإن الطعن فيهم طعن في الشريعة، فإن بطريقهم وصلت إلى من بعدهم.** فاستحسن عبدالله القداح قوله، وأعطاه مالاً عظيماً ينفقه على الدعاة إلى هذا المذهب، فسيره إلى نواحي الأهواز والبصرة والكوفة والطالقان وخراسان وسلمية من أرض حمص. وفرقه في دعاته. وتوفي القداح ودندان ـ وإنما لقب القداح لأنه كان يعالج العيون ويقدحها. فلما توفي القداح قام بعده ابنه أحمد مقامه، وصحبه انسان يقال له: رستم بن الحسين بن حوشب بن دادان النجار من أهل الكوفة، فكانا يقصدان المشاهد ـ قبور الصحابة والأولياء ـ وكان باليمن رجل اسمه

ـ محمد بن الفضل ـ كثير المال والعشيرة من أهل الجند، يتشيع، فجاء إلى مشهد الحسين ابن علي يزوره، فرآه ـ أحمد ورستم ـ يبكي كثيراً، فلما خرج اجتمع به أحمد وطمع فيه لما رأى من بكائه، وألقى إليه مذهبه، فقبله. وسير معه النجار إلى اليمن **وأمره بلزوم العبادة والزهد ودعاء الناس إلى المهدي، وأنه خارج في هذا الزمان باليمن**ـ فسار النجار إلى اليمن ونزل بمدينة ـ عدن ـ على مقربة قوم من الشيعة يعرفون ـ **ببني موسى** ـ وأخذ في بيع ما معه. وأتاه بنو موسى وقالوا له: فيم جئت؟ فقال: للتجارة.. فقالوا له: أنت لست بتاجر، وإنما أنت رسول المهدي. وقد بلغنا خبرك. ونحن بنو موسى، ولعلك قد سمعت بنا، فانبسط ولا تحتشم فإنا اخوانك. فأظهر أمره، وقوى عزائمهم، وقرب أمر المهدي، وأمرهم بالاستكثار من الخيل والسلاح، وأخبرهم أن هذا أوان ظهور المهدي، ومن عندهم يظهر. واتصلت أخباره بالشيعة الذين بالعراق، فساروا إليه، فكثر جمعهم، وعظم بأسهم، وأغاروا على من جاورهم، وسبوا وجبوا الأموال. وأرسل إلى من بالكوفة من ولد عبد الله القداح هدايا عظيمة، **وكانوا قد أرسلوا إلى المغرب رجلين؛ أحدهما يعرف بالحلواني، والآخر يعرف بأبي سفيان، وقالوا لهما: إن المغرب أرض بور، فاذهبا فاحرثا حتى يجيء صاحب البذر. فسارا فنزل أحدهما بارض كتامة ببلد يسمى ـ مرمجنة ـ ونزل الآخر ـ بسوق حمار** ـ فمالت قلوب أهل تلك النواحي إليهما، وحملوا إليهما الأموال والتحف. فأقاما سنين كثيرة، وماتا، وكان أحدهما قريب الوفاة من الآخر. وكان أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي من أهل صنعاء، قد سار إلى ابن حوشب النجار، وصحبه بعدن، وصار من كبار أصحابه، وكان له علم وفهم ودهاء ومكر. **فلما وصل خبر وفاة الحلواني وأبي سفيان إلى ابن حوشب، قال لأبي عبد الله الشيعي: إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان، وقد ماتا، وليس لها غيرك، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك**. فخرج أبو عبد الله إلى مكة، وأعطاه ابن حوشب مالاً، وسير معه عبد الله بن أبي ملاحف، فلما قدم أبو عبد الله مكة، سأل عن حجاج كتامة، فأرشد إليهم، فاجتمع بهم ولم يعرفهم قصده، وجلس قريباً منهم، فسمعهم يتحدثون بفضائل أهل البيت، فأظهر استحسان ذلك،

وحدثهم بما لم يعلموه، فلما أراد القيام؛ سألوه أن يأذن لهم في زيارته والانبساط معه، فأذن لهم في ذلك، فسألوه: أين مقصدك؟ فقال: أريد مصر. ففرحوا بصحبته. وكان من رؤساء الكتاميين بمكة رجل اسمه - حريص الجميلي - وآخر اسمه - موسى بن مكاد - فرحلوا وهو لا يخبرهم بغرضه، وأظهر لهم العبادة والزهد، فازدادوا فيه رغبة وخدموه، وكان يسألهم عن بلادهم وأحوالهم وقبائلهم، وعن طاعتهم لسلطان افريقية، فقالوا: ماله علينا طاعة، وبيننا وبينه عشرة أيام. فسألهم: وهل تحملون السلاح؟ فأجابوه: هو شغلنا. ولم يزل يتعرف على أحوالهم حتى وصلوا إلى مصر، فلما أراد وداعهم، قالوا له: أي شيء تطلب بمصر؟ فأجابهم: أطلب التعليم بها!. قالوا: إذا كنت تقصد هذا، فبلادنا أنفع لك، ونحن أعرف بحقك. ولم يزالوا به حتى أجابهم إلى المسير معهم بعد الخضوع والسؤال. فسار معهم. فلما قاربوا بلادهم، لقيهم رجال من الشيعة، فأخبروهم بخبره، فرغبوا في نزوله عندهم، واقترعوا فيمن يضيفه منهم، ثم رحلوا حتى وصلوا إلى أرض كتامة (سنة **٢٨٠ هـ = ٨٩٣ م**) **.** فسأله قوم منهم أن ينزل عندهم حتى يقاتلوا دونه. فسألهم: **أين يكون فج الأخيار؟** فتعجبوا من ذلك، ولم يكونوا قد ذكروه له. وأجابوه: عند بني سليمان. فقال: إليه نقصد، ثم نأتي كل قوم منكم في ديارهم ونزورهم في بيوتهم. فأرضى بذلك الجميع. وسار إلى جبل يقال له - اكنجان - وفيه - فج الأخيار - فقال: **هذا فج الأخيار، وما سمي إلا بكم، ولقد جاء في الآثار أن للمهدي هجرة تنبو عن الأوطان، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان، قوم مشتق اسمهم من الكتمان. فإنهم كتامة، وبخروجكم من هذا الفج يسمى - فج الأخيار -.** فتسامعت القبائل، وصنع من الحيل والمكيدات والنارنجيات ما أذهل عقولهم. وأتاه البربر من كل مكان، وعظم أمره إلى أن تقاتلت كتامة عليه مع قبائل البربر، وسلم من القتل مراراً وهو في كل ذلك لا يذكر اسم - المهدي - فاجتمع أهل العلم على مناظرته وقتله، فلم يتركه الكتاميون يناظرهم - **وكان اسمه عندهم أبا عبد الله المشرقي** - وعلم أمير افريقية ابراهيم بن أحمد بن الأغلب بأمره. فأرسل إلى عامله على مدينة - ميلة - يسأله عن أمره، فصغره، وذكر له أنه يلبس الخشن، ويأمر بالخير والعبادة. فسكت عنه. ثم إن أبا عبد الله قال للكتاميين: **أنا**

صاحب البذر الذي ذكر لكم أبو سفيان والحلواني، فازدادت محبتهم له، وتعظيمهم لأمره. وتفرقت كلمة البربر وكتامة بسببه، فأراد بعضهم قتله، فاختفى، ووقع بينهم قتال شديد. واتصل الخبر بإنسان من أكابر كتامة - اسمه الحسن بن هرون - فأخذ أبو عبدالله إليه ودافع عنه. ومضيا إلى مدينة - ناصرون - فأتته القبائل من كل مكان، وعظم شأنه، وصارت الرياسة - للحسن بن هرون - وسلم إليه أبو عبد الله أعنة الخيل، وظهر من الاستتار، وشهر الحروب، فكان الظفر له فيها، وغنم الأموال. فحصن مدينة نصرون وحفر خندقاً حولها. فزحفت القبائل إليها، فاقتتلوا ثم اصطلحوا، ثم عاودوا القتال. وكان بينهم وقائع كثيرة ظفر بها، وصارت إليه أموالهم، فاستقام له أمر البربر وعامة كتامة. فلما تم - لأبي عبد الله ذلك - زحف بجيشه إلى - مدينة ميلة - فجاءه منها رجل اسمه الحسن بن أحمد. فأطلعه على غرة البلد، فقاتل أهله قتالاً شديداً، وأخذ الأرباض، فطلبوا منه الأمان، فأمنهم، ودخل مدينة - ميلة - - وعلم أمير افريقية - وهو يومئذ ابراهيم بن أحمد - بما حدث، فوجه جيشاً في اثني عشر ألفاً، وتبعهم مثلهم - بقيادة ابنه الأحول. فالتقيا، واقتتل العسكران فانهزم أبو عبد الله إلى جبل انكجان، فوصل الأحول إلى مدينة ناصرون، فأحرقها وأحرق مدينة ميلة - ولم يجد بها أحداً -. وعمل أبو عبد الله على بناء - دار هجرة - في - انكجان -. فقصده أصحابه، وعاد الأحول إلى افريقية، فسار أبو عبد الله بعد رحيلهم، وغنم ما رأى مما تخلف عنهم. وأتاه خبر وفاة أمير افريقية - ابراهيم بن أحمد ابن الأغلب - فسره ذلك، ثم علم بقتل ابنه أبي العباس وولاية زيادة الله واشتغاله باللهو واللعب فاشتد سروره. وكان الأحول قد جمع جيشاً كبيراً أيام أخيه أبي العباس، ولقي أبا عبد الله، فانهزم الأحول، إلا أنه بقي قريباً منه يقاتله ويمنعه من التقدم، فلما ولي أبو مضر زيادة الله افريقية، أحضر الأحول وقتله - ولم يكن أحول وإنما كان يكسر عينه إذا أدام النظر فلقب به -. فلما قتل انتشرت حينئذ جيوش أبي عبد الله في البلاد، وصار يقول: **المهدي يخرج في هذه الأيام ويملك الأرض، فيا طوبى لمن هاجر إلي وأطاعني. ويغري الناس بأبي مضر زيادة الله ويعيبه.** وكان كل من عند زيادة الله من الوزراء شيعة، فلا يسوءهم أن يظفر أبو عبد الله، لا سيما مع ما كان

يذكر لهم من الكرامات التي للمهدي من إحياء الموتى، ورد الشمس من مغربها، وملكه الأرض بأسرها. وأبو عبدالله يرسل إليهم ويسحرهم ويعدهم».

كان أولاد ـ عبدالله بن ميمون القداح ـ قد زعموا بعد موت أبيهم أنهم من ذرية عقيل بن أبي طالب، وهم مع هذا يسترون ويسرون أمرهم ويخفون أشخاصهم. وكان أكبر أبناء القداح واسمه أحمد قد توفي وخلف ابنه محمداً الذي كان يكاتبه الدعاة في البلاد. وتوفي محمد وخلفه أحمد والحسين، فسار الحسين إلى ـ سلمية من أرض حمص ـ وله بها ودائع وأموال من ودائع جده عبد الله القداح، ووكلاء وغلمان. وبقي ببغداد من أولاد القداح ـ أبو الشلغلغ ـ وكان الحسين يدعي أنه الوصي وصاحب الأمر والدعاة باليمن والمغرب، وأنهم يكاتبونه ويراسلونه. **واتفق أنه جرى بحضرته حديث عن النساء بسلمية، فوصفوا له امرأة رجل يهودي حداد، مات عنها زوجها، وهي في غاية الحسن ولها ولد من الحداد يماثلها في الجمال، فتزوجها وأحبها وحسن موقعها معه.** وأحب ولدها وأدبه وعلمه، فتعلم العلم، وصارت له نفس عظيمة، وهمة كبيرة. وعرفه أسرار الدعوة من قول وفعل، وعين له مكان الدعاة، وأعطاه الأموال والعلامات ـ الرموز والأسماء الحركية ـ وأمر أصحابه بطاعته وخدمته، **وأنه الإمام** والوصي. وزوجه ابنة عمه أبي الشلغلغ ـ **ثم عهد الحسين إلى عبيد الله ـ ابن اليهودية ـ وقال له: «إنك ستهاجر بعدي هجرة بعيدة، وتلقى محناً شديدة»**. وتوفي الحسين، وقام بعده عبيدالله ـ وانتشرت دعوته، وبذل الأموال. وأرسل إليه داعيته في افريقية ـ أبو عبدالله ـ رجالاً من كتامة ـ من المغرب ليخبروه بما فتح الله عليه، وأنهم ينتظرونه. وشاع خبره عند الناس أيام أمير المؤمنين المكتفي. فأرسل في طلبه، فهرب هو وولده أبو القاسم نزار وهو يومئذ غلام ـ وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب، وذلك أيام زيادة الله. فلما وصل إلى مصر، أقام مستتراً بزي التجار. وكان عامل مصر يومئذ ـ عيسى النوشري ـ فأتته الكتب من أمير المؤمنين بصفة أبي عبيد الله وحليته، وأمر بالقبض عليه وعلى كل من يشبهه ـ وكان بعض خاصة عيسى متشيعاً، فأخبر أبا عبيد الله وأشار عليه بالانصراف، فخرج من مصر مع أصحابه، ومعه أموال كثيرة فأوسع النفقة على من صحبه، فلما وصل الكتاب إلى النوشري، فرق الرسل في طلب

أبي عبيد الله. وخرج بنفسه، فلحقه، فلما رآه لم يشك فيه، وقبض عليه، ونزل ببستان، ووكل به من يحرسه. فلما حضر الطعام دعاه ليأكل، فأعلمه أنه صائم، فرق له، وقال له: «أعلمني بحقيقة حالك حتى أطلقك». فخوفه أبو عبيد الله بالله تعالى، وأنكر حاله، ولم يزل يخوفه ويتلطفه حتى أطلقه وخلى سبيله، وأراد أن يرسل معه من يوصله إلى رفقته. فقال له أبو عبيد الله: «لا حاجة في ذلك». ودعا له. وقيل ـ إنه أعطاه سراً من المال حتى أطلقه ـ. فرجع بعض أصحاب عيسى النوشري عليه باللوم، فندم على إطلاقه. وأراد إرسال الجيش وراءه ليردوه. وكان أبو عبيد الله لما لحق أصحابه، رأى ابنه أبا القاسم قد ضيع كلباً له يصيد به ـ وهو يبكي عليه ـ فعرفه عبيده أنهم تركوه في البستان الذي كانوا فيه. فرجع أبو عبيد الله بسبب الكلب حتى دخل البستان ومعه عبيده، فرآهم النوشري، فسأل عنهم، فقيل له إنه أبو عبيد الله وقد عاد بسبب الكلب. فقال النوشري لأصحابه: «قبحكم الله، أردتم أن تحملوني على قتل هذا حتى آخذه. فلو كان يطلب الخلافة أو كان مريباً لكان يطوي المراحل ويخفي نفسه، وما كان ليرجع في طلب كلب».

سار أبو عبيد الله مجداً هارباً، فلحقه لصوص بموضع يقال له ـ الطاحونة ـ فأخذوا بعض متاعه ـ وكانت عنده رسائل وكتب وملاحم لآبائه ـ فأخذت، فعظم أمرها عليه. ووصل أبو عبيد الله إلى مدينة ـ طرابلس ـ وتفرق من صحبه من التجار. وكان في صحبته أبو العباس أخو أبي عبد الله الشيعي ـ الداعية ـ فوجهه أبو عبيد الله إلى القيروان، وأمره أن يلحق بكتامة. فلما وصل أبو العباس إلى القيروان، وجد أن المعلومات والأخبار قد سبقته إلى زيادة الله، فقبض زيادة الله على أبي العباس واستجوبه، فأنكر أن يكون قد صحب أبا عبيد الله، وقال له: «إنما أنا رجل تاجر، قد صحبت رجلاً في القافلة». فحبسه، وعلم أبو عبيد الله، فسار إلى قسطيلة. ووصل كتاب زيادة الله إلى عامل طرابلس بالقبض على أبي عبيد الله. وكان هذا قد أهدى عامل طرابلس هدايا، واجتمع به. فكتب العامل إلى زيادة الله وأعلمه أنه قد سار ولم يدركه. **ولما وصل أبو عبيد الله إلى قسطيلة لم يتوجه للقاء أبي عبدالله الشيعي ـ داعيته ـ لأن أخاه أبا العباس كان قد اعتقل، وعرف أنه إذا اجتمع به،**

تحول شكهم به إلى يقين فقتلوه. فتركه وتوجه إلى سجلماسة فأقام بها ـ والجواسيس ـ العيون يطاردونه. وكان حاكم سجلماسة رجلاً يعرف باسم ـ اليسع بن مدرار ـ فأهدى له أبو عبيد الله الهدايا وواصله، **فقربه اليسع وأحبه. فأتاه كتاب زيادة الله يعرفه أنه الرجل الذي يدعو إليه أبو عبدالله الشيعي، فقبض عليه وسجنه.**

كان زيادة الله قد أخذ في حشد قواته لمجابهة القدرة المتعاظمة لقوات أبي عبد الله بعد استيلائها على ميلة وسطيف وسواها. ووزع الأموال، **فنظم جيشاً ضم أربعين ألف مقاتل، ولم يترك بإفريقية شجاعاً إلا ضمه لجيشه الذي انضم إليه من المتطوعين بمثل عدده.** إلا أن زيادة الله ارتكب خطأً كبيراً عندما أسند قيادة هذا الجيش إلى أحد أقاربه ـ واسمه ابراهيم بن خنيش ـ إذ كان هذا جاهلاً بأمور الحرب وقيادة الجيوش. وسار ابراهيم بجيشه إلى قسطينة الهواء ـ وهي مدينة قديمة حصينة ـ وهناك انضم اليه جمع كبير من كتامة ممن لم يخضعوا لأبي عبد الله. فقتل في طريقه كثيراً من أصحاب أبي عبد الله وأنصاره. وخاف أبو عبد الله. فأقام ابراهيم أمام قسطينة ستة أشهر فيما كان أبو عبدالله متحصناً في الجبل. فلما رأى ابراهيم أن أبا عبدالله لا يتقدم لقتاله، بادر وزحف بجيشه المحتشد إلى بلد اسمه ـ كرمة ـ. فأخرج إليه أبو عبدالله قوة من الفرسان الذين اختارهم. فلما رأى ابراهيم قوة الفرسان سار لقتالهم بنفسه ولم يصحبه أحد من جنده. وكانت أثقال الجيش محملة على ظهور الدواب، فلم يأمر بانزالها. ونشبت الحرب، واقتتلوا قتالاً شديداً، وعندها قاد أبو عبدالله جيشه، وتمكن من الحاق الهزيمة بابراهيم وجيشه، فجرح ابراهيم، وتمت الهزيمة على الجيش جميعه. واستولى جند أبي عبدالله على الأثقال بأسرها، وقتلوا من جيش إبراهيم خلقاً كثيراً، وانسحب إبراهيم بفلول جيشه الممزق إلى القيروان. واهتاجت بلاد أفريقية، وعظم أمر أبي عبد الله، واستقرت دولته، وكتب كتاباً إلى أبي عبيد الله ـ وهو في سجن سجلماسة ـ يبشره وأرسل الكتاب مع أحد ثقاته الذي دخل السجن في زي قصاب يبيع اللحم، فاجتمع به وعرفه ذلك. وسار أبو عبدالله إلى مدينة ـ **طبنة** ـ فحصرها ونصب عليها الدبابات، ونقب برجاً وبدنة، فسقط السور بعد قتال شديد،

واستولى على المدينة، فاحتمى المقدمون بحصن البلد، فحصرهم، فطلبوا الأمان، فأمنهم وأمن أهل البلد. وسار إلى مدينة - **بلزمة** - وكان قد حصرها مراراً كثيرة فلم يظفر بها، فلما حصرها الآن ضيق عليها، وجد في القتال، ونصب عليها الدبابات، ورماها بالنار، فأحرقها وفتحها بالسيف، وقتل الرجال، وهدم الأسوار. ووصلت الأخبار إلى زيادة الله، فعظم عليه الأمر، وأخذ في حشد القوى وأمكن له **جمع جيش من اثني عشر ألفاً**، وأسند قيادته إلى - هٰرون بن الطبني -. فسار هٰرون وجيشه، واجتمع معه خلق كثير وقصد مدينة - دار ملوك - وكان أهلها قد أطاعوا أبا عبد الله، فقتل هرون أهلها وهدم الحصن. ولقيه في طريقه فرسان كان قد وجههم أبو عبدالله للاستطلاع، فلما رآهم جند هرون اضطربوا وصاحوا صيحة عظيمة وهربوا من غير قتال. فظن فرسان أبي عبدالله أنها خدعة، فلما عرفوا أنها هزيمة، أسرعوا في تحركهم، ووضعوا السيف فقتلوا ما لا يحصى عدداً من جند هرون. وقتل هرون أمير الجند. وفتح أبو عبدالله مدينة - **تيجس** - صلحاً، فاشتد الأمر حينئذ على زيادة الله، وأخرج الأموال، وحشد الجيوش وخرج بنفسه لمحاربة أبي عبدالله، ووصل إلى الاربس (**سنة ٢٩٥ هـ = ٩٠٧ م**) فقال له وجوه دولته: « إنك تغرر بنفسك، فإنك إن هزمت لا يبقى لنا ملجأ. والرأي أن ترجع إلى مستقر ملكك، وترسل الجيش مع من تثق به. فإن كان الفتح لنا، فنصل إليك. وإن كان غير ذلك فتكون ملجأ لنا ». فأخذ برأيهم. ووجه الجيش بقيادة ابن عم له - هو ابراهيم بن أبي الأغلب - وكان شجاعاً. وعلم أبو عبدالله بذلك، وكان أهل - **باغاية** - قد كاتبوه بالطاعة، فسار إليهم. فلما قرب منها هرب عاملها إلى - الاربس - فدخلها أبو عبد الله، وترك بها جنداً، وعاد إلى - انكجان -. فلما علم زيادة الله زاده ذلك غماً وحزناً فانصرف إلى الأكل والشرب والشهوات، وساعده على ذلك أصحابه. ثم إن أبا عبدالله وجه قوة من الفرسان إلى مدينة - **مجانة** - فافتتحها عنوة وقتل عاملها. ووجه قوة أخرى إلى - **تيفاش** - ففتحها وأمن أهلها. وقصد جماعة من رؤساء القبائل أبا عبد الله يطلبون الأمان، فأمنهم، وسار بنفسه إلى - **مسكيانة** - **ثم إلى** - **تبسة** - **ثم إلى مدبرة** - فوجد فيها أهل - قصر الأفريقي - ومدينة مرمجنة ومدينة مجانة وأخلاطاً من الناس وقد

التجؤوا إليها وتحصنوا فيها - وهي حصينة - فنزل عليها، وقاتلها، فطلب أهلها الأمان، فأمنهم، لكن جنده غدروا بهم، ووضعوا السيف فيهم وانتهبوهم. ثم سار أبو عبدالله بجيشه إلى - **القصرين** - من قمودة، فنزل هناك. وجاءه أهل القصرين بطلب الأمان فأمنهم. علم قائد الجيش - إبراهيم بن أبي الأغلب - أن أبا عبد الله يريد مهاجمة زيادة الله في قاعدته - رقادة -. ولما كان يعرف أنه ليست لدى زيادة الله قوات كبيرة، فقد خرج من الاربس، ونزل دردمين. وسير أبو عبدالله سرية إلى - دردمين - فجرى بينها وبين جند زيادة الله قتال، فقتل من أصحاب أبي عبد الله جماعة وانهزم الباقون. واستبطأ أبو عبدالله خبرهم، فسار في جميع عساكره، فلقي أصحابه منهزمين، فلما رأوه قويت قلوبهم، ورجعوا فانقضوا على جند ابراهيم، وقتلوا منهم جماعة، وحجز الليل بينهم. ثم سار أبو عبدالله إلى **قسطيلة** - فحصرها، فقاتله أهلها، ثم طلبوا الأمان فأمنهم. وأخذ ما كان لزيادة الله فيها من الأموال والعدد. ورحل إلى - **قفصة** - فطلب أهلها الأمان فأمنهم. ورجع إلى - **باغاية** - فترك بها جيشاً وعاد إلى جبل - انكجان -.

سار ابراهيم بن أبي الأغلب في جيشه إلى - باغاية - وحصرها، فلما علم أبو عبد الله بذلك، جمع جيشه وتحرك بسرعة نحوها، ووجه قوة من اثني عشر ألف فارس، وأمر قائدها بالسير إلى - باغاية - فإذا وجد بأن ابراهيم قد ارتحل عنها، فعليه ألا يجاوز فج - العرعار -. ومضت هذه القوة، وكان أصحاب أبي عبدالله في باغاية قد قاتلوا ابراهيم وجيشه قتالاً شديداً، فلما رأى صبرهم، عجب هو وأصحابه منهم، وأرعب ذلك قلوبهم، فلما علموا بتقدم قوات أبي عبد الله، رجعوا مع قائدهم ابراهيم إلى الاربس. ووصل جند أبي عبدالله فلم يروا أحداً، فنهبوا ما وجدوا وعادوا.

جاء فصل الربيع من سنة ٢٩٦ هـ = ٩٠٨ م. وطاب الزمان وحشد كل طرف قواته واستعد لحسم الصراع المسلح، فجمع أبو عبدالله جيشاً بلغ مائتي مقاتل من الفرسان والمشاة. واجتمع مع زيادة الله بالأربس - بقيادة ابراهيم - ما لا يحصى عدداً. والتقت القوتان، واقتتل جندهما أشد قتال، واستمرت الحرب بينهما واستطالت أيامها. وانتصر جند زيادة الله في مراحلها الأولى، فعمل أبو عبدالله على

اختيار ستمائة مقاتل من أفضل فرسانه، وأمرهم بالتحرك للقيام باستدارة واسعة من أجل الوصول إلى مؤخرة قوات زيادة الله. وحدد لهم الطريق المناسب للتحرك، واتفق أن فعل إبراهيم مثل ذلك، فالتقت القوتان، واقتتل فرسانها عند مضيق صعب، فانهزم جند ابراهيم، وارتفع الصراخ في مؤخرة قوات جند ابراهيم للانذار بقوة الاغارة، فانهزم جيش ابراهيم وتمزق وهرب كل قوم إلى جهة بلادهم، وسار ابراهيم وبعض من معه منهزماً إلى القيروان. وقام جند أبي عبدالله بمطاردتهم، يأسرون ويقتلون، وغنموا من الأموال والخيل والأسلحة شيئاً كثيراً، ودخل جند أبو عبدالله - الاربس - فقتلوا بها خلقاً عظيماً، ودخل كثير من أهلها الجامع، فقتل فيه أكثر من ثلاثة آلاف، ونهبوا البلد. ومضى زيادة الله هارباً إلى مصر. وانصرف أبو عبدالله إلى قمودة - وعندما علم أهل - **رقادة** - بهزيمة جند زيادة الله، هربوا على وجوههم في الليل فمنهم من لجأ إلى القصر القديم، ومنهم من لجأ إلى القيروان، ولجأ آخرون إلى سوسة. ودخل أهل القيروان رقادة، ونهبوا ما فيها، وأخذ القوي الضعيف، ونهبت قصور بني الأغلب. وبقي النهب ستة أيام. ووصل ابراهيم بن أبي الأغلب إلى القيروان، وسار إلى قصر الإمارة. واجتمع إلى أهل القيروان، ونادى مناديه بالأمان وتسكين الناس، وذكر لهم أحوال زيادة الله، وما كان عليه حتى أفسد ملكه، وصغر أمر - أبي عبدالله الشيعي، ووعدهم أن يقاتل عنهم ويحمي حريمهم وبلدهم وطلب منهم المساعدة بالسمع والطاعة والأموال، فقالوا له: «**إنما نحن فقهاء وعامة وتجار، وما في أموالنا ما يبلغ غرضك، وليس لنا بالقتال طاقة**» فأمرهم بالانصراف. فلما خرجوا من عنده وأعلموا الناس بما قالوا، صاحوا به: «**اخرج عنا - فمالك عندنا سمع ولا طاعة**». وشتموه فخرج عنهم وهم يرجمونه.

علم أبو عبد الله بهرب زيادة الله وهو بناحية - سبيبة - فسار إلى - وادي النمل - ووجه قوة من ألف فارس للعمل على مقدمة جيشه بقيادة - عروبة بن يوسف وحسن ابن أبي خنزير - فسارت هذه المقدمة إلى - رقادة -. فوصلتها ووجدت الناس وهم ينتهبون ما بقي من الأمتعة والأثاث. فأمنوهم، ولم يتعرضوا لأحد، وتركوا لكل

واحد ما حمله. فأتى الناس إلى القيروان وأخبروا أهلها الذين أظهروا فرحهم وبهجتهم. وسار أبو عبد الله إلى القيروان فخرج الفقهاء ووجوه البلد لاستقباله، وسلموا عليه وهنؤوه بالفتح، فرد عليهم رداً حسناً. وحدثهم. وأعطاهم الأمان، فأعجبهم ذلك وسرهم. وذموا زيادة الله وذكروا مساويه، **فقال لهم: «ما كان إلا قوياً، وله منعة ودولة شامخة، وما قصر في مدافعته، ولكن أمر الله لا يعاند ولا يدافع».** فأمسكوا عن الكلام، ورجعوا إلى القيروان. ودخل أبو عبد الله - رقادة - فنزل ببعض قصورها، وفرق دورها على كتامة، إذ لم يكن من أهلها أحد قد بقي فيها. وأمر فنودي بالأمان. ورجع الناس إلى اوطانهم، وأخرج العمال إلى البلاد، وطلب أهل الشر والمفسدين فقتلهم. **وأمر أن يجمع ما كان لزيادة الله من الأموال والسلاح وغير ذلك، فاجتمع كثير منه - وفيه كثير من الجواري لهن مقدار وحظ من الجمال. فسأل عمن يكفلهن، فذكر له امرأة صالحة، كانت لزيادة الله، فأحضرها وأحسن إليها، وأمر بحفظهن وبتقديم ما يصلحهن، ولم ينظر إلى واحدة منهن. ولما حضرت الجمعة، أمر الخطباء بالقيروان ورقادة فخطبوا له ولم يذكروا أحداً. وأمر بضرب السكة - النقود - وأن لا ينقش عليها اسم. ولكنه جعل مكان الاسم من وجه: «بلغت حجة الله» ومن الوجه الآخر: (تفرق أعداء الله). ونقش على السلاح: (عدة في سبيل الله). ووسم الخيل على أفخاذها: (الملك لله) وأقام على ما كان عليه من لبس الادم الخشن، والقليل من الطعام الغليظ.**

استقرت الأمور لأبي عبد الله في - رقادة - وسائر بلاد افريقية. وجاءه أخوه الأكبر أبو العباس، [illegible]رح بلقائه، واستخلفه في - رقادة -. وسار في جيوش عظيمة اهتز المغرب لخروجها. و خافت زناته من أبي عبد الله وجيوشه، وتطايرت القبائل من طريقه، وجاءته وفود القبائل فأعلنت دخولها في طاعته. وسار في طريقه إلى مدينة - سجلماسة - لتحرير أبي عبيد الله واطلاقه من سجنه. وتم له ذلك، وقتل أمير مدينة سجلماسة - اليسع -.

أخيراً، التقى الداعية أبو عبد الله، بأبي عبيد الله، وأظهر الناس مسرة عظيمة

كادت تذهب بعقولهم. وتقدم أبو عبد الله من إمامه أبي عبيد الله وابنه أبي القاسم فأركبهما، ومشى هو ورؤساء القبائل بين أيديهما، وأبو عبد الله يقول للناس وهو يبكي من شدة الفرح: «**هذا مولاكم**». ووصل الركب إلى ـ سجلماسة ـ فنزل فيها أربعين يوماً. وسار أبو عبد الله إلى افريقية، وأحضر الأموال من ـ أنكجان ـ فجعلها احمالاً وعاد بها إلى رقادة فوصلها (سنة ٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م). وسار أبو عبيد الله من سجلماسة نحو ـ رقادة ـ فلما قرب منها، تلقاه أهلها وأهل القيروان، وعلى مقدمتهم أبو عبد الله ورؤساء كتامة مشاة بين يديه، وولده أبو القاسم خلفه؛ فسلموا عليه، فرد رداً جميلاً وأمرهم بالانصراف. ونزل بقصر من قصور رقادة. **وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه في الخطبة في البلاد، وتلقب بلقب ـ المهدي أمير المؤمنين ـ وجلس بعد صلاة الجمعة رجل يعرف ـ بالشريف ـ ومعه الدعاة، وأحضروا الناس بالعنف والشدة، ودعوهم إلى مذهبهم، فمن أجاب أحسن إليه، ومن أبى حبس، فلم يدخل في مذهبهم إلا بعض الناس ـ وهم قليل ـ وقتل كثيراً ممن لم يوافقهم على مذهبهم. وعرض عليه أبو عبد الله جواري زيادة الله، فاختار منهن كثيراً لنفسه ولولده أيضاً، وفرق ما بقي على وجوه كتامة.** وقسم عليهم أعمال افريقية؛ ودون الدواوين، وجبى الأموال، واستقرت قدمه، ودانت له أهل البلاد، واستعمل العمال عليها جميعها، واستعمل على جزيرة صقلية ـ الحسن بن أحمد بن أبي الخنزير ـ ولكن هذا أساء السيرة في أهل صقلية وظلمهم، فثاروا به وأخذوه وحبسوه، وكتبوا إلى المهدي بذلك واعتذروا فقبل عذرهم، واستعمل عليهم ـ علي بن عمر البلوي ـ فوصل إلى صقلية في نهاية سنة ٢٩٩ هـ. **هكذا زال ملك بني الأغلب وملك بني مدرار ـ الذين منهم اليسع ـ وكان لهم ثلاثون ومائة سنة منفردين بسجلماسة. وزال ملك بني رستم بن تاهرت. ولهم ستون ومائة سنة تفردوا بتاهرت. وملك المهدي افريقية جميعها.**

★ ★ ★

لم يجتمع سيفان في غمد واحد، ولم يجتمع ملكان إلا أخرج أحدهما الآخر. فلا الغمد يتسع لسيفين، ولا المملكة تستقيم لأكثر من حاكم. وهكذا فقد كان

لا بد من ظهور خلاف بين الداعية أبي عبدالله الذي كان له الفضل في إقامة الحكم العلوي في المغرب، وبين المهدي أبي عبيد الله الذي ارتفعت الدعوة باسمه - ولكن هذا الخلاف حدث بأسرع مما يمكن توقعه. إذ لم تكد الأمور تستقيم لأبي عبيد الله - المهدي - حتى باشر بممارسة الأمور بنفسه. وكف يد أبي عبد الله ويد أخيه أبي العباس. فاغتاظ ابو العباس، وعظم عليه الفطام عن الأمر والنهي والأخذ والعطاء. فأخذ يزري على المهدي في مجلس أخيه، ويتكلم فيه، وأخوه ينهاه ولا يرضى فعله، فلا يزيده ذلك إلا لجاجاً. ثم أظهر أبو عبد الله ما في نفسه، وتحدث إلى أبي عبيد الله المهدي، فقال له: « لو كنت تجلس في قصرك، وتتركني مع كتامة آمرهم وأنهاهم لأني عارف بعاداتهم، لكان أهيب لك في أعين الناس ». وكان المهدي قد علم شيئاً مما يجري بين أبي عبد الله وأخيه من الأحاديث، فتأكد عندئذ مما كان قد علمه، ولكنه رد على أبي عبد الله رداً لطيفاً. واستمر أبو العباس في استثارة مقدمي الدعاة، فمن رأى منه قبولاً للتحريض كشف له ما في نفسه، وقال له: « ما جازاكم على ما فعلتم؟ ». وذكر لهم الأموال التي أخذها المهدي من أنكجان. وقال: « هلا قسمها فيكم؟ » وكل ذلك يصل إلى سمع المهدي وهو يتغافل وأبو عبد الله يداري. ثم صار أبو العباس يقول: « إن هذا ليس الذي كنا نعتقد طاعته وندعو إليه لأن المهدي يختم بالحاجات، ويأتي بالآيات الباهرة ». فأخذ قوله بقلوب كثير من الناس - منهم إنسان من كتامة يقال له - شيخ المشايخ - فواجه المهدي بذلك وقال له: « إن كنت المهدي فأظهر لنا آية، فقد شككنا فيك » فقتله المهدي. فخافه أبو عبد الله، وعلم أن المهدي قد تغير عليه. واتفق هو وأخوه ومن معهما على الاجتماع عند رجل منهم - لقبه أبو زاكي - لاتخاذ قرار بقتل المهدي. وتحرك المهدي بسرعة أكبر، فاستدعى - أبا زاكي - وأرسله والياً على طرابلس، وكتب إلى عاملها أن يقتله عند وصوله. فلما وصلها، قتله عاملها وأرسل رأسه إلى المهدي. **وأمر المهدي رجالاً له بقتل أبي عبد الله وأخيه أبي العباس. فقتلهما - في اليوم الذي قتل فيه أبا زاكي - وقام المهدي فصلى على أبي عبد الله ودعا له وقال: « رحمك الله أبا عبد الله - وجزاك خيراً بجميل سعيك »**. وثارت فتنة بسبب قتلهما، وجرد أصحابهما

السيوف، فركب المهدي، وأمن الناس، فسكتوا، ثم تتبعهم حتى قتلهم جميعاً. وثارت فتنة ثانية بين كتامة وأهل القيروان قتل فيها خلق كثير، فخرج المهدي، وسكن الفتنة، **وأمر الدعاة بالكف عن فرض التشيع على العامة**. ولما استقامت أمور الدولة للمهدي، عهد إلى ولده أبي القاسم - نزار - بالخلافة، ورجعت كتامة إلى بلادهم، فأقاموا طفلاً، وقالوا: «هذا هو المهدي». ثم زعموا أنه نبي يوحى إليه. وزعموا أن أبا عبد الله لم يمت. وزحفوا إلى مدينة - ميلة - فبلغ ذلك المهدي، فأخرج ابنه أبا القاسم، فحصرهم، فقاتلوه، فهزمهم واتبعهم حتى أجلاهم إلى البحر، وقتل منهم خلقاً عظيماً، وقتل الطفل الذي أقاموه. وأعلن أهل صقلية تمردهم على عامل المهدي - ابن وهب - فوجه المهدي اسطولاً، وقضى على التمرد، وجاء بابن وهب فقتله. وأعلن أهل - تاهرت - تمردهم، فغزاها المهدي وقضى على التمرد. وقتل قادته. كما قتل جماعة من - بني الأغلب - برقادة، كانوا قد رجعوا عليها بعد وفاة زيادة الله. وعادت الفتنة فاجتاحت جزيرة صقلية (سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م) فأرسل المهدي الأسطول الذي حمل جيشاً ضخماً قضى على الفتنة، وقتل قادتها. وأقام حامية كبيرة في جزيرة صقلية لاخضاع ثائرتها.

أ - بناء الدولة، والصراع مع مصر.

لقد قامت دولة للشيعة سنة ٢٩٦ هـ = ٩٠٨ م. إلا أن هذه الدولة لم تكن ذات تأثير كبير على العالم الاسلامي وهي منعزلة في أقصى الغرب. ولهذا فقد وضع المهدي هدفه التالي - وهو الاستيلاء على مصر -. وكانت أول محاولة له في هذا المجال إرسال جيش من افريقية بقيادة ابنه أبي القاسم نزار (سنة ٣٠١ هـ = ٩١٣ م). فسار الجيش إلى برقة، واستولى عليها. ثم تقدم نحو مصر، فاستولى على الاسكندرية، ووصل إلى الفيوم، وسيطر على عدد من المدن، وضيق على أهلها. فوجه أمير المؤمنين المقتدر بالله جيشاً كثيفاً بقيادة - مؤنس الخادم - فحارب جيش أبي القاسم وهزمه، وطرده من مصر، فعاد أبو القاسم بجيشه ممزقاً مهزوماً. فلما كانت السنة التالية (٣٠٢ هـ = ٩١٤ م) جهز أبو محمد عبيد الله العلوي - الملقب بالمهدي - جيشاً ضخماً، وأسند قيادته إلى قائد من قادته - اسمه حباسة - ووجهه نحو مصر. فسار هذا الجيش بحراً،

ووصل إلى الاسكندرية، فاستولى عليها، ثم سار منها حتى وصل إلى منتصف المسافة بين الاسكندرية والفيوم. فبلغ ذلك المقتدر، فعاد ووجه جيشاً بقيادة ـ مؤنس ـ وأمدّه بالسلاح والمال. فسار مؤنس مجداً حتى وصل مصر، والتقى الجيشان. فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل من الفريقين جمع كثير، وجرح مثلهم، ثم كان بينهم وقعة أخرى بلغت من العنف والشدة كمثل سابقتها، وأعقبتها وقعة ثالثة ورابعة، انهزم فيها المغاربة أصحاب العلوي، وقتلوا وأسروا. فكان مبلغ القتلى سبعة آلاف. وهرب الباقون وعادوا إلى الغرب، فلما وصلوا إلى الغرب أمر المهدي بقتل قائد الجيش ـ حباسة ـ. ورافق ذلك تفجر ثورة في القيروان ضد المهدي بقيادة ـ عروبة بن يوسف الكتامي ـ الذي اجتمع إليه خلق كثير من كتامة والبرابر ـ. فأخرج المهدي اليهم جيشاً بقيادة مولاه ـ غالب، فاقتتلوا قتالاً شديداً في ظاهر القيروان، وقتل عروبة وبنو عمه وقتل معهم عالم لا يحصون عدداً. وجمعت رؤوس مقدميهم في قفة وحملت إلى المهدي، فقال: **«ما أعجب أمور الدنيا، قد جمعت هذه القفة رؤوس هؤلاء، وقد كان يضيق بعساكرهم فضاء المغرب»**.

أراد ـ المهدي ـ بناء مدينة تحمل اسمه وتكون عاصمة لمملكته. فسار بنفسه (سنة ٣٠٣ هـ = ٩١٥ م) وارتاد موضعاً على ساحل البحر ما بين تونس وقرطاجنة. فلم يجد موضعاً أحسن ولا أحصن من موضع شبه جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند. فأمر ببناء المدينة عليها. وأطلق عليها اسم ـ المهدية ـ. وجعل لها سوراً محكماً، وأبواباً عظيمة، وزن كل مصراع مائة قنطار. وأشرف على بنائها فكان هو الذي يأمر الصناع بما يعملون. ثم أمر ببناء دار لصناعة السفن ورصيفاً يتسع لمائتي سفينة وعليها باب مغلق. وحفر في أرضها أهراء لحفظ الطعام ومصانع للماء. وبنى فيها القصور والدور فلما فرغ منها قال: **«اليوم أمنت على الفاطميات ـ يعني بناته»**. وارتحل عنها. ولما رأى إعجاب الناس بها وبحصانتها قال: «هذا لساعة من نهار».

عاد المهدي من جديد لمشروع فتح مصر (سنة ٣٠٦ هـ = ٩١٨ م) فوجه إليها جيشاً كثيفاً بقيادة ابنه أبي القاسم، وصل إلى مصر في ربيع الأول سنة ٣٠٧ هـ =

٩١٩ م فنزل في الاسكندرية. فخرج عامل أمير المؤمنين المقتدر منها، ودخلها أبو القاسم، وتقدم إلى الجيزة، واحتل الاشمونين وكثيراً من مدن صعيد مصر. وكتب إلى أهل مكة يدعوهم إلى الدخول في طاعته، فلم يقبلوا منه، ووردت بذلك الأخبار إلى بغداد. فوجه المقتدر جيشاً بقيادة ـ مؤنس الخادم ـ الذي سار بسرعة إلى مصر، وجرت بينه وبين أبي القاسم عدة وقعات. ووصل أثناء ذلك أسطول من افريقية ضم ثمانين مركباً لدعم أبي القاسم. بقيادة ـ سليمان الخادم ويعقوب الكتامي ـ وكانا من القادة الاكفاء الشجعان. فأمر المقتدر بتوجيه أسطول من طرطوس ضم ٢٥ مركباً، فيها النفط والعدد بقيادة قائد لقبه ـ أبو اليمن ـ. فالتقت المراكب بالمراكب، واقتتلوا عند مصب نهر رشيد، فانتصر أبو اليمن وأحرق كثيراً من مراكب المهدي. وهلك أكثر جندها. وأسر منهم كثير في مقدمتهم سليمان الخادم ويعقوب، فقتل من الأسرى كثير وأطلق كثير. ومات سليمان في الحبس بمصر، وحمل يعقوب إلى بغداد، ثم هرب منها وعاد إلى افريقية. وكان أبو القاسم يقود أثناء ذلك حرباً ضارية ضد جيش مؤنس الخادم. كان النصر فيها لمؤنس ـ الذي لقبه أمير المؤمنين بالمظفر ـ ووقع الوباء في معسكر أبي القاسم ومات من جنده عدد كبير، فعاد من سلم إلى افريقية، وجيش مؤنس الخادم يطاردهم حتى أجلاهم عن مصر ـ ووصل أبو القاسم إلى المهدية بفلول جيشه الممزق.

كان على المهدي أن يصرف جهده لضمان الاستقرار في افريقية التي كانت في حالة هياج مستمر. وكان الصراع بين القبائل قائماً بصورة مستمرة. وحدث في سنة ٣١٥ هـ = ٩٢٧ م أن قام محمد بن خرز الزناتي باجتياح معسكر لقبائل كتامة فقتل منهم خلقاً كثيراً. فعظم ذلك على المهدي فسير جيشاً كبيراً بقيادة ابنه أبي القاسم. وأسرعت قبائل زناتة بالتفرق. وسار أبو القاسم حتى وصل إلى ما وراء تاهرت. فلما عاد من حملته، خط برمحه في الأرض أساس مدينة سماها المحمدية ـ وهي المسيلة ـ وكان بنو كملان يستقرون في ناحيتها، فتوجس منهم شراً، وأمر بنقلهم إلى فحص القيروان. حتى يكونوا قريباً منه وتحت أنظاره. وانتقل خلق كثير إلى المحمدية، وأمر عاملها أن يكثر من الطعام، ويخزنه ويحتفظ به، ليكون مركز إمداد وتموين في تلك الناحية التي

تفتقر للأغذية. وتوفي المهدي (*) وقد وطد دعائم دولته، ومهد بالحكم من بعده لابنه أبي القاسم نزار. وتلقب بلقب (القائم بأمر الله).

واجه القائم بأمر الله مع بداية حكمه مجموعة من المتاعب. وثار عليه جماعة فتمكن منهم، وكان من أشدهم رجل يقال له (ابن طالوت القرشي) في ناحية طرابلس، وزعم أنه ـ ولد المهدي ـ ونهض معه أقوام زحف بهم إلى مدينة طرابلس، فقاتله أهلها، ثم تبين للبربر كذبه، فقتلوه وحملوا رأسه إلى ـ القائم بأمر الله ـ. وجهز القائم أيضاً جيشاً كثيفاً أسند قيادته إلى ـ ميسور الفتى ـ ووجهه إلى المغرب. فوصل هذا الجيش إلى فاس، ثم إلى تكرور. وهزم هناك قوة للخوارج. كما وجه جيشاً في البحر إلى جنوة. وسير جيشاً كبيراً بالغ بالنفقة عليه وتجهيزه، وأسند قيادته إلى خادمه ـ زيدان ـ ووجهه إلى مصر. فوصل هذا الجيش إلى الاسكندرية. فأخرج إليه أمير مصر ـ محمد الاخشيد جيشاً كثيفاً، قاتل جيش القائم وهزمه وقتل منه عدداً كبيراً. فعاد الجيش مهزوماً. **غير أن أكبر وأخطر ما جابهه (القائم بأمر الله) هو تلك الثورة التي قامت بها ـ زناتة ـ والتي قادها ـ أبو يزيد الخارجي ـ سنة ٣٣٣ هـ = ٩٤٤ م.**

كان أبو يزيد هذا من ـ زناتة ـ واسم والده ـ كنداد ـ من مدينة توزر ـ من قسطيلية ـ وكان كنداد يتردد على بلاد السودان للتجارة، فتزوج جارية هوارية وجاء بها إلى توزر فولدت له ـ أبا يزيد ـ الذي نشأ في توزر، وتعلم القرآن، وخالط جماعة من النكارية فمالت نفسه إلى مذهبهم، ثم سافر إلى ـ تاهرت ـ فأقام بها يعلم الصبيان إلى أن خرج أبو عبد الله الشيعي إلى سجلماسة للالتقاء بالمهدي، فانتقل أبو يزيد إلى تقبوس المدينة القريبة من توزر ـ واشترى ضيعة وأقام يعلم فيها الصبيان. **وكان مذهبه تكفير أهل الإسلام. واستباحة الأموال والدماء والخروج على السلطة.**

(*) المهدي ـ أبو محمد ـ عبيد الله العلوي. (٢٥٩ـ٣٢٢ هـ = ٨٧٢ـ٩٣٣ م) مات وعمره ثلاث وستون سنة، وكانت ولايته منذ دخل رقادة ودعي له بالامامة إلى أن توفي أربعا وعشرين سنة. قضاها في جهد مستمر للقضاء على خصومه وأعدائه. اشتهر بالخبث والدهاء والبطش. وكان ذا كفاءة عالية في إدارة الدولة، وهو يشبه في بعض صفاته أبا العباس السفاح.

وبدأ يحتسب على الناس في أفعالهم ومذاهبهم، وأمكن له تنظيم جماعة كانوا يعظمونه، ولم يزل على ذلك حتى اشتدت شوكته وكثر أتباعه. فانطلق يغير على القرى المجاورة ويحرق ويفسد، وزحف إلى ـ باغاية ـ وحصرها. وهزم جيوش القائم بأمر الله، ودخل ـ مرمجنة، أو مرماجنة ـ. فلقيه رجل من أهلها وأهدى له حماراً أشهب مليح الصورة، فركبه أبو يزيد من ذلك اليوم. وكان أبو يزيد قصيراً أعرج، يلبس جبة صوف قصيرة، قبيح الصورة. ثم إنه هزم ـ كتامة ـ. ووجه قوة من جيشه إلى ـ سبيبة ـ ففتحها وصلب عاملها وسار إلى ـ الأربس ـ ففتحها ونهبها وأحرقها. ولجأ الناس إلى الجامع فقتلهم فيه، فلما علم بذلك أهل ـ المهدية ـ استعظموه، وقالوا للقائم بأمر الله: « إن الأربس هي باب افريقية، فلو أخذت زالت دولة المهدي » فقال لهم: « لا بد أن يبلغ أبو يزيد المصلى وهو أقصى غايته ».

عرف (القائم بأمر الله) أن تأخره في مجابهة الموقف قد يؤدي إلى خروج الأمر من قبضته. فأعاد تنظيم جيوشه بسرعة. ووجه جيشاً إلى ـ رقادة ـ وجيشاً آخر إلى ـ القيروان ـ. وشرع بحشد المزيد من الجند. مما أخاف أبا يزيد فقرر السيطرة على المدن وتدميرها وقتل أهلها. فوجه ـ القائم بأمر الله ـ جيشاً بقيادة فتاه ـ ميسور ـ وكلفه بتعقب آثار أبي يزيد. كما وجه قوة من جيشه بقيادة فتاه ـ بشرى ـ إلى مدينة ـ باجة ـ. فلما علم أبا يزيد بتحرك القوة التي يقودها ـ بشرى ـ ترك كتلة جيشه وسار على رأس قوة من الفرسان الخفيفة. فالتقى بقوة بشرى عند ـ باجة، فانهزم جند أبي يزيد حتى لم يبق معه إلا أربعمائة مقاتل، فقال لهم أبو يزيد ـ « هيا بنا نباغتهم بالهجوم على معسكرهم ـ خيامهم ». فانهزم بشرى إلى تونس بعد معركة قصيرة وعنيفة. وقتل من جنده عدد كبير ـ من وجوه كتامة وغيرهم. ودخل أبو يزيد مدينة باجة، فأحرقها ونهبها وقتلوا الأطفال، وأخذوا النساء. وكتب إلى القبائل ودعاها لمبايعته. فجاءته قبائل كثيرة، فعمل الأخبية والبنود وآلات الحرب.

لما وصل القائد ـ بشرى ـ إلى تونس، جمع الناس، وأعطاهم المال، فاجتمع إليه خلق كثير، فنظمهم ووجههم لقتال أبي يزيد. فوجه إليهم أبو يزيد جيشاً، فالتقوا واقتتلوا ودارت الدائرة على جيش أبي يزيد، ورجع جيش ـ بشرى إلى تونس ظافراً.

ووقعت فتنة في تونس، ونهب أهلها دار أميرهم، فهرب. وكاتبوا أبا يزيد، فأعطاهم الأمان وولى عليهم رجلاً منهم - اسمه رحمون -. وانتقل أبو يزيد إلى - فحص أبي صالح - وخافه الناس فانتقلوا إلى القيروان، وأتاه كثير منهم خوفاً ورعباً. وأمر - القائم بأمر الله - قائده بشرى **بارسال قوات استطلاع ونشر شبكة جواسيس - عيون - لمتابعة تحركات أبي يزيد**. فمضى بشرى مع قواته نحو أبي يزيد. فلما علم هـذا وجه قوة من جنده وأمر مقدمها - قائدها - **بأن يقتل ويمثل وينهب ليرعب قلوب الناس**، ففعل ذلك، والتقى بالقائد بشرى وقواته، فاقتتلوا، وانهزم جند أبي يزيد وقتل منهم أربعة آلاف وأسر خمسمائة، فوجههم بشرى إلى المهدية مقيدين في السلاسل، فقتلهم العامة.

غضب أبو يزيد لما نزل بقواته، فجمع جوعه وسار لقتال الكتاميين، ووصل إلى الجزيرة، وجرى قتال بين طلائع القوتين، فانهزمت طلائع الكتاميين، وتبعهم البربر - إلى رقادة - **ونزل أبو يزيد بالغرب من القيروان في مائة ألف مقاتل**. ثم تحرك في اليوم التالي إلى الشرق من - رقادة -. ولم يلتفت عاملها - خليل - إلى أبي يزيد، ولم يظهر استعداداً لقتاله، وجاءه الناس يخبرونه بقربهم، فأمر أن لا يخرج أحد لقتالهم إلى أن يصل ميسور وجيشه. فلما علم أبو يزيد ذلك، وجه بعض قواته إلى القيروان، فأنشبوا القتال، فجرى بينهم قتال عظيم قتل فيه خلق كثير من أهل القيروان، وانهزموا. فصاح الناس بأميرهم خليل، فخرج من باب تونس لقتال قوات أبي يزيد - وهو كاره لهذا القتال - وأقبل أبو يزيد بجمعه، فانهزم خليل بغير قتال. ودخل القيروان واعتصم بداره وأغلق بابه - على أمل وصول ميسور -. وفعل كذلك أصحابه. ودخل البربر المدينة فقتلوا وأفسدوا وقاتلهم بعض الناس في أطراف البلد. وبعث أبو يزيد قوة بقيادة - أيوب الزويلي - اقتحمت القيروان، فنهبت وقتلت وارتكبت أعمالاً شنيعة، وحاصرت خليلاً في داره فنزل هو ومن معه بالأمان، وحمل خليل إلى أبي يزيد فقتله. وخرج شيوخ أهل القيروان إلى أبي يزيد وهو - برقادة - فسلموا عليه، وطلبوا الأمان، فماطلهم، وجنده يقتلون وينهبون، فعاودوا «الشكوى»، وقالوا له: «لقد خربت المدينة» فقال لهم: «وما يكون؟ خربت مكة والبيت المقدس». ثم أمر

بالأمان، وبقي طائفة من البربر ينهبون، فأتاهم الخبر بوصول ميسور وجيشه، فخرج عند ذلك البربر من المدينة. وعلم (القائم بأمر الله) أن قوماً من ـ بني كملان ـ قد كتبوا إلى أبي يزيد، ووعدوه أن يمكنوه من ميسور وجيشه، فأسرع القائم بالكتابة إلى ميسور وأعلمه بما توافر له من المعلومات وحذره وأمره بطردهم. فرجعوا إلى أبي يزيد ـ خائبين ـ وقالوا له: «إذا عجلت ظفرت به». فسار أبو يزيد من يومه، واصطدمت قواته بقوات ميسور، ودارت رحى المعركة، واشتد القتال، وانهزمت ميسرة أبي يزيد. فلما رأى أبو يزيد ذلك حمل على ميسور، فانهزم أصحاب ميسور، وعطف ميسور بفرسه فكبا به وسقط عنه، وقاتل أصحابه عليه ليحموه، فتوجه إليه بنو كملان الذين طردهم، فاشتد القتال حينئذ وقتل ميسور وحمل رأسه إلى أبي يزيد، وانهزم عامة عسكره. وأرسل الكتب إلى عامة البلاد يخبر بهذا الظفر، وطيف برأس ميسور بالقيروان. وعلم القائم بأمر الله بالهزيمة فخاف هو ومن معه بالمهدية، وانتقل أهلها من أرباضها إلى البلد، فاجتمعوا واحتموا بسوره، فمنعهم القائم، ووعدهم الظفر، فعادوا إلى ـ زويلة ـ واستعدوا للحصار. وأقام أبو يزيد شهرين وثمانية أيام في خيم ميسور وهو يبعث السرايا إلى كل ناحية فيغنمون ويعودون، **وأرسل سرية إلى سوسة، ففتحوها بالسيف، وقتلوا الرجال، وسبوا النساء وأحرقوها، وشقوا فروج النساء، وبقروا البطون، حتى لم يبق موضع في افريقية معمور ولا سقف مرفوع.** ومضى جميع من بقي إلى القيروان حفاة عراة. ومن تخلص من السبي مات جوعاً وعطشاً. وأمر القائم بأمر الله بحفر الخنادق حول أرباض المهدية (في آخر ربيع الآخر سنة ٣٣٣ هـ = ٩٤٤ م) وكتب إلى زيري بن مناد سيد صنهاجة وإلى سادات كتامة والقبائل يحثهم على الاجتماع بالمهدية، وقتال النكار، فتأهبوا للمسير إليه. وعلم أبو يزيد بذلك، فتحرك بسرعة أكبر وقاد قواته مباشرة ونزل بها على بعد خمسة عشر ميلاً من المهدية، ووجه سراياه إليها، فانتهبت ما وجدت في نواحي المدينة، وقتلت من صادفته، واجتمع الناس إلى ـ المهدية ـ. واتفقت كتامة وأصحاب (القائم بأمر الله) على مهاجمة معسكر أبي يزيد، والافادة من توزع سراياه وانتشارها. وعلم أبو يزيد بذلك وقد أتاه ولده ـ فضل ـ بجيشه من القيروان. فوجهه لقتال كتامة. ووقع الصدام

على بعد ستة أميال من المهدية، وعلم أبو يزيد فركب ومعه كل من بقي معه، فلقي جند ابنه منهزمين وقد قتل كثير منهم. فلما رآه الكتاميون انهزموا من غير قتال. فانطلق أبو يزيد لمطاردتهم حتى وصل إلى - باب الفتح - واقتحم بعض البربر باب الفتح - ثم عاد أبو يزيد وجيشه إلى معسكره. وعاد أبو يزيد - بعد شهر - فهاجم المهدية من قطاع - باب الفتح - ووجه قوة أخرى إلى قطاع باب بكر، ثم وقف هو أمام الخندق الذي حفره جند القائم بأمر الله - حديثاً -. ووقع اشتباك مع الحامية المدافعة عن الخندق. ثم اقتحم أبو يزيد وجنده البحر حتى بلغ الماء صدور الخيل، حتى جاوزوا السور المحدث، فانهزم من أمامهم الجند المدافعون عن الخندق. وطاردهم أبو يزيد حتى وصل إلى باب المهدية عند المصلى الذي أقيم لصلاة العيد ويقع على بعد رمية سهم من المهدية. وتفرق أصحابه في زويلة ينهبون ويقتلون، وأهلها يطلبون الأمان، والقتال عند باب الفتح مستمر بين كتامة والبربر وهم لا يعلمون ما صنع أبو يزيد في ذلك القطاع، وانقض الكتاميون على البربر، فهزموهم وقتلوا فيهم. وعلم أبو يزيد بوصول قبائل صنهاجة بقيادة زيري بن مناد، فخاف المقام، فتوجه إلى باب الفتح، ليهاجم صنهاجة وكتامة من ورائهم. فلما رأى أهل الأرباض ذلك، ظنوا أن القائم بأمر الله قد خرج بنفسه من المهدية، فكبروا وقويت نفوسهم واشتد قتالهم. فتحير أبو يزيد، وعرفه أهل تلك الناحية، فانقضوا عليه ليقتلوه، فاشتد القتال عنده، وهدم بعض أصحابه حائطاً، وخرج منه فتخلص من المعركة ووصل إلى معسكره بعد المغرب. وحجز الليل بين المتقاتلين، بعد أن انهزم البربر وتفرقوا. ثم رحل أبو يزيد إلى - ثرنوطة - وحفر خندقاً حول معسكره، واجتمع إليه خلق عظيم من افريقية والبربر وأهل نفوسة والزاب وأقاصي المغرب. فعاد وحاصر المهدية حصاراً شديداً، ومنع الناس من الدخول إليها والخروج منها. ثم قام بالهجوم عليها، فجرى قتال عظيم، وقتل جماعة من كبار قادة - القائم بأمر الله - واقتحم أبو يزيد بنفسه حتى وصل إلى قرب الباب، فعرفه بعض الجند، فقبض على لجام حصانه وصاح: «هذا أبو يزيد، فاقتلوه» فأتاه رجل من جند أبي يزيد فقطع يده وخلص أبا يزيد. ولما رأى أبو يزيد شدة قتال جند القائم بأمر الله، كتب إلى عامل القيروان وأمره بإرسال المقاتلين من

أهلها، ففعل. وعندما وصلوا قادهم للهجوم، وجرى قتال شديد، انهزم فيه أبو يزيد هزيمة منكرة، وقتل فيها جماعة من جنده. وقتل عدد اكبر من أهل القيروان.

قاد أبو يزيد هجومه الرابع على المهدية - فجرى قتال عظيم، وانصرف أبو يزيد إلى معسكره، وكثر خروج الناس من الجوع والغلاء، ففتح عند ذلك القائم بأمر الله أبواب الاهراء الذي صنعه أبوه - المهدي - وملأه بالأطعمة. وفرق ما فيه على رجاله. وعظم البلاء على الرعية حتى أكلوا الدواب والميتة. وخرج من المهدية أكثر السوقة والتجار ولم يبق بها سوى الجند، فكان البربر يأخذون من خرج ويقتلونهم ويشقون بطونهم طلباً للذهب. ثم وصلت - كتامة - فنزلت بمدينة - قسنطينة - فخاف أبو يزيد، ووجه جيشاً كبيراً لقتالهم. ووقعت معركة انتصرت فيها كتامة، ومزقت جيش أبي يزيد. وكان البربر يأتون إلى أبي يزيد من كل ناحية، فينهبون ويقتلون ويرجعون إلى منازلهم حتى أفنوا ما كان في افريقية. فلما لم يبق شيء مما يمكن نهبه، توقفوا عن المجيء إليه، ولم يبق معه سوى أهل أوراس وبني كملان. وعلم - القائم بأمر الله - بتفرق جند أبي يزيد، وجه جيشه لقتاله، ووقعت معركة ضارية طوال أيام متتالية وكثر القتل في الجندين المتحاربين. وهرب كثير من أهل المهدية إلى جزيرة صقلية وطرابلس ومصر وبلاد الروم. وعاد أبو يزيد فأمكن له حشد جيش ضخم سار به إلى المهدية وقاتل حاميتها المدافعة عنها. واشتد الضيق على الكتاميين، فاختاروا مائتي فارس من أشداء مقاتليهم للانقضاض بهجوم صاعق على قوات أبي يزيد. ونجح الهجوم فقتل عدد كبير من جيش أبي يزيد، وأسر منهم. وكاد الكتاميون يصلون إلى أبي يزيد الذي قاتل عنه رجاله بحماسة حتى خلصوه. وفرح أهل المهدية بهذا النصر، وأخذوا الأسرى في الحبال الى المدينة. ودخلت سنة ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م، وأبو يزيد قائم على حصار المهدية. والقتال مستمر بين جيشه والحامية المدافعة عنها.

ظهر في افريقية - مع بداية سنة ٣٣٤ هـ - رجل دعا الناس إلى نفسه وادعى أنه عباسي جاء من بغداد ومعه أعلام سود، فأجابه خلق كثير، وظفر به بعض أصحاب أبي يزيد، وقبض عليه وسيره إلى أبي يزيد فقتله.

هرب في تلك الفترة أيضاً بعض أصحاب أبي يزيد، وانضموا إلى معسكر القائم بأمر الله في المهدية ـ بسبب عداوة كانت بينهم ـ. وخرجوا مع جند القائم بأمر الله فقاتلوا رجال أبي يزيد، وانتصروا عليهم. فتفرق عند ذلك أصحاب أبي يزيد. ولم يبق معه غير هوارة وأهل اوراس وبني كملان وكان اعتماده عليهم. ثم اجتمع رؤساء من بقي وتشاوروا في أمرهم، واتفقوا على التوجه إلى القيروان لجمع البربر من كل ناحية والرجوع بعد ذلك إلى معسكر أبي يزيد. وركبوا خيولهم ومضوا نحو القيروان ومعهم أكثر الجند. فبعث إليهم أبو يزيد ليردهم، فلم يقبلوا منه. فرحل مسرعاً وتبعهم وليس معه اكثر من ثلاثين رجلاً، وترك جميع أثقاله. وعندما وصل إلى القيروان نزل المصلى، ولم يخرج لاستقباله أحد من أهل القيروان ـ سوى عامله ـ وخرج الصبيان يلعبون حوله ويضحكون منه.

علم ـ القائم بأمر الله ـ برحيل أبي يزيد وجنده، وخرج الناس إلى معسكره فاستولوا على أثقاله. ووجدوا الخيام والطعام وغير ذلك على حاله، فأخذوه وتقووا به، واستراحوا من شدة الحصار ورخصت الأسعار. ووجه القائم بأمر الله عماله لطرد عمال أبي يزيد من البلاد. ولما رأى أهل القيروان قلة من مع أبي يزيد من الجند، خافوا القائم، وأرادوا أن يقبضوا على أبي يزيد، ثم هابوه، فكتبوا إلى القائم وسألوه الأمان، فلم يجبهم إلى طلبهم.

لقد حدث ذلك وعامل أبي يزيد في القيروان منصرف إلى الأكل والشرب وغير ذلك، مما أغضب أبا يزيد فأنكر على عامله انصرافه عن الاعداد للحرب، وأمره بجمع الجند من القيروان، فقام العامل بجمع أهل القيروان وتحدث إليهم برقة وخوفهم من القائم بأمر الله، فخرجوا للقتال. وتسامع الناس في البلاد بذلك فجاءه المقاتلون من كل ناحية. وكان أهل المدائن والقرى لما سمعوا تفرق عساكر أبي يزيد أخذوا عماله، فمنهم من قتل ومنهم من أرسل إلى القائم بأمر الله في المهدية. وثار أهل ـ سوسة ـ فقبضوا على جماعة من أصحابه وأرسلوهم إلى القائم بأمر الله. فشكر لهم ذلك. وأرسل إليهم سبع مراكب من الطعام، فلما اجتمعت عساكر أبي يزيد، أرسل الجيوش إلى البلاد وأمرهم بالقتل والسبي والنهب والتدمير وإحراق المنازل، فوصلت قواته إلى

تونس، فدخلوها بالسيف، ونهبوا جميع ما فيها، وسبوا النساء والأطفال، وقتلوا الرجال، وهدموا المساجد، وهرب كثير من الناس إلى البحر، فغرق. وأسرع القائم بأمر الله فأرسل جيشاً إلى تونس، فخرج جيش أبي يزيد للقتال ووقعت معركة ضارية انتهت بهزيمة جيش القائم بأمر الله، وفصل الليل بين الجيشين. وانسحب جيش القائم بأمر الله إلى جبل الرصاص، ثم إلى اصطفورة. وقام جيش أبي يزيد بمطاردته فلحق به ودارت رحى معركة ثانية صبر فيها جند جيش القائم بأمر الله، فانهزم جيش أبي يزيد وقتل من جنده عدد كبير، وطاردوه حتى تونس، وأخرجوا من كان فيها من جند أبي يزيد، وقتل أكثرهم، وأخذ لهم من الطعام شيء كثير. وكان لأبي يزيد ولد اسمه ـ أيوب ـ فلما بلغه الخبر، وجه جيشاً كبيراً بقيادة ابنه، أيوب، وانضمت إليه فلول الجيش الممزق، وسار إلى تونس فقتل من عاد إليها، وأحرق ما بقي فيها، وتوجه إلى ـ باجة ـ فقتل من بها من أصحاب القائم بأمر الله، ودخلها بالسيف وأحرقها. ووقع في هذه المدة من القتل والسبي والتخريب ما لا يوصف، واتفق جماعة على قتل أبي يزيد، وأرسلوا إلى القائم، فرغبهم ووعدهم. وعلم أبو يزيد بأمرهم فقتلهم. وهجم رجال من البربر في الليل على رجل من أهل القيروان، وأخذوا ماله وثلاث بنات أبكار. فلما أصبح واجتمع الناس لصلاة الصبح، قام الرجل في الجامع. وصاح وذكر ما حل له. فقام الناس معه، وصاحوا، فاجتمع الخلق العظيم، ووصلوا إلى أبي يزيد فأسمعوه كلاماً غليظاً. فاعتذر إليهم وتلطف لهم، وأمر برد البنات، فلما انصرفوا وجدوا في طريقهم رجلاً مقتولاً، فسألوا عنه، فقيل لهم: **«إن فضل بن أبي يزيد قتله وأخذ امرأته وكانت جميلة»** فحمل الناس المقتول إلى الجامع، وقالوا: **«لا طاعة إلا للقائم بأمر الله»**. وأرادوا الوثوب بأبي يزيد، فاجتمع أصحاب أبي يزيد عنده، ولاموه، وقالوا له: **«فتحت على نفسك ما لا طاقة لك به، لا سيما والقائم قريب منا»**. فجمع أهل القيروان، واعتذر إليهم، وأعطاهم العهود أنه لا يقتل ولا ينهب ولا يأخذ الحريم. فأتاه سبي أهل تونس ـ وهم عنده ـ فوثبوا إليهم وخلصوهم.

كان ـ القائم بأمر الله ـ قد أرسل إلى مقدم من مقدميه ـ اسمه علي بن حمدون ـ وأمره بجمع الجند، وحشد من يستطيع حشده من ـ المسيلة ـ فجمع منها ومن سطيف

وغيرها، وأمكن له حشد جيش ضخم، وتبعه بعض بني هراس، فاتجه ـ علي ـ بجيشه إلى المهدية. وعلم أيوب بن أبي يزيد ـ وهو بمدينة باجة ـ بتحرك هذا الجيش، فقاد قواته وانقض بصورة مباغتة على جيش علي وهو في معسكره. فاستباح المعسكر، وقتل من استطاع قتله من جنده. وغنم أثقال الجيش، وهرب علي مع فلول جيشه الممزق. ثم علم أيوب أن قوة من جيش المهدي قد خرجت من المهدية نحو تونس، فقاد قوة من الفرسان الخفيفة، وسار بها بسرعة حتى وصل إلى هذه القوة واصطدم بها، ووقعت بين القوتين معركة ضارية قتل فيها جمع كبير من الطرفين، إلا أن قوة أيوب هي التي انتصرت، وانهزم جند القائم بأمر الله، ولكنهم اعادوا تنظيم قوتهم وخاضوا معركة ثانية، وتبعتها معركة ثالثة، ثم قرروا خوض معركة حاسمة، وعزموا على الموت، وحملوا حملة رجل واحد. فانهزم أصحاب أبي يزيد، وقتلوا قتلاً ذريعاً، وأخذت أثقالهم وعددهم. وانهزم أيوب وأصحابه إلى القيروان. وعظم ذلك على أبي يزيد، وأراد أن يهرب عن القيروان. فأشار عليه أصحابه بالتوقف وعدم التسرع. فعمل على حشد جيش كبير، وأخرج ابنه أيوب ثانية لقتال علي بن حمدون بمكان يقال له ـ بلطة ـ. ووقعت مجموعة من المعارك البعيدة عن الحسم ـ فمرة يظفر أيوب ومرة يظفر علي بن حمدون ـ. وكان علي قد عهد إلى من يثق به لحراسة المدينة. وكان يحرس باباً منها رجل اسمه ـ أحمد ـ فراسل أيوب في التسليم إليه مقابل مال يأخذه، فأجابه أيوب إلى ما طلب. وقاتل على ذلك الباب، ففتحه أحمد، ودخله أصحاب أبي يزيد فقتلوا من كان بها، وهرب علي بن حمدون ومعه ثلاثمائة فارس وأربعمائة راجل ـ مشاة ـ إلى بلاد كتامة. وكتب إلى قبائل كتامة ونفزة ومزاتة وغيرهم، فاجتمعوا وعسكروا على مدينة ـ قسنطينة ـ. فوجه علي بن حمدون قوة إلى هوارة، فقتلوا هوارة وغنموا أموالهم. وكان اعتماد أبي يزيد عليهم. فاتصل الخبر بأبي يزيد، فوجه إليهم جيشاً كبيراً وقسمه إلى مجموعات مقاتلة يتبع بعضها بعضاً. فكانت بينهم حروب كثيرة كان النصر فيها لعلي بن حمدون، فيما كان القائم بأمر الله قد وجه قواته الى تيجس وباغاية، فاستولى عليهما، وقضى على قوات أبي يزيد التي كانت تدافع عنهما.

حاول أبو يزيد الانتقام لهزائمه، فحشد جيشاً سار به إلى ـ سوسة ـ. وحاصر فيها

جيشاً قوياً من جيوش القائم بأمر الله، وانصرف لقتاله كل يوم، فكان النصر من نصيبه في يوم، والهزيمة من نصيبه في اليوم التالي، وهكذا، وعمل الدبابات والمنجنيقات فقتل من أهل سوسة خلق كثير. **وأصاب المرض القائم بأمر الله، فعهد بالملك من بعده لابنه، ولم يلبث أن توفي(*) فقام بالأمر بعده ابنه اسماعيل، وتلقب بالمنصور بالله، وكتم موت أبيه خوفاً من أن يعلم بذلك أبو يزيد. وأبقى الأمور على حالها، ولم يتسمَّ بالخليفة، ولم يغير السكة ولا الخطبة ولا البنود، وبقي على ذلك إلى أن فرغ من أمر أبي يزيد.**

وكان أول ما فعله المنصور بعد وفاة أبيه أن صنع المراكب وشحنها بالرجال، ووجهها من المهدية، إلى سوسة بقيادة الكاتب رشيق ويعقوب بن إسحق وأمرهما أن لا يقاتلا حتى يأمرهما، ثم سار من الغد نحو سوسة ولم يعلم أصحابه ذلك، فلما انتصف الطريق علموا، فتضرعوا إليه وسألوه أن يعود، وألا يخاطر بنفسه، فعاد وأرسل الى رشيق ويعقوب ببدء القتال والجد فيه. فوصلوا إلى سوسة وقد أعدّ أبو يزيد الحطب لإحراق السور، وعمل دبابة عظيمة. وانضمت قوات المنصور الباقية في سوسة إلى القوات التي وصلت عن طريق البحر. وانطلقت لقتال جيش أبي يزيد الذي ركب للقتال بنفسه. واقتتلوا واشتدت الحرب، وانهزم بعض أصحاب المنصور حتى دخلوا المدينة، فألقى رشيق النار في الحطب الذي جمعه أبو يزيد وفي الدبابة، فاشتعلت النار وأظلم الجو بالدخان. فلما رأى أبو يزيد وأصحابه ذلك خافوا وظنوا أن جندهم في تلك الناحية قد هلكوا، ولهذا تمكن أصحاب المنصور من إحراق الحطب، إذ لم ير بعضهم

(*) القائم بأمر الله أبو القاسم محمد بن عبدالله المهدي العلوي صاحب افريقية - توفي لثلاث عشرة مضت من شوال سنة ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م. قال عنه الحافظ أبو عبدالله الذهبي: «كان القائم شراً من أبيه المهدي، زنديقاً ملعوناً، وذكر القاضي عبدالجبار أنه أظهر سب الانبياء عليهم السلام. وكان مناديه ينادي العنوا الغار وما حوى. وقتل خلقاً من العلماء. وكان يراسل أبا طاهر القرمطي إلى البحرين وهجر، ويأمره باحراق المساجد والمصاحف» وقال ابن مسكويه تعليقاً على ذلك: «ان التدبير إذا بني على أصول خارجة عن الصواب، وإن خفي في الابتداء، ظهر على طول الزمان. ومثل ذلك مثل من ينحرف عن جادة الطريق انحرافاً يسيراً، ولا يظهر انحرافه في المبدأ، حتى إذا طال به المسير، بعد عن السمت. وكلما ازداد امعاناً في السير، زاد بعده عن الجادة، وظهر خطأه، وتفاوت أمره».

بعضاً. فانهزم أبو يزيد وأصحابه، وخرج جند المنصور فوضعوا السيف فيمن تخلف من البربر، وأحرقوا لهم خيامهم. ومضى أبو يزيد هارباً بسرعة حتى وصل القيروان ولما أراد دخولها منعه أهلها، ورجعوا إلى دار عامله فحصروه وأرادوا كسر الباب، فنثر الدنانير على رؤوس الناس، فاشتغلوا عنه، فخرج إلى أبي يزيد. وأخذ أبو يزيد امرأته أم أيوب، وتبعه أصحابه بعيالاتهم، ورحلوا إلى ناحية سبيبة ـ وهي على مسافة يومين من القيروان؛ فنزلوها.

علم المنصور بما فعله أهل القيروان، فزال غضبه عنهم، وسرته فعلتهم بأبي يزيد، فسار من المهدية إلى ـ سوسة ـ. وكتب كتاباً إلى أهل القيروان، أعطاهم فيه الأمان، فطابت نفوسهم وسكنت، ثم سار من سوسة إلى القيروان، فخرج أهلها لاستقباله، فعاد وأمنهم ووعدهم خيراً، ووجد في القيروان من حـرم أبي يزيد وأولاده جماعة، فحملهم إلى المهدية، وأجرى عليهم الأرزاق. وانقطعت الأخبار عن أبي يزيد، فوجه سرية استطلاع لمعرفة أخبار القيروان. وعلم المنصور فوجه سرية لمقاتلتها، فالتقوا واقتتلوا، ووجه قائد سرية أبي يزيد قوة لنصب كمين، ثم هاجم سرية المنصور وتظاهر بالانسحاب فطاردته سرية المنصور حتى موضع الكمين، وتعرض أكثر أفراد السرية للقتل. وتسامع الناس بأخبار هذه الوقعة، فتسارعوا إلى أبي يزيد، وانضموا إليه، فكثر جمعه، وعاد بقواته لمهاجمة القيروان. وكان المنصور قد أمر بحفر خندق على معسكره. فوزع أبو يزيد جيشه على ثلاث فرق. وتوجه هو بشجعان رجاله إلى خندق المنصور. فاقتتلوا، وعظم الأمر، وكان الظفر للمنصور، ثم عاودوا القتال، فباشر المنصور القتال بنفسه وجعل يحمل يميناً وشمالاً والمظلة على رأسه كالعلم ومعه خمسمائة فارس وأبو يزيد في مقدار ثلاثين ألفاً. فانهزم أصحاب المنصور هزيمة منكرة حتى دخل عليهم جند أبو يزيد خندقهم ونهبوه وبقي المنصور وليس معه أكثر من عشرين فارساً. وأقبل أبو يزيد نحو المنصور، فلما رآه أشهر سيفه، وثبت مكانه، وحمل بنفسه على أبي يزيد حتى كاد يقتله، وولى أبو يزيد هارباً، وقتل المنصور من أدركه منهم. وأرسل من يعيد إليه جنده، فعادوا، وكان بعضهم قد سار على طريق المهدية، وسلك آخرون طريق سوسة. واستمر القتال حتى الظهر، وقتل من الجندين عدد كبير، **وكان**

يوماً من الأيام المشهورة لم يكن في ماضي الأيام مثله. ورأى الناس من شجاعة المنصور ما لم يظنوه، فزادت هيبته في قلوبهم. ورحل أبو يزيد عن القيروان، ثم أعاد تنظيم قواته ورجع إلى القيروان، فلم يخرج لقتاله أحد، ففعل ذلك غير مرة. ونادى منادي المنصور أن من أتى برأس أبي يزيد فله عشرة آلاف دينار. ثم عمل على حشد قواته، وزجها في القتال، فجرى قتال شديد، فانهزم جيش المنصور، فأعاد تنظيم قواته وهاجم وانتصر. ثم افترق الجيشان وقد انتصف بعضهم من بعض، وقتل بينهم جمع عظيم. وعادت الحرب فكانت راية النصر تنتقل نوباً، مرة لهذا، ومرة لهذا. وعمل أبو يزيد على ارسال السرايا، لقطع الطريق بين المهدية والقيروان وسوسة. ثم إنه أرسل إلى المنصور وطلب منه أن يسلم إليه حرمه وعياله الذين خلفهم بالقيروان وأخذهم المنصور، ووعده إن فعل ذلك دخل في طاعته على أن يؤمنه وأصحابه. وحلف له بأغلظ الأيمان على ذلك. فأجابه المنصور إلى ما طلب، وأحضر عياله وسيرهم إليه مكرمين بعد أن وصلهم وأحسن كسوتهم وأكرمهم. فلما وصلوا إليه، نكث جميع ما عقده، وقال: «**إنما وجههم خوفاً مني**». ومضت بقية أيام سنة ٣٣٤ هـ، ودخلت سنة **٣٣٥ هـ = ٩٤٦ م** وهم على حالهم في القتال. **وجرى مع بداية العام الجديد قتال بين الفريقين ما سمع بمثله.** فقد قاد أبو يزيد جيشه في هجوم عنيف، وانقضَّ البربر على المنصور الذي رد عليهم بهجوم مضاد، وراح يضرب فيهم فانهزموا منه بعد أن قتل خلق كثير. فلما انتصف المحرم، أعاد المنصور تنظيم قواته، فجعل في الميمنة أهل افريقية وجعل كتامة في الميسرة ووقف هو وجنده الخاص في القلب. فوقع بينه وبين جيش أبي يزيد قتال شديد. وحمل أبو يزيد على الميمنة فهزمها، ثم حمل على القلب فبادر إليه المنصور، وقال: «**هذا يوم الفتح إن شاء الله تعالى**». وحمل هو ومن معه حملة رجل واحد، فانهزم أبو يزيد، وأخذت السيوف أصحابه فولوا منهزمين، وأسلموا أثقالهم. وهرب أبو يزيد على وجهه فقتل من أصحابه ما لا يحصى. فكان ما أخذه أطفال القيروان من رؤوس القتلى عشرة آلاف رأس وسار أبو يزيد إلى ـ تاه مديت ـ. وأعاد المنصور تنظيم قواته، وتجهز لمطاردته. واستخلف على المهدية ـ مذام الصقلي ـ. وسار نحو مدينة ـ باغاية ـ حيث علم أن أبا يزيد قد عمل على

حصارها لأنها أغلقت أبوابها في وجهه عندما سار إليها منهزماً بعد معركته السابقة. فأدركه المنصور ـ وقد كاد يفتحها ـ. فلما قرب منه، هرب أبو يزيد. ومضى يبحث عن مكان يتحصَّن فيه، فكان كلما قصد موضعاً وجد أن المنصور قد سبقه إليه، حتى وصل طبنة. والتقى المنصور هناك برسل بعث بهم ـ محمد بن خزر الزناتي ـ وهو من أعيان أصحاب أبي يزيد. وقد جاؤوا بطلب الأمان، فأمنه المنصور، وأمره أن يرصد تحركات أبي يزيد، الذي استمر في الهرب حتى وصل إلى جبل للبربر ـ يسمى برزال ـ وأهله على مذهب أبي يزيد، وسلك رمال الصحراء ليختفي أثره. فاجتمع معه خلق كثير، فعاد بهم إلى نواحي ـ مقبرة ـ والمنصور بها. فعمل أبو يزيد على نصب الكمائن. ووزع جنده فيها. فلما وصل المنصور كشف أمر الكمائن. وتقدم منها حذراً. فعمل أبو يزيد عندها على إعادة تجميع قواته وتنظيمها وقادها إلى المعركة. جرى قتال صاخب انهزمت فيه ميمنة المنصور، فقام المنصور بنفسه بقيادة هجوم مضاد، هزم فيه أبو يزيد، وأسلمته هزيمته الى جبل ـ سارات ـ فتابع المنصور طريقه لمطاردته حتى دخل مدينة المسيلة، ثم سار في أعقاب أبي يزيد عبر جبال وعرة وأودية سحيقة خشنة الأرض. لكن الأدلاء منعوه من التوغل في أرض لم يسلكها من قبل جيش قط. وان ما وراء ذلك رمال بلاد السودان وقفارها، وليس فيها عمارة. وأن أبا يزيد اختار الموت جوعاً وعطشاً على القتل بالسيف. ورأى المنصور صعوبة الحصول على التموين لجيشه، فقرر العودة إلى بلاد صنهاجة. ووصل إلى موضع يقال له ـ قرية دمرة ـ فاتصل به الأمير زيري بن مناد الصنهاجي الحميري ومعه مقاتلو صنهاجة ـ وزيري هذا هو جد بني باديس ملوك افريقية فيما بعد ـ. فأكرمه المنصور وأحسن إليه. كما وصل إلى المنصور كتاب من ـ محمد بن خزر ـ أعلمه فيه عن مكان أبي يزيد في الصحراء. ولكن المنصور أصيب بوعكة منعته من التحرك، فلما أفاق من مرضه، رحل إلى ـ المسيلة ـ فوجد أن أبا يزيد قد سبقه إليها، وأقام على حصارها، فلما بلغه تقدم المنصور بجيشه هرب منه نحو بلاد السودان. لكن بني كملان خدعوه ومنعوه من الاستمرار في الهرب، فصعد إلى جبال كتامة وعجيسة وغيرها، وتحصن بها، واجتمع إليه أهلها، وصاروا ينزلون يتخطفون الناس. فسار المنصور إليه، فلم ينزل أبو يزيد لقتاله، فلما

عاد قام أبو يزيد بالانقضاض على مؤخرة جيش المنصور ـ ساقته ـ فرجع المنصور ووقعت المعركة، وانهزم أبو يزيد واستسلم أولاده وأصحابه للأسر. ولحق به فارسان، فعقر فرسه وسقط عنه، فأركبه بعض أصحابه، ولحقه زيري بن مناد فطعنه فألقاه، وكثر القتال عليه، فخلصه أصحابه وخلصوا معه. وتبعهم جند المنصور فقتلوا منهم ما زاد على عشرة آلاف مقاتل. ثم سار المنصور في أثره، فاقتتلوا أيضاً أشد قتال. ولم يقدر أحد الفريقين على الانتصار لضيق المكان وخشونته، ثم انهزم أبو يزيد أيضاً واحترقت أثقاله وما فيها. **وصعد جنده إلى قمم الجبال وأخذوا في دفع الصخور والقائها على جند المنصور. واشتد القتال حول المنصور حتى تماسك الجند بالأيدي، وكثر القتل حتى ظنوا أنه الفناء.** وافترقوا على السواء. والتجأ أبو يزيد إلى قلعة منيعة للكتاميين فاحتمى بها. وفي ذلك اليوم. أتى إلى المنصور جند له من كتامة ومعهم رجل ظهر في أرضهم وادعى الربوبية، فأمر المنصور بقتله. وأقبلت هوارة، وأكثر من كان مع أبي يزيد، يطلبون الأمان، فأمنهم المنصور. وسار إلى قلعة كتامة، فحصر أبا يزيد فيها، وفرق جنده حولها، فاشتبك جند أبي يزيد مع جنده بالنبال ـ السهام ـ وزحف إليها المنصور غير مرة، ففي آخرها ملك أصحابه بعض القلعة، وألقوا فيها النيران، وانهزم أصحاب أبي يزيد وقتلوا قتلاً ذريعاً. ودخل أبو يزيد وأولاده وأعيان أصحابه الى قصر في القلعة واجتمعوا فيه، فاحترقت أبوابه وأدركهم القتل. فأمر المنصور بإشعال النار في شعاب الجبل، وبين يديه، لئلا يهرب أبو يزيد. فصار الليل كالنهار. فلما كان آخر الليل، خرج أصحابه ـ وهم يحملونه على أيديهم ـ وانقضوا بهجوم صاعق. وتمكنوا من فتح ثغرة، ونزل من القلعة خلق كثير، فأخذوا أسرى. وأفادوا بخروج أبي يزيد. فأمر المنصور قوات للبحث عنه وقال: «ما أظنه إلا قريباً منا». فبينما هم كذلك، إذ جاء ثلاثة من أصحاب أبي يزيد وهم يحملونه. وحمل الى المنصور فسجد شكراً لله تعالى والناس يكبرون حوله. ومات أبو يزيد متأثراً بجراحه. فأمر المنصور بسلخ جلده وحشاه تبناً، ووضعه في قفص عمل له، ووضع معه قردين يلعبان عليه. وأمر بكتابة الكتب الى سائر البلاد بالبشارة. ثم خرج على المنصور عدد من الخوارج ـ منهم محمد بن خزر ـ وكان يريد نصرة أبي يزيد.

فظفر به المنصور وقتله (سنة ٣٣٦ هـ = ٩٤٧ م). وخرج أيضاً - فضل بن أبي يزيد، وأفسد وقطع الطريق فغدر به بعض أصحابه وقتله. وحمل رأسه الى المنصور. وعاد المنصور بعدها الى المهدية.

* * *

لقد صرفت ثورة أبي يزيد خلفاء المهدي عن كل تفكير للتوسع - نحو مصر - وشغلتهم بأنفسهم طوال ثلاث سنوات اتصل فيها القتال، واستنزفت حربها كل جهد. وتوفي الأخشيد(*) وثورة أبي يزيد في ذروة قوتها وشدتها، وجاء كافور الى حكم مصر، فلما انتهت ثورة أبي يزيد، انصرف المنصور لاعادة تنظيم أمور دولته التي أنهكتها الحرب. كما أن الصراع المستمر في جزيرة صقلية، تطلب تركيز جهد خاص واهتمام خاص للقضاء على حركات التمرد من جهة، ولمحاربة الروم من جهة ثانية - على نحو ما حدث في سنتي ٣٣٦ و ٣٤٠ هـ - ولقد استطاع المنصور توطيد دعائم دولته، غير أن المنية عاجلته(**) فمات ولما يحقق الهدف الكبير الذي وضعه المهدي لدولته وهو الاستيلاء على مصر.

(*) الأخشيد - هو لقب أبي بكر محمد بن طغج صاحب مصر (٢٦٨ - ٣٣٥ هـ = ٨٨١ - ٩٤٦ م) ولد ببغداد، ومات بدمشق، وكان له حكم مصر. وولي الأمر من بعده ابنه أبو القاسم أنوجور - وكان صغيراً. فاستضعفه قائد جند الأخشيد - كافور الخادم الاسود - فحكم عليه. وكان الأخشيد - ابن طغج - جباناً، شديد التيقظ في حروبه. وكان جيشه يحتوي على اربعمائة رجل وله خمسة آلاف مملوك، يحرسونه بالليل نوبة، كل نوبة ألفا مملوك، ويوكل بجانب خيمته، ثم لا يثق بعد ذلك فيمضي إلى خيم الفراشين فينام. ولقب **الأخشيد** هو لقب ملوك ما وراء النهر - إذ كان أصل ابن طغج من فرغانة - ولقب الأخشيد عندهم مثل لقب **قيصر** عند الروم ولقب **كسرى** عند الفرس ولقب **الافشين** عند أشر وسنة ولقب **خوارزم شاه** في خوارزم. ولقب **خاقان** عند الترك، ولقب **صول** عند أهل جرجان، ولقب **الاصبهذ** في أذربيجان. **وسالار** في طبرستان. ولقب **أمير المؤمنين** عند المسلمين. وكان الأخشيد على مذهب الجبائي المعتزلي.

(**) المنصور بالله - أبو الطاهر اسماعيل بن القائم أبي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي - ثالث خلفاء الفاطميين (٣٠٢ - ٣٤١ هـ = ٩١٤ - ٩٥٢ م) كانت مدة خلافته سبع سنين وستة أشهر، وكان خطيباً بليغاً، يخترع الخطبة لوقته. اشتهر في حربه بالشجاعة والعقل. خلف خمس بنين وخمس بنات. وولي من بعده ابنه معد الذي تلقب بلقب المعز لدين الله - وكان عمره أربعاً وعشرين سنة.

ب ـ المعز لدين الله في مصر والشام.

مضى على قيام الدولة العلوية ـ الفاطمية ـ زهاء نصف قرن عندما انتهت إليه الخلافة، وسبقه في هذه الخلافة ثلاثة: المهدي فالقائم فالمنصور، وأصبح بنيان الدولة محكماً، فكان أول ما عمله المعز لدين الله وقد آلت إليه الخلافة، أن أعاد تنظيم إدارة مملكته، ثم انطلق بجولة في بعض أرجاء مملكته، فصعد جبال أوراس، التي بقيت ملجأ وملاذاً لكل خارج على سلطة الدولة، وفيها بنو كملان ومليلة وقبيلتان من هوارة ممن لم يدخلوا في طاعة من تقدمه، فأطاعوا المعز ودخلوا معه البلاد. وأمر نوابه بالإحسان إلى البربر، فلم يبق منهم أحد إلا أتاه. وأحسن إليهم المعز وعظم أمره. وكان في جملة من استأمن إليه ـ محمد بن خزر الزناتي، أخو معبد، فأمنه المعز وأحسن إليه.

ولكن أقاصي المغرب بقيت بعيدة عن سيطرة العلويين ـ الفاطميين ـ فقرر المعز اخضاعه ونظم جيشاً كثيفاً، أسند قيادته إلى جوهر الصقلي ـ أبي الحسن ـ والذي كان قد علت مرتبته وأصبح وزيراً وكلفه بالتوجه إلى المغرب، وضم إليه قوات من القبائل مع امرائها وفي طليعتهم ـ زيري بن مناد الصنهاجي ـ. فسار جوهر إلى ـ تاهرت ـ حيث جاءه ـ يعلى بن محمد الزناتي ـ فأكرمه جوهر وأحسن إليه، غير أن يعلى الزناتي عاد فأعلن تمرده، فقبض عليه جوهر، وثار رجال يعلى، فقاتلهم جوهر وهزمهم وقام بمطاردتهم حتى مدينة ـ أفكان ـ ودخلها بالسيف، ونهبها ونهب قصور يعلى، وأخذ ولده ـ وكان صبياً ـ فأسره. وأمر بهدم ـ أفكان واحراقها بالنار. ثم سار منها إلى مدينة ـ فاس ـ وكان أميرها أحمد بن بكر ـ فقام بإغلاق أبواب مدينته واعتصم فيها، وألقى جوهـر الحصار على ـ فاس ـ وقاتل أهلها مدة، فلم يظفر بها. ووصلته هدايا الأمراء الفاطميين وهو بأقاصي السوس، واشاروا على جوهر وأصحابه بالرحيل إلى سجلماسة. حيث كانت قد مضت فترة ستة عشر عاماً على أميرها، محمد بن واسول، وهو مستقل بحكمها، وتلقب بلقب الشاكر لله وخوطب بأمير المؤمنين وضرب النقود باسمه، فلما علم محمد بن واسول بتوجه جوهر نحوه، هرب من سجلماسة، ثم أراد الرجوع إليها، فلقيه، أقوام وأخذوه أسيراً وحملوه إلى جوهر. ومضى جوهر حتى وصل إلى المحيط الأطلسي ـ وأمر أن يصطاد له من سمكه، ووضع الصيد في قلال

ـ جرار ـ ماء، وأرسلها إلى المعز. وسار في تلك البلاد جميعها، فافتتحها وعاد إلى فاس، فقاتلها مدة طويلة. فعمل زيري بن مناد الصنهاجي ـ وكانت الامارة نوباً بينه وبين جوهر ـ على اختيار مجموعة من أشداء رجاله، وأمرهم بأخذ السلاليم والانقضاض على ـ فاس ـ. فصعد الرجال إلى السور الأدنى في السلاليم، وأهل فاس آمنون، وقتلوا من وجدوا عليه من المقاتلة، ونزلوا إلى السور الثاني، وفتحوا الأبواب، وأشعلوا المشاعل، وضربوا الطبول، فلما سمعها جوهر ركب في جنده، ودخل فاس، فاختفى حاكمها، إلا أنه أمكن العثور عليه واعتقاله بعد يومين ـ فوضع مع حاكم سجلماسة، ثم حملا في قفصين إلى المعز بالمهدية. واعطيت امارة تاهرت إلى زيري بن مناد الصنهاجي ـ وعاد جوهر ظافراً (في رمضان سنة ٣٤٨ هـ = ٩٥٩ م).

لم يكن باستطاعة الحاكم العلوي ـ المعز لدين الله ـ المغامرة باقتحام مصر، وقد عرف أن حاكمها ـ كافور الاخشيدي ـ (*) قد أحكم الأمور فيها، حتى إن دعاته في مصر كتبوا له: «**إذا زال الحجر الأسود، ملك مولانا المعز الدنيا كلها ـ ويعنون بالحجر الأسود الاستاذ كافوراً الأخشيدي الخصي**». وكان كافور يومئذ أمير مصر نيابة عن ابن الأخشيد، وعن أمير الشام الحسن بن عبيد الله بن طغج، وكان الحسن هذا هو الأمير إلا أنه كان ضعيفاً رخواً، فطمع الجنود فيه وكرهوه وكرههم، مما ساعد كافوراً على أن يستبد بالحسن ويتحكم فيه. وأفاد داعية المعز في القاهرة ـ أبو جعفر بن نصر ـ من هذا

(*) أبو المسك الاستاذ كافور الحبشي الأسود الخصي الخادم الاخشيدي. اشتراه الأخشيد وتقدم عنده حتى صار من اكبر قواده لعقله ورأيه وشجاعته، ثم صار اتابك ـ قائد جيش ـ ولده من بعده، وكان صبياً، فبقي الاسم لأبي القاسم أنوجور والحكم لكافور، فأحسن سياسة الأمور حتى مات أنوجور سنة ٣٤٩ هـ. وأقام كافور في الملك بعده أخاه علياً حتى مات هذا في بداية سنة ٣٥٥ هـ وأصبح كافور هو أمير مصر. وكان كافور يدني الشعراء ويجيزهم. وقصته مع المتنبي من القصص الشهيرة. وكانت تقرأ عنده في كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية، وله ندماء. وكان عظيم الهيبة، وله حجاب يمتنع عن الامراء، وله جوار مغنيات، زاد ملكه على ملك مولاه الاخشيد، وكان كريماً كثير الخلع والهبات، خبيراً بالسياسة فطناً ذكياً جيد العقل داهية، وكان يداوم الجلوس غدوة وعشية لقضاء حوائج الناس وكان يتهجد، ويمرغ وجهه ساجداً، ويقول: «اللهم لا تسلط علي مخلوقاً». مات سنة ٣٥٦ هـ = ٩٦٦ م.

الموقف، فتقرب إلى الحسن، وضمه إلى الشيعة، وقال له: «**هؤلاء القوم قد طمعوا فيك، والمعز لك مثل الوالد، فإن شئت كاتبته ليشد منك، ويكون من وراء ظهرك**» فرد عليه الحسن: «أي والله، قد أحرقوا قلبي». وكتب إلى المعز يخبره. وأراد المعز الاستجابة لطلب الحسن، والافادة من هذه الفرصة، لكن أم المعز منعته من ذلك، وسألته تأخير كل عمل لتحج خفية ـ وتستطلع أحوال مصر ـ فأجابها. وحجت، فلما وصلت إلى مصر، علم الاستاذ كافور الاخشيدي، فجاء إليها وخدمها وحمل إليها الهدايا، وبعث في خدمتها أجناداً، فلما رجعت من حجها، منعت ولدها المعز من غزو مصر. ثم تطورت الأحداث لمصلحة المعز لدين الله، فقد تحرك الروم وقاموا بغزو بلاد الشام، واستولوا على الثغور وطرسوس وانطاكية وأذنة وعين زربة والمصيصة وغيرها. وفرح المعز بمصاب المسلمين. وبلغه أن بني بويه قد غلبوا على بني العباس، حتى لم يعد لامراء المسلمين العباسيين أمر ولا نهي، فاشتد طمعه في البلاد. ومات كافور الاخشيدي فاختلفت القلوب في مصر، ووقع بها غلاء شديد، **وامتلأت البلاد رفضاً وتشيعاً وسباً للصحابة. ففي بغداد أصبح معز الدولة البويهي ـ والبويهيون من الشيعة ـ هو المستبد بأمور الدولة، واستبد بنو حمدان ببلاد الشام. وتحكم العلويون بإفريقية، والقرامطة يعيثون في الأرض فساداً ـ وكل ملوك البلاد ـ مصراً وشاماً وعراقاً وخراسان وغير ذلك من البلاد كانوا رفضاً، وكذلك الحجاز وغيره، فكثر السب والتكفير منهم للصحابة.** وباتت كل الظروف مناسبة للاستيلاء على مصر ـ فشرع المعز لدين الله بالعمل لاغتنام الفرصة.

جهز المعز لدين الله جيشاً ضخماً من مائة ألف مقاتل، وعين لقيادته وزيره جوهر الصقلي. وأصحبه من الأموال والخزائن ما لا يحصى، وأطلق يده في جميع ذلك، وأفرغ الذهب في صور الأرحاء ـ حجر الطاحون ـ وحملها على الجمال لعظم ذلك في قلوب الناس (*) . وسار جوهر بجيشه، فلما اتصل خبر مسيره إلى جند الجيش

(*) وفي ذلك قال شاعر الأندلس محمد بن هانىء قصيدته المشهورة وهي:

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع	وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كأن الافق سد بمثله	فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

الاخشيدي بمصر ، هربوا عنها جميعهم قبل وصوله ، ثم إنه وصلها يوم ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م . وأقيمت الدعوة للمعز في الجامع العتيق ولما كان يوم الجمعة من منتصف شهر رمضان ، صعد جوهر خطيباً ، وخطب ودعا لمولاه المعز بإفريقية . ثم سار إلى جامع ابن طولون ، **وأمر المؤذن فأذن (بحيَّ على العمل) بدلاً من (حي على الفلاح) وهو أول ما أذن بمصر ـ وجهر في الصلاة (ببسم الله الرحمن الرحيم) .**

ولما استقر جوهر بمصر شرع في بناء القاهرة . وانصرف جوهر لاعادة تنظيم الأمور في مصر . فلما شعر أن الأمور قد استقرت له . وجه جيشاً إلى بلاد الشام بقيادة أحد قادته ـ جعفر بن فلاح الكتامي ـ . فسار جعفر حتى وصل ـ الرملة ـ فاصطدم بجيش قاده ـ أبو محمد الحسن بن عبيدالله بن طغج ـ وجرت بينهما وقائع ومعارك كان الظفر فيها لجعفر بن فلاح ، وأسر ابن طغج وغيره من القواد ، فسيرهم إلى جوهر الذي أرسلهم إلى المعز بإفريقية . ودخل جعفر بن فلاح عنوة إلى الرملة ، فقتل كثيراً من أهل البلد ، ثم أمن من بقي ، وجبى الخراج ، وسار إلى طبرية ، فرأى أن أميرها ـ ابن ملهم ـ قد أقام الدعوة للمعز لدين الله ، فسار إلى دمشق ، فقاتله أهلها ، فظفر بهم وملك البلد ، ونهب بعضه وكف عن الباقي ، وأقام الخطبة للمعز ـ يوم الجمعة لأيام خلت من المحرم سنة ٣٥٩ هـ = ٩٦٩ م . وقطعت الخطبة العباسية . وثار أهل دمشق في الجمعة التالية بسبب قطع الدعاء للخليفة العباسي . فقاتلهم جعفر بن فلاح ومن معه قتالاً شديداً ، وصبر أهل دمشق ، ثم افترقوا آخر النهار . فلما كان الغد تزاحف الفريقان ،

= فلـم أدر إذ ودعـت كيـف أودع ... ولم أدر إذ شيعـت كيـف أشيـع
الا إن هـذا حشـد مـن لم يـذق لـه ... غـرار الكـرى جفـن ولابـات يهجع
إذا حـل في أرض بنـاهـا مـدائنـا ... وإن سار عن أرض غدت وهي بلقع
تحل بيـوت المـال حيـث محلـه ... وجـم العطـايـا والرواق المرفـع
وكبـرت الفـرسـان لله إذ بـدا ... وظـل السـلاح المنتضى يتقعقـع
وعب عباب الموكـب الفخـم حـولـه ... وزف كما زف الصبـاح الملمـع
رحلـت إلى الفسطـاط أول رحلـة ... بـأيمن فـال في الذي أنـت تجمـع
فـإن يـك في مصـر ظماء لمـورد ... فقد جاءهـم نيـل سـوى النيـل يهرع
ويممهـم مـن لا يغـار بنعمـة ... فيسلبهـم لكـن يـزيـد فيـوسـع

واقتتلوا، وكثر القتلى من الجانبين، ودام القتال، فعاد عسكر دمشق منهزمين. وقام الشريف أبو القاسم بن أبي يعلى الهاشمي ـ وكان جليل القدر نافذ الحكم في أهل دمشق ـ فحرضهم على متابعة الحرب، وأمرهم بالصبر. وواصل المغاربة الحملات على الدماشقة حتى ألجؤوهم إلى باب البلد، ووصل المغاربة إلى قصر حجاج ونهبوا ما وجدوا. فلما رأى الشريف أبو القاسم ما لقي الناس من المغاربة، خرجوا من البلد ليلاً، فأصبح الناس حيارى. ولكن الشريف الجعفري خرج إلى جعفر بن فلاح بطلب الصلح، فأعاده ابن فلاح وأمره بتسكين الناس وتطييب قلوبهم. ووعدهم بالجميل، ففعل الشريف الجعفري ما أمر به. وتقدم إلى جند دمشق وإلى العامة بلزوم منازلهم وأن لا يخرجوا منها إلى أن يدخل جعفر بن فلاح البلد ويطوف فيه ويعود إلى معسكره خارج دمشق. ففعل أهل دمشق ذلك، ودخل المغاربة البلد وعاثوا فيه فساداً ونهبوا منه، فثار الناس وحملوا عليهم ووضعوا السيف فيهم، فقتلوا منهم جماعة، وشرعوا في تحصين البلد وحفر الخنادق، وعزموا على اصطلاء الحرب وبذل النفوس للدفاع عن البلد. وأحجمت المغاربة عنهم. ومشى الناس إلى الشريف أبي القاسم بن أبي يعلى الهاشمي، فطلبوا منه أن يسعى فيما يعود بصلاح الحال، ففعل. وأمكن الوصول إلى اتفاق على الصلح. وكان الحريق قد أتى على عدة كثيرة من الدور وقت الحرب. ودخل جعفر بن فلاح ومعه صاحب الشرطة إلى البلد، فصلى مع الناس صلاة الجمعة، وسكنهم وطيب قلوبهم، وقبض على جماعة من الذين اشتركوا في الثورة ـ وفي مقدمتهم الشريف أبو القاسم ـ وسيره إلى مصر. واستقر أمر دمشق، وأصبحت خاضعة لحكم المعز لدين الله.

ثورة الزناتي ضد المعز في أفريقية.

عندما كانت الأحداث تتتابع متسارعة بشكل مثير على جبهة الشام ومصر، حدثت ثورة ضد المعز في افريقية، فقد خرج فيها ـ أبو خزر الزناتي ـ واجتمع إليه جموع عظيمة من البربر والنكار ـ الثوار ـ فخرج المعز يريد قتاله بنفسه حتى بلغ مدينة ـ باغاية ـ. وكان أبو خزر قريباً منها وهو يقاتل نائب المعز عليها. فلما سمع أبو خزر بقرب المعز، تفرقت عنه جموعه. وسار المعز لمطاردته، فسلك أبو خزر الأوعار، فعاد

المعز وأمر أبا الفتوح يوسف بلكين بن زيري بالمسير لمطاردته حيثما اتجه. فسار في أثره حتى خفي عليه خبره، ووصل المعز إلى مستقره بالمنصورية. وما هي إلا برهة حتى وصل إليه أبو خزر الزناتي مستأمناً وطالباً الدخول في طاعته. وقبل منه المعز ذلك وفرح به وأجرى عليه رزقاً كثيراً. ووصل عقيب ذلك أيضاً رسول من قبل جوهر أعلمه بإقامة الدعوة له في مصر والشام. ودعاه إلى المسير إليه، ففرح المعز فرحاً شديداً، أظهره لكافة الناس. ومدحه الشعراء (*).

انطلق دعاة الشيعة، من قاعدتهم الجديدة دمشق، لفرض سيطرتهم على بلاد الشام. وأمكن لهم في السنة التالية (٣٦٠ هـ = ٩٧٠ م) فرض هيمنتهم على الحمدانيين، فخطب قرعوية ـ غلام سيف الدولة بن حمدان وأبو المعالي بن سيف الدولة، بالدعاء في حلب وحمص للمعز لدين الله العلوي صاحب المغرب ومصر. **وفي العاشر من المحرم من هذه السنة ذاتها (٣٦٠ هـ = ٩٧٠ م) عملت الرافضة بدعتهم الشنعاء، فغلقت الأسواق في كل بلاد الإسلام. ودارت النساء سافرات عن وجوههن، ينحن على الحسين بن علي رضوان الله عليهما، ويلطمن وجوههن وحج بالناس من العراق الشريف النقيب أبو أحمد الموسوي والد الرضي والمرتضى، والثلاثة رافضة، وهم محط رحال الشيعة في زمانهم.**

أصبح باستطاعة المعز لدين الله مغادرة عاصمته القديمة ـ المهدية ـ والانتقال إلى عاصمة مملكته الجديدة ـ القاهرة ـ. فقد مضت فترة زادت على الثلاث سنوات منذ أن دخل جوهر بجيشه إلى مصر. فانتقل المعز إلى سردانية ـ القريبة من القيروان ـ ولحقه بها رجاله وعماله وأهل بيته وجميع ما كان له في قصره من أموال وأمتعة وغير ذلك، حتى ان الدنانير سبكت وجعلت كهيئة الطواحين، وحمل كل طاحونتين على جمل، وسار عنها. واستعمل المعز على بلاد افريقية ـ يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الحميري ـ إلا أنه لم يجعل له حكماً على جزيرة صقلية، ولا على مدينة

(*) من ذلك ما قاله الشاعر محمد بن هانىء الأندلسي:

يقول بنو العباس قد فتحت مصر ... فقل لبني العباس قد قضي الأمر
وقد جاوز الاسكندرية جوهر ... تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

طرابلس الغرب ولا على اجدابية وسرت. فعين حسن بن علي بن الحسين والياً على صقلية، وعين زيادة الله بن القديم لجباية أموال أفريقية، كما عين عبد الجبار الخراساني ـ عاملاً على الخراج، وأمرهم بالانقياد ليوسف بن زيري. ومضت على المعز لدين الله فترة ستة أشهر وهو بسردانية أمكن له خلالها إعادة تنظيم أمور دولته، ثم رحل عنها ومعه يوسف بلكين وهو يوصيه بما يفعله، وسار إلى طرابلس ومعه جيوشه وحواشيه، فهرب منه بها جمع من عسكره ممن لم يرغبوا في الرحيل إلى مصر، ولجؤوا إلى جبال نفوسة، فبعث قوة للبحث عنهم، فلم يتمكنوا من العثور عليهم. ثم سار إلى مصر. فلما وصل إلى برقة، ومعه الشاعر الاندلسي محمد بن هانىء، فمدحه وغالى في مدحه (*) ثم سار المعز حتى وصل إلى الاسكندرية، وأتاه أهل مصر وأعيانها، فلقيهم وأكرمهم وأحسن إليهم. وسار بعد ذلك فدخل القاهرة خامس شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ = ٩٧٢ م وأنزل جنده في معسكرات مصر والقاهرة، وبقي كثير منهم في الخيام.

لقد كان انتقال المعز إلى القاهرة هو بداية لمتاعب ومشكلات جديدة على جبهتي الشرق والغرب، ولكن نواب المعز الاكفاء استطاعوا معالجة المواقف المختلفة.

(*) محمد بن هانىء أبو القاسم، وقيل أبو الحسن الأزدي الأندلسي، وذكر أنه من من ولد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، وقيل: بل هو من ولد أخيه روح بن حاتم. وكان أبوه من قرية من قرى المهدية، وكان شاعراً أديباً ـ مثله في المغرب كمثل المتنبي في المشرق. وكان حافظاً لأشعار العرب وأخبارهم، واتصل بأمير أشبيلية، وحظي عنده، إلا أنه كان كثير الانهماك في اللذات، متهماً بمذهب الفلاسفة. ولما اشتهر عنه ذلك، نقم عليه أهل إشبيلية، واتهم أمير إشبيلية باتباعه لمذهبه، فأشار على ابن هانىء بالغيبة عن البلد مدة حتى ينسى خبره. فخرج إلى عدوة المغرب وعمره يومئذ سبع وعشرون سنة. وضمه المعز إليه وبالغ في اكرامه. ومدح ابن هانىء ـ المعز ـ بقصائد شهيرة، وعندما سار المعز إلى القاهرة، خرج معه ابن هانىء مشيعاً، ثم عاد لأخذ عياله والالتحاق به، فقتل غيلة في أواخر رجب سنة ٣٦٢ هـ = ٩٧٢ م. ووجدت جثته على جانب البحر، ولا يدري أحد من قتله. ومن شعره في مدح المعز:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار　　　فاحكم فأنت الواحد القهار

وكذلك:

حل برقادة المسيح　　　حل بها آدم ونوح

حل بها الله ذو المعالي　　　فكل شيء سواه ريح

فعلى جبهة الغرب، انصرف - يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الحميري - بعد وداع المعز، فأقام بمدينة المنصورية يعقد الولايات للعمال على البلاد، ثم سار في البلاد، وباشر الأعمال، وطيب قلوب الناس. واجتمعت صنهاجة ومن والاها على طاعته. واستعان بأهله. فقد كان جده - مناد - كبيراً في قومه كثير المال والولد، حسن الضيافة لمن يمر به. وجاء ابنه - بلكين - فكان من رجال الحرب الأشداء، وكذلك زيري. فكان - ليوسف - عون كبير في هؤلاء، فاتسع ملكه، وعلت مكانته، مما اثار غيرة - **زناتة** - فجمعت جموعها وسارت لحربه، فتصدى - **زيري** - لحربها. وقاد قواته، وباغت زناتة وهي غافلة بأرض مغيلة، فقتل منهم كثيراً، وغنم ما معهم، فكثر أتباعه حتى ضاقت الأرض بهم، وقالوا له: « لو اتخذت لنا بلداً غير هذا » فسار بهم إلى موضع مدينة أشير، فرأى ما فيه من العيون فاستحسنه وبنى فيه مدينة أشير، وسكنها هو وأصحابه (سنة ٣٦٤ هـ = ٩٧٤ م). وكانت زناتة تفسد في البلاد، فإذا هوجمت احتمى رجالها بالجبال والبراري. فلما بنيت أشير، صارت صنهاجة بين البلاد وبين زناتة والبربر، وعلم - زيري - بما تمارسه - غمازة - من الفساد، واستحلال رجالها للمحرمات، وأنه قد ظهر فيهم نبي. فسار إليهم وغزاهم وظفر بهم وأخذ الذي كان يدعي النبوة أسيراً وأحضر الفقهاء، فقتله. ثم إن زناتة حصرت مدينة أشير، فجمع لهم زيري - جموعاً كثيرة، وجرى بينهم عدة وقعات، قتل فيها كثير من الفريقين، ثم ظفر بهم واستباحهم. وأمر - يوسف بن زيري - بنقلهم إلى قرب مدينة أشير، فبنوا عندها مدينة سموها (**تلمسان**). وظهر بجبل اوراس رجل اسمه - سعيد بن يوسف - أعلن تمرده على المنصور، وزاد جمعه، فوجه اليه - زيري - جيشاً بقيادة ابنه بلكين، فلقيه عند - باغاية - واقتتلوا، فقتل الخارجي ومن معه من هوارة وغيرهم - مما زاد من مكانته عند المعز. ثم إن بلكين بن زيري، قصد - محمد بن الحسين بن خزر الزناتي - وقد خرج عن طاعة المعز، وكثر جمعه وعظم شأنه، فظفر به، واكثر القتل في أصحابه. فسر المعز بذلك سروراً عظيماً، إذ كان يخشى من قوة يوسف بلكين وكثرة أتباعه مما يمكنه من التغلب على أهله فيما لو اتفق مع زناتة - فلما تمكن العداء بين صنهاجة وزناتة، صار باستطاعة المعز أن يزيد من دعمه ليوسف بلكين - دون خوف من قوته المتعاظمة.

ولكن هذا الدعم قد أثار غضب أمير مدينة مسيلة ـ جعفر بن علي ـ ففارق بلاده ولحق بزناتة، فقبلوه قبولاً عظيماً وملكوه عليهم، فأعلن عصيانه على المعز، فسار ـ زيري ـ في جمع كثير من صنهاجة وغيرهم، فالتقوا واشتد القتال بينهم ـ وكبا بزيري فرسه، فوقع فقتل. ورأى جعفر من زناتة تغيراً عن طاعته، وندماً على قتل زيري، فقال لهم: «إن ابنه يوسف لن يترك ثأر أبيه، ولا يرضى بمن قتل منكم، والرأي أن نتحصن بالجبال المنيعة والأوعار» فأجابوه إلى ذلك، أما هو، فحمل ماله وأهله في المراكب، وسار بهم إلى الاندلس، حيث أحسن الأمير الأموي استقباله وأكرمه وأحسن إليه. ثم إن ـ يوسف ـ جمع فأكثر وقصد زناتة واكثر القتل فيهم وسبى نساءهم وغنم أولادهم. وأمر أن يجعل القدور على رؤوسهم ويطبخ فيها. ولما علم المعز بذلك سره أيضاً وزاد في اقطاعه المسيلة والزاب وما تبعهما من النواحي. وفي تلك السنة أيضاً (٣٦٤ هـ = ٩٧٤ م) ظهر رجل اسمه ـ خلف بن حسين ـ وتحصن بقلعة منيعة، واجتمع إليه خلق كثير من البربر وغيرهم. فسار إليهم يوسف، ونازل القلعة، وحاربه، فقتل بينهما عدة قتلى، وافتتحها، وهرب خلف بن حسين، وقتل ممن كان بها خلق كثير، وبعث إلى القيروان من رؤوسهم سبعة آلاف رأس، ثم قبض على خلف، وأمر به فطيف به على جمل، ثم صلب وسير رأسه إلى مصر. وهدأ المغرب واستقرت أموره.

أما على جبهة الشرق، فقد خاض الحكم العلوي صراعاً ضد العباسيين من جهة، وضد منافسيه من الشيعة ـ آل بويه والقرامطة ـ. ولقد سبق التعرض لنموذج من هذا الصراع في بحث ـ القرامطة ـ وتجدر الاشارة هنا إلى ما قام به ـ الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الحسن بن بهرام القرمطي، عندما علم باستيلاء جوهر الصقلي على مصر والشام، وقدوم المعز إلى القاهرة. فقد توجه الحسن هذا الى بغداد، وسأل أمير المؤمنين ـ المطيع لله العباسي ـ عن طريق وزيره الشيعي عز الدولة بختيار ـ أن يمده بمال ورجال، ويوليه الشام ومصر، ليخرج المعز منها، فامتنع أمير المؤمنين من ذلك ـ وقال: **« كلهم قرامطة وعلى دين واحد، فأما المصريون ـ يعني بني عبيد المهدي ـ فأماتوا السنن، وقتلوا العلماء، وأما هؤلاء ـ يعني القرامطة ـ فقتلوا الحجاج وقلعوا الحجر الأسود وفعلوا ما فعلوا »**. ولكن بختيار ـ أعطاه مالاً

وسلاحاً بصورة سرية - فسار القرمطي - ومعه اعلام سود - وأظهر أن أمير المؤمنين قد ولاه - وكتب على الأعلام اسم - المطيع عبد الكريم، وتحته مكتوب - السادة الراجعون إلى الحق -. وعندما ملك القرمطي بلاد الشام، ودخل دمشق، لعن المعز على منبر دمشق وأباه وقال: **«هؤلاء من ولد القداح - كذابون مخترقون، اعداء الإسلام ونحن أعلم بهم. ومن عندنا خرج جدهم القداح»** ثم أقام القرمطي الدعوة لبني العباس، وسار إلى مصر بعساكره. غير أن المعز تمكن من الانتصار عليه، وعاد فدخل دمشق.

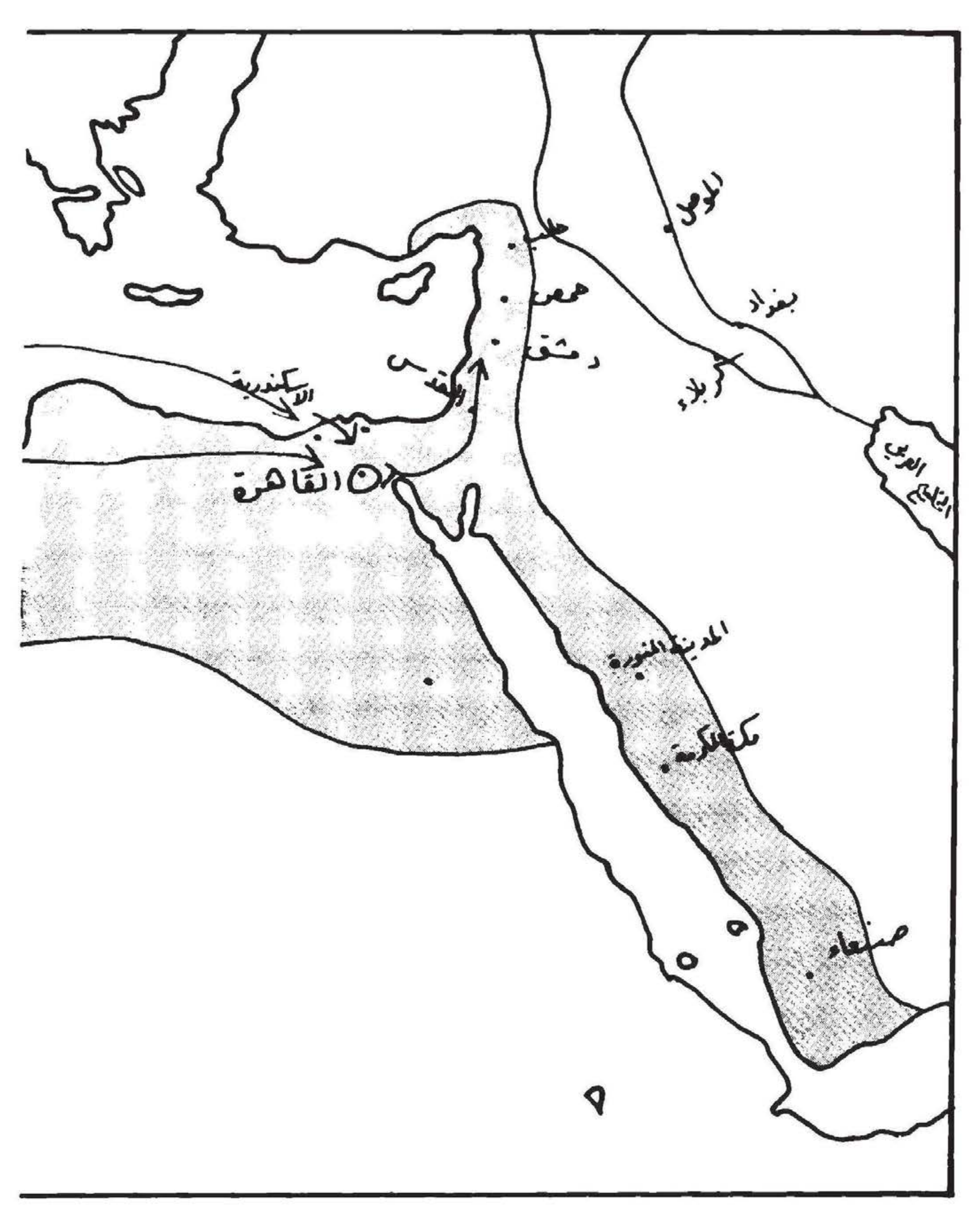
أما بالنسبة للمعز لدين الله، فإنه احتجب في قصره بعد دخوله القاهرة، وبعث عيونه ينقلون إليه أخبار الناس، وهو متوفر في النعم والأغذية المسمنة والأطلية التي تنقي البشرة وتحسن اللون، ثم ظهر للناس بعد مدة وقد لبس الحرير الأخضر وجعل على وجهه اليواقيت والجواهر تلمع كالكواكب. وزعم أنه كان غائباً في السماء، وأن الله رفعه إليه. فامتلأت قلوب العامة والجهال منه رعباً وخوفاً.

عندما فتح جوهر بلاد مصر والشام - باسم المعز لدين الله - ظن الحسن بن عبيد الله ابن طغج أمير الشام، أن المعز سيعيده إلى حكم مملكة أبيه الاخشيد، لا سيما بعد زوال العقبة التي كانت تعترض مثل هذا التعيين - وهي وجود كافور الاخشيدي -. فجاء الحسن الى جوهر - في الرملة - فأرسله إلى المعز، فلما دخل عليه قربه ورحب به. وقال له: «أنت ولدي، وكاتبتني على دخول مصر، وانما بعثت جوهراً لينصرك، ولقد لحقني بتجهيز الجيوش الى مصر أربعة آلاف ألف وخمسمائة ألف دينار». فظن الحسن أن الأمر كما قال المعز ولم يعرف أنه يخدعه. فذكر له اسماء عدد من قادة مصر والأمراء فيها وأصحاب الأموال، وعرفه حلل المصريين. وقال له: «إن كل واحد من هؤلاء مثل قارون في الغنى». فأمر المعز باستئصالهم ومصادرة أموالهم وحبسهم - مع الحسن - فكان ذلك آخر العهد بهم.

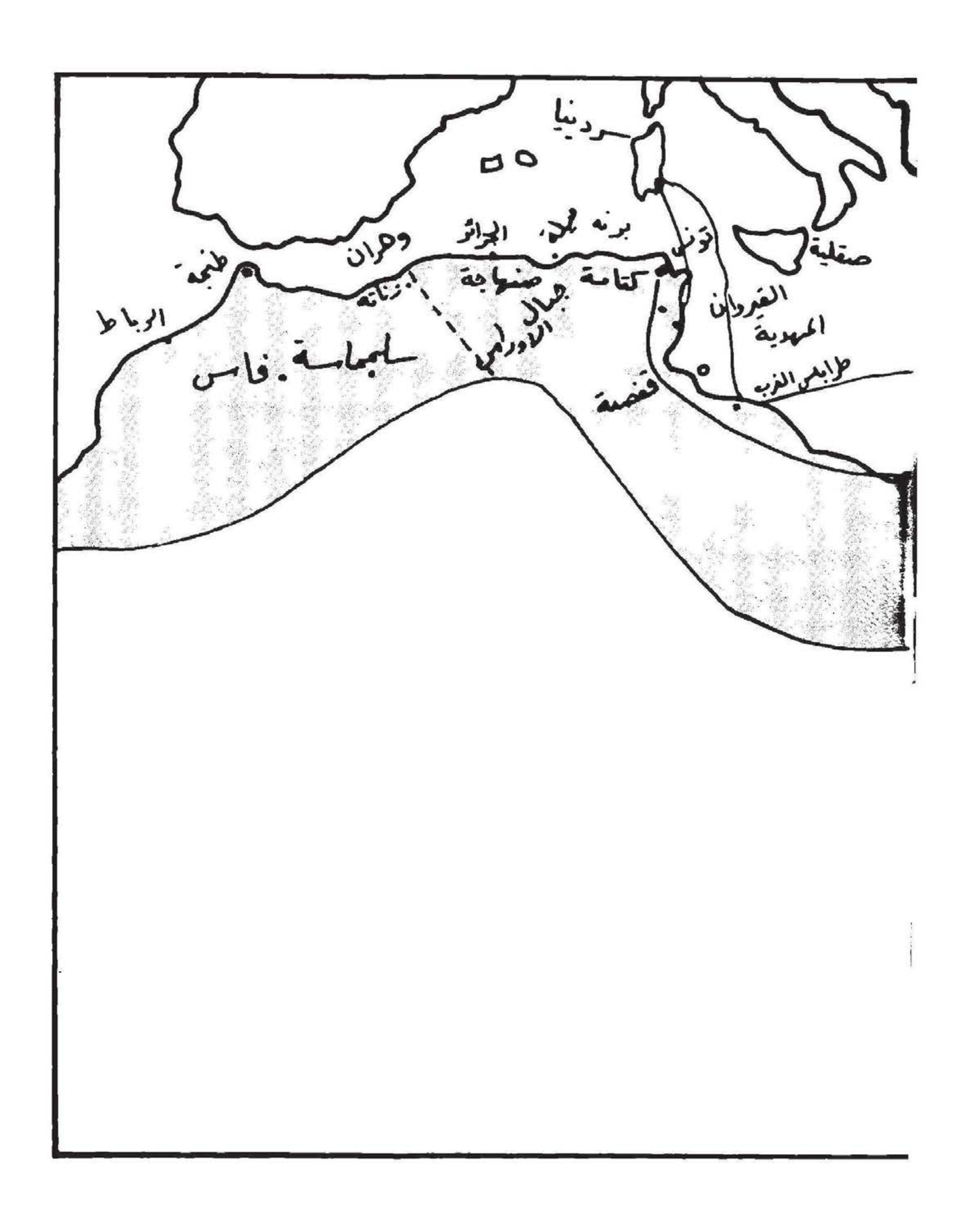
وكان المعز مغرى بمعرفة طالعه بالنجوم، فنظر في مولده وطالعه، فحكم له بخوف عليه - وتعرضه للخطر في فترة معينة - فاستشار منجمه فيما يزيله عنه، فأشار عليه أن

يعمل سرداباً تحت الأرض ويتوارى فيه إلى حين تجاوز ذلك الوقت، فعمل له السرداب، وأحضر قادته وكتابه، وقال لهم: « إن بيني وبين الله عهداً في وعد وعدنيه، وقد قرب أوانه، وقد جعلت نزاراً ولدي ـ هو ولي عهدي بعدي، ولقبته العزيز بالله، واستخلفته عليكم وعلى تدبير أموركم مدة غيبتي. فالزموا الطاعة له، واتركوا المخالفة واسلكوا الطريق السديدة». فقالوا: الأمر أمرك ونحن عبيدك وخدمك. ووصى العزيز ولده بما أراد، وجعل القائد جوهراً مدبره والقائم بأمره بين يديه، ثم نزل إلى السرداب وأقام فيه سنة. وكانت المغاربة إذا رأوا غماماً سائراً. ترجل الفارس منهم إلى الأرض وأومأ بالسلام ـ يشير إلى أن المعز فيه ـ. ثم خرج المعز بعد ذلك، وجلس للناس، فدخلوا عليه على طبقاتهم، ودعوا له ـ وعاد لممارسة حكمه كما كان. ولم يلبث طويلاً حتى انتابته الحمى فمات (*) لقد ابتدع المعز مراسم خاصة لإظهار أبهة الحكم في مناسبات ظهوره للعامة ـ مثل الركوب في أول العام من كل سنة، وفي يومي عيد الفطر والنحر وفتح خليج السد وفي خطبة شهر رمضان. واهتم بإقامة ـ خزانة الكتب في أحد مجالس البيمارستان ـ وضم إليه ما زاد على مائة ألف مجلد ـ في سائر العلوم.

(*) المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور بالله اسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدي. رابع الخلفاء الفاطميين ولد بالمهدية ومات بالقاهرة. (٣١٩ ـ ٣٦٥ = ٩٣١ ـ ٩٧٥ م) وكانت مدة حكمه ٢٤ سنة. منها سنتان وتسعة أشهر في مصر. وبويع من بعده لابنه نزار بن معد أبو منصور ـ ولقب العزيز بالله ـ ودعاه بعضهم العزيز بدين الله. والمعز لدين الله هو الذي وسع ملكه حتى امتد من المحيط الأطلسي حتى بلاد الشام. وخطب له في مكة والمدينة. وكان المعز عالماً فاضلاً شجاعاً، سار على نهج أبيه في حسن السيرة وانصاف الرعية. وستر ما يدعون إليه إلا عن الخاصة، ثم أمر الدعاة باظهاره، إلا أنه لم يخرج فيه إلى حد يذم فيه.



الدولة العلوية الفاطمية


سردينيا
صقلية
تونس
برنة
بجاية
الجزائر
وهران
طنجة
الرباط
كتامة
صنهاجة
زناتة
جبال الأوراس
سجلماسة
فاس
القيروان
المهدية
طرابلس الغرب
قفصة

جـ - العهد الجديد

تولى العزيز بالله - أبو منصور - نزار الخلافة، وقد توطدت دعائم الدولة، ورغم ذلك فقد عمل العزيز بالله نزار على إخفاء موت أبيه إلى عيد النحر، فصلى بالناس، وخطبهم، ودعا لنفسه، وعزى بأبيه. وكان يدبر الأمور منذ مات أبوه إلى أن أظهره. وكان أول ما فعله هو أن ضرب دنانير باسمه، وأرسلها إلى المغرب ليتداولها الناس. وأقر يوسف بلكين على ولاية افريقية، وأضاف إليه حكم طرابلس وسرت وأجدابية. وقد أفاد - يوسف بلكين - من ذلك لتوطيد سلطته ولفرض قبيلته صنهاجة على افريقية كلها. وتصدت قبائل (زناتة) لمجابهة يوسف بلكين، فعمل - خزرون بن فلفول بن خزر الزناتي بحشد جيش كبير، وسار به إلى - سجلماسة - فلقيه حاكمها فانتصر خزرون عليه وقتله وملك - سجلماسة - وأخذ منها من الأموال والعدد شيئاً كثيراً. وبعث برأس حاكمها إلى أمير الاندلس - الأموي -. وعظم شأن - زناتة - واشتد ملكهم. فسار يوسف بلكين إلى فاس وسجلماسة وطرد كل عمال بني أمية، وهربت زناتة منه، فلجأ كثير منهم إلى سبتة - التي بقيت دائماً تحت حكم أمير الأندلس - وكان في طريق يوسف بلكين غابات كثيفة لا يمكن لأحد عبورها، فأمر بإحراقها وقطع أشجارها، حتى شق طريقاً لعبور الجيش، ثم مضى بنفسه حتى أشرف على سبتة من جبل مطل عليها. وأمضى فترة وهو يستطلعها لمعرفة نقاط ضعفها، فرأى أنه لا يمكن احتلالها إلا بمساعدة الأسطول. وخاف أهل سبتة خوفاً عظيماً. ثم رجع يوسف بلكين إلى البصرة - وهي مدينة حسنة تسمى بصرة في المغرب -. فلما علمت زناتة بتحركه، رحلت إلى أقاصي الغرب عبر الرمال والصحارى. ودخل يوسف البصرة. وكانت قد عمرها أمير الاندلس عمارة عظيمة - فأمر بهدمها ونهبها. **ورحل إلى بلد - برغواطة - وكان ملكهم - عبس ابن أم الأنصار - رجلاً مشعبذاً ساحراً ادعى النبوة فأطاعوه في كل ما أمرهم به، وجعل لهم شريعة خاصة بهم، فغزاه يوسف بلكين. وجرت بينهم حروب عظيمة لا توصف انتهت بانتصار يوسف بلكين، وقتل الله - عبس ابن أم الانصار - وهزم جنده وقتلوا قتلاً ذريعاً، وسبي من أبنائهم ونسائهم ما لا يحصى، وسيره إلى افريقية. فقال**

أهل افريقية: « بأنه لم يدخل إليهم من السبي مثله قط ». وأقام يوسف بلكين بتلك الناحية قاهراً لأهلها، وأهل سبتة منه خائفون، وزناته هاربون (من سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م) وكانت لهم وقائع كثيرة مع قوات يوسف بلكين وعماله ـ ولاته ـ حتى إذا ما كانت سنة ٣٧٣ هـ = ٩٨٣ م. تقدم خزرون الزناتي بقواته ودخل ـ سجلماسة ـ وطرد عامل يوسف بلكين ونهب ما فيها من الأموال والعدد. وفي الوقت ذاته تولى ـ فاس زيري بن عطية الزناتي ـ قيادة قوة أخرى من زناتة، فهاجم فاس وتغلب عليها وطرد عامل يوسف. وأسرع يوسف بلكين فقاد جيشه لحرب زناتة الثائرة، ووصل إلى ـ وارقلين ـ وهناك اعتل بالقولنج، ومات بعد أن أوصى بولاية ابنه المنصور (*) الذي كان بمدينة أشير ـ تلمسان ـ. فجلس للعزاء بأبيه، وأتاه أهل القيروان وسائر البلاد يعزونه بأبيه ويهنئونه بالولاية. فأحسن إلى الناس، وقال لهم: « **إن أبي يوسف وجدي زيري كانا يأخذان الناس بالسيف، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، ولست ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ـ يعني أن الخليفة بمصر لا يقدر على عزله بكتاب** » ثم سار إلى القيروان. وسكن برقادة، وولى الأعمال واستعمل الأمراء. وأرسل هدية عظيمة إلى العزيز بالله بمصر ـ قيل إن قيمتها بلغت ألف ألف دينار ». ثم عاد إلى أشير واستخلف على جباية الأموال بالقيروان والمهدية وجميع افريقية رجلاً يقال له ـ عبدالله بن الكاتب ـ.

أدرك العزيز بالله نزار خطر المنصور، ونزوعه للاستقلال بأمور افريقية، وذلك رغم ما أظهره المنصور من المداهنة والرياء ـ بإرسال الهدايا الثمينة ـ فبعث رجلاً من

(*) كان المعز بن المنصور العبيدي قد استخلف يوسف بلكين على افريقية عند توجهه إلى الديار المصرية سنة ٣٦١ هـ. وأمر الناس بالسمع والطاعة له، وسلم إليه البلاد، وخرجت العمال وجباة الأموال باسمه. وأوصاه المعز بأمور كثيرة، وأكد عليه في فعلها. ثم قال: « إن نسيت ما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء: إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية، والسيف عن البربر، ولا تول أحداً من اخوانك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك. وافعل مع أهل الحاضرة ـ المدن ـ خيراً ». وأحسن يوسف بلكين السيرة في إدارة بلاده، والنظر في مصالح رعيته. إلى أن توفي في دار كلان ـ أو وارقلين ـ لسبع بقين من ذي الحجة سنة ٣٧٣ هـ = ٩٨٣ م. وقد توفي عن اربعمائة حظية، حتى قيل ان البشائر قد وفدت عليه بولادة سبعة عشرة ولداً في يوم واحد.

دعاته اسمه ـ أبو الفهم حسن بن نصر ـ للاتصال بقبائل كتامة ودعوتها لطاعة العزيز بالله، وذلك مقابل ارسال جيش من مصر لدعمها ضد المنصور. وقام أبو الفهم بواجبه وجمع الانصار وكثر أتباعه، وقاد الجيوش، وعظم شأنه، وعزم المنصور على قصده؛ ويظهر أنه شعر بالدور الذي يمارسه العزيز بالله، فأرسل إلى العزيز بمصر وشرح له الموقف. فأرسل العزيز رسولين إلى المنصور، ينهاه عن التعرض لأبي الفهم وكتامة. وأمرهما أن يسيرا إلى كتامة بعد تسليم الرسالة إلى المنصور، فلما وصلا إلى المنصور، وأبلغاه رسالة العزيز، أغلظ القول لهما وللعزيز أيضاً، وأغلظا له، فأمرهما بالمقام عنده. ولم يتركهما يمضيان إلى كتامة واحتجزهما لمدة شهرين تقريباً عمل خلالها على اكمال اعداد قواته، ثم سار بها إلى مدينة ميلة، وأراد قتل أهلها وسبي نسائهم وذراريهم، فخرجوا إليه يتضرعون ويبكون، فعفا عنهم وضرب سورها. وسار منها إلى كتامة، والرسولان معه، فكان لا يمر بقصر ولا منزل إلا هدمه حتى وصل الى عاصمة كتامة ـ مدينة سطيف ـ فاقتتلوا عندها قتالاً عظيماً، فانهزمت كتامة وهرب أبو الفهم إلى جبل وعر فيه قوم من كتامة يقال لهم ـ بنو ابراهيم ـ فأرسل إليهم المنصور يتهددهم إن لم يسلموه، فأجابوه: «هو ضيفنا ولا نسلمه، ولكن أرسل أنت إليه فخذه، ونحن لا نمنعه ـ لا ندافع عنه». فأرسل واعتقله وضربه ضرباً شديداً ثم قتله وسلخه وأكلت صنهاجة وعبيد المنصور لحمه. وقتل معه جماعة من الدعاة ووجوه كتامة، وعاد إلى أشير، ورد الرسولين إلى العزيز. فأخبراه بما فعل بأبي الفهم، وقالا: **جئنا من عند شياطين يأكلون الناس»**. فأرسل العزيز الى المنصور، يطيب قلبه، وأرسل إليه هدية ولم يذكر له أبا الفهم.

ومضت سنتان ظهر بعدهما في كتامة رجل آخر من الدعاة (سنة ٣٧٩ هـ = ٩٨٩ م) لم يعرف من أي موضع جاء، وزعم أن أباه هو ولد القائم العلوي جد المعز لدين الله، فعمل أكثر مما عمله أبو الفهم، واجتمعت عليه كتامة، واتخذ البنود والطبول، وضرب السكة ـ النقود ـ وجرت بينه وبين نائب المنصور وجنده حروب كثيرة ووقعات متعددة في مدينة ميلة ومدينة سطيف، وانهزم هذا الداعية ـ الذي عرف باسم أبي الفرج ـ وانهزمت معه كتامة، وقتل منهم مقتلة عظيمة،

واختفى أبو الفرج في غار في جبل، فوثب عليه غلامان كانا له فأخذاه وأتيا به المنصور، فسره ذلك وقتله شر قتلة، وشحن المنصور بلاد كتامة بالجند، وبث عماله فيها، ولم يدخلها عامل قبل ذلك، فجبوا أموالهم، وضيقوا على أهلها، ورجع المنصور إلى مدينة ـ أشير ـ فأتاه ـ سعيد بن خزرون الزناتي ـ فدخل في طاعته، واختص به، وعلت منزلته عنده، فقال له المنصور يوماً: **«يا سعيد! هل تعرف أحداً أكرم مني»**. وكان قد منحه مالاً كثيراً. فقال: **«نعم! أنا أكرم منك»** فسأله المنصور: **«وكيف ذلك؟»** فأجابه: **«لأنك جدت علي بالمال؛ وأنا جدت عليك بنفسي»**. فاستعمله المنصور والياً على ـ طبنة ـ وزوج ابنه ببعض بنات سعيد، فلامه على ذلك بعض أهله. فقال لهم: «كان أبي وجدي يستتبعانهم بالسيف. وأما أنا فمن رماني برمح رميته بكيس ـ من الدنانير ـ حتى تكون مودتهم طبعاً واختياراً. ورجع سعيد إلى أهله وبقي إلى سنة ٣٨١ هـ = ٩٩١ م. ثم عاد إلى المنصور زائراً؛ واعتل أياماً ومات. فقدم ابنه فلفل بن سعيد على المنصور، فأحسن إليه وحمل إليه مالاً كثيراً فرده إلى ولاية أبيه ـ طبنة ـ.

لقد كان المنصور يعتمد بالدرجة الاولى على قبيلته ـ صنهاجة ـ وعلى أقاربه، غير أن صنهاجة لم تكن متفقة جميعها على تأييد الحكم العلوي، وقد ظهر ذلك ـ ربما للمرة الأولى ـ سنة ٣٧٣ هـ = ٩٨٣ م حيث انتقل أولاد زيري بن مناد وهم: زاوي وجلالة وماكسن ـ اخوة بلكين ـ إلى الاندلس بسبب خلاف وقع بينهم وبين أخيهم حماد، فتوجهوا الى ـ طنجة ـ ومنها إلى قرطبة، التي كانت يومها تحت حكم الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر فاستقبلهم الحاجب المنصور، وسر بهم، وأجرى عليهم الوظائف، وأكرمهم، وسألهم عن سبب انتقالهم، فقالوا له: «إنما اخترناك على غيرك، وأحببنا أن نكون معك نجاهد في سبيل الله». فاستحسن ذلك منهم، ووعدهم ووصلهم، فأقاموا أياماً، ثم دخلوا عليه وسألوه انجاز ما وعدهم به من الغزو. فقال لهم: «انظروا ما أردتم من الجند نعطيكم» فردوا عليه بقولهم: **«ما يدخل معنا بلاد العدو غيرنا ـ إلا الذين معنا من بني عمنا وصنهاجة ومِوالينا»**. فأعطاهم الخيل والاموال والسلاح، وبعث معهم الأدلاء. وكان الطريق ضيقاً، فساروا إلى أرض

جيليقية - غاليسيا شمال غرب الأندلس - ووصلوها ليلاً، فنظموا كميناً في بستان قريب من المدينة، وقتلوا كل من به، وقطعوا أشجاره، فلما أصبحوا، خرج جماعة من البلد، فباغتوهم وأخذوهم وقتلوهم جميعهم. ورجع من تمكن من الهرب فأنذر أهل المدينة الذين أسرعوا لمطاردة عدوهم. فلما أحس فرسان صنهاجة بذلك، كمنوا وراء ربوة، فلما جاوزهم جيش جيليقية، خرجوا عليهم من ورائهم وضربوا مؤخرتهم - ساقتهم - فلما سمع أهل جيليقية التكبير، ظنوا أن العدد كثير جداً، فانهزموا وتبعهم فرسان صنهاجة، فقتلوا خلقاً كثيراً، وغنموا دوابهم وسلاحهم، وعادوا إلى قرطبة. فعظم ذلك عند ابن أبي عامر، ورأى من شجاعتهم ما لم يره من جند الأندلس، فأحسن إليهم وجعلهم بطانته. ولقد عانى المنصور في إدارته لإفريقية من تمرد أهله، وبني عمومته - على نحو ما حدث سنة (٣٧٩ هـ = ٩٨٩ م) عندما خرج عمه أبو البهار على طاعته وحاربه -. ولكنه استطاع التغلب على كافة الصعوبات والعقبات الى أن وافته المنية (سنة ٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م) فخلفه ابنه باديس (*) في إمارة افريقية. فسار على نهج أبيه، واقتدى بسيرته.

كان العزيز بالله نزار يعتمد في إدارته للبلاد على مراكز القوى، ويعمل في الوقت ذاته على إضعاف هذه المراكز، وضرب بعضها ببعض، حتى لا تتمكن إحداها من الاخلال بالتوازن. ولكن وعندما كانت تظهر شخصية قوية مثل - المنصور - الذي سبق ذكره، فإن العزيز بالله كان يجد نفسه مرغماً على مهادنة هذه الشخصية، وانتظار الفرص المناسبة. وكانت شبكة الدعاة المنتشرة في كافة أرجاء البلاد، والمرتبطة مباشرة

(*) المنصور بن يوسف بلكين أمير افريقية، توفي في أوائل ربيع الأول سنة ٣٨٦ هـ. وهو خارج صبرة - ودفن بقصره، وكان ملكاً شجاعاً كريماً حازماً، ولم يزل مظفراً منصوراً حسن السيرة، محباً للعدل والرعية، أوسعهم عدلاً، وأسقط البقايا عن أهل افريقية - وكانت مالاً جليلاً -. ولما توفي ولي بعده ابنه باديس ويكنى أبا مناد. فلما استقر في الأمر سار إلى سردانية، وأتاه الناس من كل ناحية للتعزية والتهنئة. وأراد أعمام أبيه - بنو زيري - أن يتمردوا عليه، فمنعهم أصحاب أبيه وأصحابه. وكان مولد باديس سنة ٣٧٤ هـ = ٩٨٤ م. وأتته الخلع والعهد بالولاية من الحاكم بأمر الله بمصر، فقرىء العهد وبايع للحاكم هو وجماعة بني عمه وكبار القادة. وثار رجل صنهاجي - اسمه خليفة بن مبارك - ضد باديس. فألقي القبض عليه وسجن - ولم يقتل احتقاراً.

بالعزيز في مصر، تقدم له المعلومات الدقيقة عن الاوضاع المختلفة والمواقف المتطورة، مما كان يساعده على ضبط الأمور والسيطرة عليها، والتدخل في الوقت المناسب. ولهذا كان قادة مراكز القوى ـ مثل المنصور ـ يحرصون على إقامة علاقات جيدة مع الناس، لمنعهم من التمرد والثورة، ولحرمان حاكم مصر ـ العزيز بالله ـ من فرصة التدخل بشؤونهم وبطريقة ادارتهم للبلاد. فكان ذلك ينعكس على الناس على شكل أمن واستقرار وإشاعة للعدل.

وعلى كل حال، فقد خسرت افريقية بموت المنصور قائداً فذاً وحاكماً عادلاً. وكان (جوهر الصقلي) (*) قد سبقه بالرحيل إلى العالم الآخر. فخسرت الدولة العلوية رجلين من كبار رجالها وقائدين من كبار قادتها، الذين وطدوا دعائم حكمها.

اشتهر العزيز خلال فترة حكمه، بأن كان كريماً شجاعاً فيه رفق بالرعية، ساس الملك بنجاح. وزادت مملكته على مملكة أبيه، وفتحت له حمص وحماة وشيرز وحلب، وخطب له ـ المقلد العجيلي ـ صاحب الموصل وأعمالها بالموصل

(*) القائد أبو الحسن جوهر بن عبدالله ـ المعروف بالكاتب الرومي ـ أصله أرمني. وكان من موالي المعز الذي أمره بفتح مصر بعد موت الاستاذ كافور الأخشيدي، فشق مصر، ونزل في مكان القاهرة، وأسس من ليلته (القصرين) وخطب يوم الجمعة الآتية لمولاه المعز، وقطع خطبة بني العباس عن منابر الديار المصرية، وكذلك أزال اسمهم عن السكة ـ النقود ـ وألغى الشعار العباسي ـ الأسود ـ وألبس الخطباء الثياب البيض. وذكر في خطبته الأئمة الاثني عشر. وأظهر الاحسان للناس فكان يجلس بنفسه في كل يوم سبت للنظر في المظالم. ومعه الوزير والقاضي وجماعة من أكابر الفقهاء. وأمر جوهر بالزيادة عقيب الخطبة اعتباراً من يوم الجمعة الثامن من ذي القعدة ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م. وكانت هذه الزيادة هي: «اللهم صلّ على محمد المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. اللهم وصل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز» وأمر ببناء الجامع الأزهر الذي فرغ من بنائه في السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ = ٩٧١ م وأقام بمصر حتى وصل إليه مولاه المعز، وهو نافذ الأمر، واستمر على علو منزلته وارتفاع درجته، متولياً للأمور حتى ما قبل وفاته بأشهر (سنة ٣٨١ هـ = ٩٩١ م) حيث حل محله ابنه أبو عبدالله الحسين الذي كان يقال له ـ قائد القواد ـ وهو أكبر أمراء الحاكم. ولم يبق شاعر بمصر إلا رثاه وذكر مآثره. وكان ناصحاً لمولاه، مخلصاً لدولته، على دين مولاه في التشيع، فلذلك ابتدع بدعاً كثيرة، عليه وزرها وإثمها.

(**سنة ٣٨٢ هـ = ٩٩٢ م) وضرب اسمه على السكة والبنود. وخطب له باليمن، وهو الذي رتب الفطرة في عيد شوال، وكانت تعمل على غير هذه الهيئة. وكانت الفطرة تعمل وتفرق بالديوان، ثم نقلت في عدة أماكن، وكان مصروفها في كل سنة عشرة آلاف دينار. وبنى في أيامه (قصر البحر) في القاهرة. الذي لم يكن مثله لا في الشرق ولا في الغرب، وكان يدخل إليه من باب البحر المنسوب لهذا القصر.**

عمل العزيز خلال فترة حكمه على استخدام النصارى، فعين - عيسى بن نسطورس، وكان نصرانياً من أقباط مصر - وفيه جلادة وكفاية، فضبط الأمور وجمع الأموال، ووفر كثيراً من الخراج، وأعز النصارى فقلدهم الأعمال والدواوين، وأخرج الكتاب المتصرفين من المسلمين، واستناب في الشام رجلاً يهودياً يعرف باسم - منشا بن ابراهيم بن الفرار - فسلك مسلكه في اعزاز اليهود وتقديمهم على المسلمين. واستولى أهل هاتين الملتين على الدولة. فكتب رجل من أجلاد المسلمين رقعة، وسلمها إلى امرأة، وبذل لها مالاً وفيراً من أجل اعتراض العزيز، ورفع الظلامة إليه، وتسليمها إلى يده وكان مضمون الرقعة: **«يا أمير المؤمنين! بالذي عز النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بمنشا بن الفرار، وأذل المسلمين بك، إلا نظرت في أمري»**.
وكان العزيز يركب بغلة سريعة في المشي، وإذا ركبها تدفقت كالموج، ولم تلحق. فوقفت له المرأة في ضيق، فلما قاربها، رمتها إليه، فسارع الركابي إلى أخذ الرقعة على العادة، وغاصت المرأة في جوع الناس. ولما قرأها العزيز أمر بالبحث عن المرأة، فلم يعثر لها على أثر. ولما عاد إلى قصره، استدعى قاضي قضاته - أبا عبدالله محمد بن النعمان، وكان متقدماً عنده في خواصه وأهل أنسه، فأعطاه الرقعة وقال له: «قف عليها» فلما قرأها قال له: «ما عندك في هذا الأمر؟» فأجاب القاضي: «مولانا أعرف بوجه الرأي والتدبير» فقال العزيز معقباً: «صدقت كاتبتها وهي تنبهنا على ما كنا عليه من الغفلة والخطأ». ثم وقع خلاف بين الوزير ابن كلس - والشاعر الحسن بن بشر الدمشقي - (*) مما زاد من قناعة العزيز بضرورة تغيير هذا الوضع، فأمر بالقبض

(*) كان الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي، قد كتب رقعة إلى وزير العزيز وكاتب الانشاء - أبي نصر عبدالله الحسين القيرواني - جاء فيها:

على اليهودي والنصراني. وعلى سائر الكتاب النصارى، فأخذ من اليهودي مالاً كثيراً، وكتب العزيز الى الشام بأن ترد الاعمال في الدواوين إلى الكتاب المسلمين، وأن يتم الاعتماد في الاشراف عليهم على القضاة في البلاد، ثم ان عيسى طرح نفسه على ـ ست الملك بنت العزيز ـ وكان يحبها حباً شديداً ولا يرد لها قولاً، واستشفع بها في الصفح عنه وتجديد الاصطناع له. وحمل الى الخزانة ثلاثمائة ألف دينار. وكتب إلى العزيز رقعة يذكر فيها بخدمته وحرمته. فرضي العزيز عنه، وأعاده إلى ما كان عليه. وشرط عليه استخدام المسلمين في دواوينه وأعماله. وعلى كل حال، فان دور اليهود والنصارى كان قد بدأ قبل ذلك عندما تم تعيين ـ أبي الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس ـ وزيراً للعزيز ـ سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م ـ وكان أبو الفرج هذا يهودياً خبيثاً ذا مكر وحيلة ودهاء وفطنة، لفظته بغداد فسار إلى الشام، ونزل بالرملة، وعمل وكيلاً للتجار، فلما اجتمعت الاموال التي للتجار عنده، حملها وهرب بها إلى مصر في أيام كافور الأخشيدي، وحمل إليه متاعاً كثيراً، فحوله كافور على ضياع مصر ليحصل منها ثمن تجارته. فكان إذا دخل ضيعة عرف غلتها وارتفاعها وظاهر أمرها وباطنها، وكان

= قل لأبي نصر صاحب القصر ... والمتأتي لنقض ذا الأمر
انقض عرا الملك للوزير تفز ... منه بحسن الثناء والذكر
وأعط أو امنح ولا تخف أحداً ... فصاحب القصر ليس في القصر
وليس يدري ماذا يراد به ... وهو إذا ما درى فما يدري

فجاء ابن كلس الى العزيز، وأنشده الشعر، فقال له العزيز: «هذا شيء اشتركنا فيه في الهجاء. فشاركني في العفو عنه». ولكن الشاعر الدمشقي عاد للنقد والهجاء فقال:

تنصر فالتنصر دين حق ... عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا ... وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا العزيز ... ابن وروح القدس فضل

وأراد ابن كلس الفتك بالشاعر الدمشقي، لكن العزيز منعه، وجاء ابن كلس إلى العزيز وقال له: «لم يبق للعفو عن هذا معنى، وفيه غض من السياسة ونقض لهيبة الملك، فانه قد ذكر نديمك زبارج، وذكرني وسبك بقوله:

زبارجي نديم وكلس وزير ... نعم على قدر الكلب يصلح الساجور

وجاء ابن كلس بالشاعر. وقتله، رغم معارضة العزيز وعدم موافقته على قتله.

ماهراً في أعماله، لا يسأل عن شيء من أمورها إلا أخبر به عن صحة ودقة، فكبرت حاله. وعلم كافور بخبره وما فيه من الفطنة والسياسة، فقال: «**لو كان هذا مسلماً لصلح أن يكون وزيراً**». فبلغه ما قال كافور، فطمع في الوزارة، ودخل جامع مصر في يوم جمعة، وقال: «**أنا أسلم على يد كافور**». وعرف وزير كافور ـ ابن حنزابه ـ ما هو عليه من الطمع بالوزارة، فقصده، وخاف منه فهرب إلى المغرب، وقصد يهوداً كانوا هناك مع أبي تميم المعز لدين الله، وهم أصحاب أمره، فصارت له عندهم حرمة. ولم يزل معهم حتى جاء برفقة المعز لدين الله إلى مصر. واليهود معه. فلما ولي العزيز استوزره، ووثق به. حتى إنه عندما مرض، عاده العزيز وقال له: «لوددت أنك تباع فأبتاعك بملكي. فهل من حاجة توصي بها». فبكى وقبل يده ووضعها على عينه. وقال: «**أما فيما يخصني، فإنك أرعى لحقي من أن أوصيك بمخلفي. ولكن فيما يتعلق بدولتك، فسالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك. واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة. ولا تبق على المفرج بن دغفل**» ومات أبو الفرج سنة ٣٨١ هـ = ٩٩١ م. فحزن العزيز عليه. وحضر جنازته، وصلى عليه وألحقه بيده في قصره. وأغلق الدواوين عدة أيام. وخلف أبو الفرج من المال شيئاً كثيراً، وقيل إنه كفن بما قيمته عشرة آلاف دينار. ورثاه مائة شاعر. وقلد العزيز الوزارة إلى عيسى بن نسطورس ـ الذي سبق ذكره.

وانتابت العزيز مجموعة من الأمراض في آن واحد ـ النقرس والحصا والقولنج ـ ولما اشتد عليه المرض استدعى القاضي محمد بن النعمان **وأبا محمد الحسن بن عمار الكتامي** الملقب ـ أمين الدولة ـ وهو أول من تلقب من المغاربة، وكان شيخ كتامة وسيدها، ثم خاطبهما في أمر ولده أبي علي المنصور، **وأوصى له بالخلافة، ولقبه الحاكم بأمر الله.** كما أحضر المتولي لأمر داره أرجوان الخادم، وجعله مدبر دولة ابنه الحاكم، **وأخذ له** البيعة. ومات العزيز (*) ولم ينكتم خبر موته ساعة واحدة. وقام ـ **أرجوان الخادم** ـ

(*) العزيز بالله أبو منصور نزار بن المعز أبي تميم معد العلوي. خامس الخلفاء العبيديين أو المهديين ـ مات لليلتين بقيتا من رمضان وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر ونصف (٣٤٣ ـ ٣٨٦ هـ = ٩٥٤ ـ ٩٩٦ م) وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً. ـ

فأخذ له البيعة على الناس. وخرج الناس في اليوم التالي لاستقبال الحاكم الذي دخل البلد وبين يديه البنود والرايات، وعلى رأسه المظلة يحملها - ريدان الصقلبي -. وتقدم الحسن ابن عمار شيخ كتامة وسيدها، وحكم في دولته، واستولى عليها. فأشار عليه ثقاته بقتل الحاكم، وقالوا له: **«لا حاجة بنا إلى من يستعبدنا»** فلم يفعل احتقاراً للحاكم واستصغاراً لشأنه، **إذ كان عمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر**. وانبسطت كتامة في البلاد، وحكموا فيها، ومدوا أيديهم إلى أموال الرعية وحريمهم. كل ذلك وأرجوان الخادم ملازم للحاكم في القصر، يحرسه، واتفق مع خادم عضد الدولة البويهي - واسمه **شكر العضدي** - على الكتابة إلى أمير الشام للفاطميين - منجوتكين - وأعلمه بما يقوم به - الحسن بن عمار -. فتجهز - منجوتكين - وسار من دمشق نحو مصر. فوصل الخبر الى ابن عمار الذي أعلن أن منجوتكين قد تمرد على الحاكم، واستنفر الجند، ووجه جيشاً كثيفاً لقتاله بقيادة - **أبي تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي** - فساروا اليه فلقوه بعسقلان، فانهزم منجوتكين وقتل من جيشه ألفا رجل، ثم أسر منجوتكين وحمل إلى مصر، فأبقى عليه ابن عمار وأطلقه استمالة للمشارقة - أهل الشام -. واستعمل ابن عمار على الشام أبا تميم سليمان بن جعفر. فسار إلى طبرية. واستعمل أخاه علياً لحكم دمشق. فامتنع أهلها عليه - فكاتبهم أبو تميم يتهددهم، فخافوا وأذعنوا بالطاعة واعتذروا من فعل سفهائهم، وأخرجوا إلى علي، فلم يعبأ بهم، وركب ودخل البلد، فأحرق وقتل وعاد إلى معسكره. وقدم عليهم أبو تميم، فأحسن إليهم، وأمنهم، وأطلق سراح المعتقلين منهم، وعين أخاه علياً على طرابلس وعزل عنها - **جيش بن الصمصامة الكتامي** - فمضى الى مصر - واتفق مع أرجوان الخادم للعمل ضد الحسن بن عمار. وأفاد أرجوان الخادم من ابتعاد كتامة عن مصر مع أبي تميم، وحرض المشارقة على الفتك بمن بقي بمصر منهم وبابن عمار معهم، فبلغ ذلك ابن عمار، فعمل على الايقاع بأرجوان الخادم وشكر العضدي، وجاء عيون - جواسيس - أرجوان، فأعلموه بما قرره ابن عمار للايقاع به وبشكر العضدي فاحتاطا، ودخلا قصر

= ولد بالمهدية ودفن بالعمارية في حجرة من القصر عند أبيه. وعندما مات حدثت (ست الملك ابنة العزيز) نفسها بالوثوب على الأمر. واجلاس ابن عمتها عبدالله - وكانت مشتهاة عليه. فأحس الوزير - ارجوان الخادم - بذلك، فقبض عليها، وحملها مع ألف فارس الى قصرها بالقاهرة.

الحاكم باكين، وثارت الفتنة، واجتمعت المشارقة فوزع عليهم الحاكم الأموال، فهاجوا ابن عمار ومن معه، فانهزم واختفى. فلما ظفر أرجوان الخادم، أظهر الحاكم وأجلسه وجدد له البيعة، وكتب الى كبار القادة والناس بدمشق للايقاع بأبي تميم، فلم يشعر إلا وقد هجموا عليه ونهبوا خزائنه، فخرج هارباً. وقتلوا من كان عنده من كتامة. وعادت الفتنة بدمشق، واستولى عليها الأحداث. وعمل ـ أرجوان الخادم ـ بعدها على السماح ـ لأبي محمد الحسن بن عمار الكتامي ـ بالخروج من ملجئه ومخبئه، وأعاد إليه اقطاعه، لكنه أمره باغلاق بابه. وحدث عصيان في مدينة صور حيث عمل أهلها على تسليم قيادتهم إلى رجل ملاح اسمه ـ **العلاقة** ـ. وأعلن ـ المفرج بن دغفل ـ أيضاً العصيان وسار بقواته الى الرملة، وعاث فساداً في البلاد. وزاد الموقف تدهوراً على أرض بلاد الشام، حيث تولى امبراطور الروم ـ الدوقس ـ قيادة جيشه، وألقى الحصار على قلعة ـ أفامية ـ. فأصدر أرجوان الخادم أمره بتوجيه قوات ضخمة بقيادة ـ **جيش ابن الصمصامة** ـ فسار حتى نزل بالرملة، فأطاعه واليها. وظفر فيها بأبي تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي. ووجه جيش قسماً من قواته بقيادة أبي عبدالله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان إلى صور، فغزاها براً وبحراً. فأرسل ـ العلاقة ـ إلى ملك الروم يستنجده، فسير إليه عدة مراكب مشحونة بالرجال، فالتقوا بمراكب المسلمين على صور، فاقتتلوا وظفر المسلمون وانهزم الروم، وقتل منهم جمع، فلما انهزموا تخاذل أهل صور، وضعفت نفوسهم، مما ساعد ـ أبا عبدالله بن حمدان ـ على احتلال مدينة صور، ونهبها وقتل الكثير من جندها، وأخذ ـ العلاقة ـ أسيراً، فأرسله إلى مصر فسلخ وصلب بها. وفي الوقت ذاته، سار جيش بن الصمصامة ـ بمعظم قواته لقتال ـ المفرج بن دغفل، فهرب هذا، وأرسل بطلب العفو، فمنحه جيش الأمان. وسار ـ جيش ـ بعدها نحو الشمال، فلما وصل إلى دمشق استقبله أهلها مذعنين، فأحسن إلى رؤساء الأحداث، وأطلق المؤن، وأباح دم كل مغربي يتعرض لأهلها فاطمأنوا إليه. وسار إلى أفامية، فاصطدم عندها بالروم الذين تمكنوا من هزيمته، ولم يصمد إلا ـ بشارة الاخشيدي ـ ومعه خمسمائة فارس. ونزل الروم فاجتاحوا معسكر المسلمين ونهبوا ما فيه، فيما كان ملك الروم ـ الدوقس ـ واقفاً ومعه ابنه وحاشيته، فتوجه إليه

رجل كردي ـ اسمه أحمد بن الضحاك ـ وتظاهر بأنه يطلب الأمان، وعندما اقترب من ملك الروم طعنه فقتله. وصاح المسلمون: « قتل عدو الله ». وعادوا فهاجموا الروم. وجرت الوقعة في مرج أفيح يحيط به جبل يعرف بالمضيق، لا يسلكه إلا رجل في أثر رجل، ومن جانبه بحيرة أفامية ونهر العاصي ـ المقلوب ـ. فلم يكن للروم مهرب. فتمكن المسلمون منهم، ومضى النهار وهم يقتلون فيهم حتى ان المسلمين احتزوا من رؤوس القتلى عشرة آلاف رأس ـ أرسلهم جيش بن الصمصامة ـ الى مصر ـ وبات المسلمون مبيت المنصورين الغانمين المسرورين، بما منحهم الله اياهم من الكفاية، ووهب لهم من الظفر، ووافى العرب من غد بما نهبوه من دواب ـ وخيول ـ المسلمين أثناء الهزيمة، فمنهم من رد، ومنهم من باع بالثمن البخس، لأن جيش بن الصمصامة، نادى في معسكره بألا يبتاع أحد من العرب. ووقع ولدا ـ الدوقس ـ في أسر بعض المسلمين، فابتاعهما جيش بن الصمصامة بستة آلاف دينار. وأخذهما إليه ـ وأقام على حصن أفامية اسبوعاً ثم سار إلى باب انطاكية ومعه ألفـاً رجل من الأسرى ـ ونهب النواحي المحيطة بانطاكية، وأحرق القرى. وانصرف عائداً إلى دمشق. وكان الزمان شتاء فالتمس من أهلها أن يخلوا له قرية على باب دمشق ـ اسمها بيت لهيا ـ لينزل وجنده فيها. فأجابوه إلى ذلك. وأحسن السيرة في أهل دمشق، واستخص رؤساء الاحداث برعايته، وجعل يبسط الطعام كل يوم لهم ولمن يجيء معهم من أصحابهم، فكان يحضر كل انسان منهم في جمع من أصحابه وأشياعه، وأمرهم إذا فرغوا من الطعام أن ينتقلوا إلى حجرة خاصة لغسل أيديهم فيها، واستمر على ذلك برهة من الزمن. وفي يوم من الأيام، نظم بعض جنده وأمرهم بقتل رؤساء الاحداث عندما يدخلون الحجرة لغسل أيديهم هم وأصحابهم، فقتل منهم نحو ثلاثة آلاف رجل، ودخل دمشق بعدها، وطاف بها، واستغاث الناس وسألوه العفو، فعفا عنهم. وأحضر الأشراف وقتل من رؤساء الأحداث بين أيديهم، وسير الأشراف إلى مصر، وأخذ أموالهم ونعمهم، ولم يلبث بعدها طويلاً حتى مات وخلفه ابنه محمد.

أرسل ـ أرجوان الخادم ـ بعد هذه الحادثة رسالة إلى ملك الروم ـ باسيل ـ حملها، ابن أبي العلاء، ودعاه إلى المهادنة والموادعة، وأرسل إليه الهدايا على

سبيل التآلف والملاطفة، وقابل باسيل ذلك بأحسن قبول. وتقررت الموادعة لمدة عشر سنين. وأرسل باسيل مقابل الهدية هدية مماثلة على ما جرت به العادة. واستقامت الأمور على يد أرجوان الذي أرسل جيشاً - أيضاً - إلى برقة وطرابلس الغرب ففتحها واستعمل عليها - أنساً الصقلبي - ونصح الحاكم وبالغ في ذلك ولازم خدمته، فثقل مكانه على الحاكم فقتله (سنة ٣٨٩ هـ = ٩٩٩ م) وكان خصياً أبيض. وكان لأرجوان وزير نصراني اسمه فهد بن ابراهيم، فاستوزره الحاكم. ثم إن الحاكم عين - الحسين بن جوهر - مكان أرجوان ولقبه - قائد القواد - ثم قتل أبا محمد الحسن بن عمار الكتامي وقتل بعده - الحسين بن جوهر -. واستمر في تعيين الوزير بعد الوزير وقتلهم الواحد بعد الآخر. ثم إن الحاكم بأمر الله جهز جيشاً كبيراً أسند قيادته إلى - يارختكين - وكلفه بالسير إلى مدينة حلب ومحاصرتها والاستيلاء عليها. فخاف - حسان بن مفرج الطائي - فنصب كميناً لهذا الجيش عندما غادر غزة في طريقه الى عسقلان. وساعده والده في نصب هذا الكمين الذي استطاع قتل قائد الجيش وكبار قادته وتمزيق الجيش بعد معركة ضارية قتل فيها عدد كبير من جند الفريقين. وأفاد حسان ووالده من هذا النصر فسارا بجيشهما إلى الرملة فألقيا الحصار عليها. وتم لهما نهب النواحي، وكثر جمعهما واستوليا على الرملة وما تبعها. وأرسلا إلى أمير مكة الشريف أبي الفتوح الحسن بن جعفر العلوي الحسني وخاطباه بأمير المؤمنين، وطلباه إليهما ليبايعا له بالخلافة، فحضر واستناب بمكة وخوطب بالخلافة. وعظم الأمر على الحاكم بأمر الله، فأرسل إلى حسان وأباه يعاتبهما، وضمن لهما الاقطاع الكثيرة والعطاء الجزيل، واستمالهما، فعدلا عن أبي الفتوح ورداه إلى مكة وعاد حسان وأبوه إلى طاعة الحاكم. ولم يلبث الحاكم بعد ذلك طويلاً حتى أرسل جيشاً بقيادة - علي بن جعفر بن فلاح - فلما وصل إلى الرملة، طرد حسان بن مفرج الطائي وعشيرته عن تلك الأرض، واستولى على ما كان له من الحصون في جبل الشراة، وصادر له أمواله وذخائره، وسار إلى دمشق، وعمل والياً عليها - سنة ٣٩٠ هـ = ١٠٠٠ م. وبقي حسان متشرداً لمدة سنتين، وسار والده إلى مصر، فأمنه الحاكم، وأقطعه، وسار حسان إلى مصر فأكرمه وأحسن إليه. ثم عمل الحاكم على دس السم الى مفرج والد حسان فمات مسموماً. وضعف أمر حسان.

يمكن بعد ذلك تجاوز ما وقع على أرض - افريقية - من صراعات بين مراكز القوى المختلفة وكذلك ما وقع منها على أرض بلاد الشام، للتوقف قليلاً على ما حدث في مصر ذاتها - سنة ٣٩٧ هـ = ١٠٠٦ م، مما كان له علاقة مباشرة بحاكم مصر. ففي هذه السنة، **عظم أمر الوليد - الذي عرف بلقب أبي ركوة - لأنه كان يحمل معه ركوة في أسفاره اقتداء بسنة الصوفية - وهو من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان - ويقرب في النسب من المؤيد هشام بن الحاكم الأموي أمير الأندلس. وكان أبو ركوة هذا قد هرب من الأندلس عندما سيطر الحاجب المنصور بن أبي عامر على حكم الاندلس، واحتجز المؤيد وأخفاه عن الناس وتتبع أهله من بني أمية ممن يصلح منهم للملك فقتل من استطاع قتله منهم وهرب الباقون فتشردوا - ومنهم أبو ركوة الذي لم يكن عمره يومها اكثر من عشرين عاماً**. فسار إلى مصر، وكتب الحديث، ثم سار إلى مكة واليمن، وعاد إلى مصر، ودعا بها إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله. **وكانت الظروف في مصر مهيأة لقبول مثل هذه الدعوة، فقد أسرف الحاكم بأمر الله في قتل القادة وحبسهم ومصادرة أموالهم والتضييق عليهم، فأصبحت القبائل في حالة شديدة من العسر والضنك، وباتت وهي على استعداد للتمرد والثورة بعد أن امتدت يد الحاكم بأمر الله إلى شيوخ هذه القبائل ورجالها بالقتل والحبس**. واستجاب - بنوقرة - قبل سواهم لدعوة - أبي ركوة - ثم تبعتهم قبائل أخرى كان العداء مستحكماً بينها، ثم جاء ظلم الحاكم بأمر الله ليدفعها نحو الصلح والتعاون ضد الحاكم بأمر الله (وهكذا زال العداء بين زناتة وبين بني قرة، وترك رجال القبيلتين وراء ظهورهم ما كان بينهم من حروب، وما كان يفصل بينهم من دماء). وأقام - أبو ركوة - في وسط بني قرة، وانصرف لتعليم الخط والدين لصبيانهم، وعرف رجال بني قرة ما كان عليه أبو ركوة من الصلاح والنسك، فعهدوا إليه أن يكون الامام في صلواتهم. وشرع أبو ركوة في دعوتهم للعمل ضد الحاكم بأمر الله، فاستجابوا له، وبايعوه، واتفقوا عليه، وخاطبوه - هم وزناتة - بالإمامة. وكانوا بنواحي برقة. فلما علم حاكم برقة - الوالي - بأمر أبي ركوة، كتب إلى الحاكم بأمر الله، واستأذنه في التوجه لحربه، فمنعه من ذلك. ولم يمهله

أبو ركوة على كل حال، فسار بجموع بني قرة وزناتة إلى برقة بعد أن اتفق معهم على أن يحتفظ لنفسه بثلث الغنائم وأن يترك لهم الثلثين يقتسمانها بين زناتة وبين بني قرة. وخرج حاكم برقة للقتال ودارت معركة ضارية انتصر فيها أبو ركوة ودخل برقة، وقوي هو ومن معه بما حصلوا عليه من الأموال والسلاح وغيره. وجمع أهل برقة مائتي الف دينار لأبي ركوة، كما أخذ رجلاً من اليهود كان متهماً بالودائع، فاستولى منه على مائتي ألف دينار. وضربوا السكة ـ الدنانير والدراهم ـ وعليها ألقاب أبي ركوة ـ وخطب بالناس، في خطبة يوم الجمعة، ولعن الحاكم في خطبته، وأصبح جيش أبي ركوة يضم ستة عشر ألف مقاتل. ونادى منادي أبي ركوة، فأمر بالكف عن الرعية، والامتناع عن النهب، وأظهر العدل، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر.

وصل المنهزمون من برقة إلى مصر، ودخلوا على الحاكم بأمر الله، وأعلموه بما حدث، فعظم عليه الأمر، وأهمته نفسه وملكه، وعاود الاحسان إلى الناس، والكف عن أذاهم. وندب، عسكراً نحو خمسة آلاف فارس بقيادة ـ ينال الطويل ـ. فسار ينال بمن معه حتى وصل إلى ـ الحمام ـ وبينها وبين برقة صحراء ـ مفازة ـ ليس فيها إلا منزلان، لا يلقى السالك الماء إلا في آبار عميقة، لا يمكن الوصول إليها إلا بصعوبة وشدة، فوجه أبو ركوة قوة من ألف فارس، وأمرهم بالسير إلى ـ ينال ومطاردته قبل وصوله إلى الماء، والعمل على تغوير الآبار ـ ردمها ـ عند عودتهم. ففعلوا ذلك، وعادوا. وسار أبو ركوة حينئذ بقواته، فلقى ينال ورجاله وقد خرجوا من المفازة على ضعف وعطش، فقاتلهم، واشتد القتال، وانقض ينال على مقاتلي أبي ركوة، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وأبو ركوة واقف مع كتلة قواته الرئيسة دون أن يشترك في المعركة. واستأمن إليه جماعة كثيرة من رجال كتامة لما نالهم من الأذى والقتل على يد الحاكم بأمر الله. وأخذوا الأمان لمن بقي من أصحابهم الذين لم يلبثوا حتى لحقوا بهم. فحمل بهم عندها ـ أبو ركوة ـ فقتل كثيراً ممن بقي مع ينال الذي وقع أسيراً. فطلب إليه أبو ركوة أن يلعن الحاكم ليخلي سبيله، فرفض هذا وبصق في وجه أبي ركوة، فأمر بقتله، وقطع إرباً إرباً، وأخذ أبو ركوة مائة الف دينار كانت مع ينال، وجميع ما كان معه. وعاد أبو ركوة إلى برقة وقد امتلأت أيدي جنده

بالغنائم وانتشر ذكره، وعظمت هيبته. وأقام ببرقة، وترددت سراياه إلى الصعيد وأرض مصر: **وقام الحاكم بأمر الله وقعد، وأسقط في يده، وندم على ما فرط، وفرح جند مصر وأعيانها. وعلم الحاكم ذلك، فاشتد خوفه وقلقه وأظهر الاعتذار عن الذي فعله. وكتب الناس إلى أبي ركوة يستدعونه، وممن كتب إليه - الحسين بن جوهر - المعروف بقائد القواد.** فسار حينئذ عن برقة إلى الصعيد، وعلم الحاكم بأمر الله، فبلغ منه الذعر كل مبلغ، وجمع جنده واستشارهم. وكتب إلى الشام يستدعي الجند، فجاءه الدعم من الشام. وفرق الأموال والسلاح والخيول. وبلغ عدد أفراد جيشه اثني عشر ألف رجل بين فارس وراجل سوى العرب، فأسند قيادتهم إلى - الفضل بن عبدالله - ووجهه لقتال أبي ركوة. فلما اقترب من أبي ركوة، أراد أبو ركوة مهاجمته، غير أن الفضل امتنع عن خوض المعركة، واكتفى بمشاغلته، وأخذ باجراء الاتصالات مع كبار رجال أبي ركوة، لاغرائهم واستمالتهم، **فأجابه قائد كبير من بني قرة - اسمه الماضي - وأخذ بإعلامه عن أخبار أبي ركوة ونواياه.** وتناقصت المواد التموينية في معسكر الفضل مما اضطره لخوض المعركة التي وقعت في - كوم شريك - فقتل من الفريقين عدد كبير من الجند. ورأى الفضل من جمع أبي ركوة ما أفزعه، فرجع إلى معسكره. **وراسل بنوقرة العرب الذين في معسكر الفضل يستدعونهم إليهم ويذكرونهم بأعمال الحاكم بأمر الله،** وما فعله بهم، فأجابوهم. واتفقوا على أن تكون الشام للعرب، وأن تبقى مصر لأبي ركوة ومن معه. وحددوا موعداً في ليلة يسير فيها أبو ركوة إلى الفضل، فإذا اشتبك معه تخلى العرب عنه وانهزموا، فلا يبقى في مصر من يجابهه **- وأسرع - الماضي - فكتب سرا إلى الفضل بما تم الاتفاق عليه.** فلما كان ليلة الميعاد، جمع الفضل رؤساء العرب ودعاهم للافطار عنده، وأظهر أنه صائم، وطاولهم الحديث وتركهم في خيمة واعتزلهم، ووصى أصحابه بالحذر. وأراد رؤساء العرب العودة إلى خيامهم فتمهلهم الفضل وطاولهم ثم أحضر الطعام، فأكلوا وتحدثوا. ووجه الفضل سرية إلى طريق أبي ركوة، فاصطدمت السرية بقوة متقدمة من قوات أبي ركوة، ودارت رحى معركة بين القوتين، ووصل الخبر إلى معسكر الفضل، فاهتاج الجند، وأراد رؤساء العرب الركوب

فمنعهم الفضل، وأرسل إلى أصحابهم ممن لا علم لهم بالاتفاق، وأمرهم بالركوب للقتال، فركبوا واشتد القتال، ورأى رجال بنوقرة أن الأمر مختلف عما تم الاتفاق عليه. ثم ركب الفضل ومعه رؤساء العرب وقد ضاعت منهم الفرصة لتنفيذ ما تم الاتفاق عليه، فتورطوا بالحرب. وجاء أبو ركوة بقواته لدعم القوات المشتبكة في المعركة، فلما رآه الفضل انسحب بقواته، وعاد إلى الدفاع والتملص. وجهز الحاكم بأمر الله قوة أخرى من أربعة آلاف فارس، وعبروا إلى الجيزة، فلما علم أبو ركوة بتحركهم أسرع لقتالهم، وضبط الطرق حتى لا يعلم الفضل بتحركه. ولم يتمكن ـ الماضي ـ من إرسال المعلومات إلى الفضل. وقطع ـ أبو ركوة ـ مسيرة خمس ليال في ليلتين، وباغتوا فرسان الحاكم بالجيزة، فقتلوا منهم ألف فارس تقريباً. وخاف أهل مصر، ولم يخرج الحاكم من قصره، واكتفى بتوجيه القوة المتوافرة عنده إلى الجيزة. ورجع أبو ركوة فنزل عند الهرمين، ثم انصرف من يومه. وكتب الحاكم إلى الفضل كتاباً ظاهراً ليقرأه على القادة وجاء فيه: « إن أبا ركوة قد انهزم أمام جندنا ». وكتب إليه سراً يعلمه الحال، فأظهر الفضل البشارة بانهزام أبي ركوة تسكيناً للناس. ثم سار أبو ركوة إلى موضع يعرف باسم ـ السبخة ـ وهو موضع كثير الأشجار. وتبعه الفضل، وكمن أبو ركوة بقواته بين الأشجار، وطارد جند الفضل، وتظاهر جند أبي ركوة بالانسحاب والتراجع ليستجروا جند الفضل نحو الكمين. فلما رأى جند الكمين قوات أبي ركوة وهو يتراجع ظنوها الهزيمة، فولوا يتبعونهم، وطاردهم جند الفضل فقتلوا منهم ألوفاً كثيرة. وانهزم أبو ركوة ومعه بنوقرة. وساروا إلى معسكرهم. فلما بلغوها أراد أبو ركوة إعادة تنظيم قواته والانطلاق بها للهجوم. لكن ـ الماضي ـ أحبط المحاولة وأمكن له اقناع كبار القادة في بني قرة. فقالوا له: « قد قاتلنا معك حتى لم تبق لدينا قدرة على القتال، فخذ لنفسك وانج ». فسار إلى النوبة، ووصل إلى حصن يعرف باسم ـ حصن جبل النوبة ـ وحاول الاستيلاء على الحصن بالخديعة، لكن الفضل كان يتحرك بسرعة اكبر، فأرسل إلى حاكم الحصن يعلمه بحقيقته. وبذلك أمكن إلقاء القبض عليه. فحمل إلى ـ الفضل ـ الذي أكرمه وأنزله في مضاربه. ثم حمله إلى مصر. وحاول أبو ركوة الاعتذار للحاكم بأمر الله واستعطافه، لكن الحاكم لم يغفر له ذنبه، وأمر به فشهر في

مصر، وطيف به. ولما أراد قتله وجده ميتاً (*) ومرض الفضل فبالغ الحاكم بأمر الله بإكرامه حتى انه عاده في مرضه مرتين، فاستعظم الناس ذلك، حتى إذا ما عوفي من مرضه. أمر بقتله فقتل.

استراح الحاكم بأمر الله من شر - أبي ركوة - فلما كانت السنة التالية (٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ م) أصدر الحاكم أمراً بهدم بيعة قمامة وهي بالبيت المقدس - كنيسة القيامة - وأباح للعامة نهب ما فيها من الأموال والأمتعة وغير ذلك، وكان السبب هو ما يمارسه النصارى من الزور والبهتان في يوم الفصح، حيث يحتالون بالنار على الجهلة ويزعمون أنها نزلت من السماء. وهي نار كان يتم صنعها بدهن البلسان في خيوط الابريسم، ويدهنون الرقاع بالكبريت وغيره بصناعة لطيفة لخداع الطغام والعوام. كما أمر الحاكم بهدم عدة كنائس ببلاد

(*) كتب أبو ركوة إلى الحاكم بأمر الله رسالة جاء فيها: «يا مولاي، الذنوب عظيمة، وأعظم منها عفوك، والدماء حرام ما لم يحللها سخطك، وقد أحسنتَ وأسأتُ، وما ظلمت إلا نفسي، وسوء عملي أوبقني.». وأقول:

فررت فلم يغن الفرار ومن يكن	مع الله لم يعجزه في الأرض هارب
ووالله ما كان الفرار لحاجة	سوى فزرع الموت الذي أنا شارب
وقد قادني جرمي إليك برمتي	كما خر ميتاً في رحى الموت سارب
وأجمع كل الناس أنك قاتلي	فيارب ظن ربه فيك كاذب
وما هو إلا الانتقام وينتهي	وأخذك منه واجباً لك واجب

ولكن الحاكم بأمر الله لم يصفح عن أبي ركوة، وأمر أن يشهر به على جمل ويطاف به، وزينت القاهرة أحسن زينة، وكان بها شيخ يقال له - الابزاري - إذا خرج خارجي صنع له طرطوراً، وعمل فيه ألوان الخرق المصبوغة، وأخذ قرداً، ووضعت في يده درة - عصاً - قد درب على أن يضرب بها الخارجي من ورائه. فأركب أبو ركوة جملاً بسنامين. وألبس الطرطور. وأركب الابزاري خلفه والقرد بيده الدرة وهو يضربه والجند حوله. وبين يديه خمسة عشر فيلاً مزينة. ودخل القاهرة ورؤوس أصحابه بين يديه، قد رفعت على الخشب والقصب. وجلس الحاكم في سدة على باب الذهب وقد وقف الحرس من الترك والديلم، عليهم السلاح، وبأيديهم السيوف والرماح، وتحتهم الخيول عليها الدروع السابغة - التجافيف - وكان يوماً عظيماً. وأمر الحاكم بإخراج أبي ركوة وهو على هذه الصورة إلى ظاهر القاهرة، وضرب عنقه. فلما حمل إلى هناك وانزل، وجد ميتاً - فحمل إلى الحاكم، فأمر بصلبه. (سنة ٣٩٧ هـ).

مصر . ونودي في النصارى: « من أحب الدخول في دين الإسلام دخل، ومن لا يدخل فليرجع إلى بلاد الروم آمناً . ومن أقام منهم على دينـه فليلتزم بما شرط عليهم من الشروط التي زادها الحاكم بفرض تعليق الصلبان على صدورهم . وأن يكون الصليب من خشب زنته أربعة أرطال . وعلى اليهود تعليق رأس العجل زنته ستة أرطال . وأن يكون في عنق الواحد منهم إذا دخل الحمام قربة زنة خمسة أرطال ـ بأجراس، وأن لا يركبوا خيلاً . ثم عاد بعد هذا كله، فأمر بإعادة بناء الكنائس التي هدمها . وأذن لمن أسلم منهم في الارتداد إلى دينه . وقال: « ننزه مساجدنا أن يدخلها من لا نية له، ولا يعرف باطنه » .

أصدر الحاكم بأمر الله أمره سنة ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨ م بإلغاء صلاة التراويح. فضج الناس واشتدت وطأتهم على ملك مصر ـ الحاكم ـ لكثرة ما فعله بالناس من الأمور المنكرة التي خرق فيها السنن، وجأر الناس بالدعاء على الحاكم في اعقاب الصلوات، وظوهر بذلك، فأشفق الحاكم وخاف، وأمر بعمارة دار العلم بمصر وفرشها، ونقل إليها الكتب العظيمة. وأسكنها من شيوخ السنة شيخين (في سنة ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م) أحدهما هو أبو بكر الانطاكي. وخلع عليهما، وقربهما. ورسم لهما بحضور مجلسه وملازمته، وجمع الفقهاء والمحدثين إليها. وأمر أن يقرأ بها فضائل الصحابة، ورفع عنهم الاعتراض في ذلك. وأطلق صلاة التراويح والضحى. وغير الأذان. وجعل مكان (حي على خير العمل) (الصلاة خير من النوم). وركب بنفسه إلى جامع عمرو بن العاص، وصلى فيه الضحى. وأظهر الميل إلى مذهب الامام مالك والقول به. ووضع للجامع تنوراً من فضة يوقد فيه ألف ومائتا فتيلة واثنين آخرين من دونه، وزفهم بالدبادب والبوقات والتهليل والتكبير. ونصبهم ليلة النصف من شعبان. وحضر أول يوم من رمضان إلى الجامع الذي بالقاهرة، وحمل إليه الفرش الكثيرة وقناديل الذهب والفضة، فكثر الدعاء له ولبس الصوف في هذه السنة يوم الجمعة، عاشر شهر رمضان وركب الحمار وأظهر النسك. وخطب بالناس يوم الجمعة، وصلى بهم، ومنع من أن يخاطب بلقب (مولانا) ومن (تقبيل الأرض بين يديه). وخصص الرواتب لمن يأوي المساجد من الفقراء والقراء والغرباء وأبناء السبيل وأجرى لهم الأرزاق. وصاغ محراباً

عظماً من فضة وعشرة قناديل. ورصع المحراب بالجوهر ونصبه بالمسجد الجامع. وأقام على ذلك ثلاث سنين، يحمل الطيب والبخور والشموع إلى الجوامع، وفعل ما لم يفعله أحد. وعاد الحاكم لطبيعته بعد ذلك، فقتل الفقيه أبا بكر الانطاكي، والشيخ الآخر. وخلقاً كثيراً آخرين من أهل ـ السنة ـ لا لأمر يقتضي ذلك، وفعل ذلك كله في يوم واحد. وأغلق دار العلم ومنع من جميع ما كان فعله. وزاد على ما كان يفعله من قتل للعلماء والفقهاء.

لم يكن باستطاعة الخلفاء العباسيين تجاهل ما يمثله الحكم في مصر، لاسيما بعد أن استطاع هذا الحكم السيطرة على أقطار واسعة من أقاليم العالم الإسلامي باسم ـ **التشيع** ـ فصدر **في سنة ٤٠٢ هـ = ١٠١١ م** محضر ببغداد، حرره كبار رجال **الشيعة** وسواهم ـ وتضمن **القدح في نسب العلويين خلفاء مصر. وكتب فيه المرتضى** وأخوه الرضي وابن البطحاوي العلوي وابن الأزرق الموسوي والزكي أبو يعلى عمر ابن محمد وعدد من القضاة والعلماء، وجاء فيه: «هم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي ـ اخوان الكافرين ونطف الشياطين ـ شهادة يتقربون بها إلى الله، ومعتقدين ما أوجب الله على العلماء أن ينشروه للناس، فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر، وهو منصور ابن نزار الملقب بالحاكم ـ حكم الله عليه بالبوار والخزي والنكال ـ ابن معد بن إسماعيل ابن عبدالرحمن بن سعيد ـ لا أسعده الله، فإنه لما صار إلى المغرب، تسمى بعبيد الله، وتلقب بالمهدي. هو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس ـ عليه وعليهم اللعنة ـ أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب، وأن ذلك باطل وزور. وأنهم لا يعلمون أن أحداً من الطالبيين توقف عن اطلاق القول في هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء. وقد كان هذا الانكار شائعاً بالحرمين في أول أمرهم بالمغرب. منتشراً انتشاراً يمنع من أن يدلس على أحد كذبهم. أو يذهب وهم إلى تصديقهم. وان هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق وفجار وزنادقة، ولمذهب التنويه والمجوسية معتقدون، وقد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية ـ وكتب في شهر ربيع الآخر ـ سنة اثنتين واربعمائة».

مضى الحاكم بأمر الله قدماً مع تناقضاته، ففي سنة ٤٠٤ هـ = ١٠١٣ م أصدر

الحاكم أمره بإبطال المنجمين وطردهم من بلاده، وأعتق أكثر مماليكه، وأمر بحبس النساء في البيوت، وصلحت سيرته واستمر في ذلك حتى سنة ٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م حيث أمر بمنع النساء من الخروج من بيوتهن أبداً؛ ومن أن يطلعن من الأسطحة ومن الطاقات ومن دخول الحمامات، وأبطل صنعة الخفاف لهن، وقتل عدة نسوة خالفن أمره، وأغرق جماعة من العجائز، وهدم بعض الحمامات على النساء. وجهز نساء عجائز كثيرة يستعلمن أحوال النساء، واعداد قوائم بأسماء من يعشقن أو من يعشقهن، وأسماء من يتعرض لهن. فمن وجد منهن كذلك، قتلها وأهلكها. ثم إنه أكثر من الدوران بنفسه ليلاً ونهاراً في البلد في طلب ذلك، فضاق الحال، واشتد على النساء وعلى الفساق إذ لم يتمكن أحد منهم أن يصل إلى أحد - إلا نادراً.

لقد افتضحت الشيعة؛ وسقط قناع التشيع، وبدأ التفجر ضد الشيعة في كل مكان.

ففي سنة ٤٠٧ هـ = ١٠١٦ م. وبينما كان المعز بن باديس راكباً في القيروان، والناس يسلمون عليه ويدعون له، مر بجماعة فسأل عنهم فقيل له: «هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر». فقال المعز أمير افريقية: «رضي الله عن أبي بكر، وعمر». وتفجر الغضب الدفين دفعة واحدة، فتسارع الناس إلى درب المقلى من القيروان حيث كانت تجتمع به الشيعة، فقتلوا منهم. وانبسطت أيدي العامة في الشيعة، وأغراهم عامل القيروان وحرضهم، فقتل من الشيعة خلق كثير، وأحرقوا بالنار، ونهبت ديارهم. وقتلوا في جميع افريقية. واجتمع جماعة منهم إلى قصر المنصور - قرب القيروان، فتحصنوا به، فحصرهم العامة وضيقوا عليهم، فاشتد عليهم الجوع، فأخذوا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قتلوا عن آخرهم. ولجأ من كان منهم بالمهدية إلى الجامع، فقتلوا كلهم. وكانت الشيعة تسمى بالمغرب - المشارقة - نسبة إلى عبيد الله الشيعي الذي جاء من المشرق. وأكثر الشعراء ذكر هذه الحادثة.

بينما كانت هذه التطورات تأخذ مساراتها على أرض المغرب، كان المشرق يعيش تطورات مماثلة. ففي البصرة وواسط وقعت فتنة كبيرة بين أهل السنة والشيعة فانتصر أهل السنة وهرب وجوه الشيعة والعلويين. واجتاحت بغداد فتنة مماثلة (سنة ٤٠٨ هـ). فعمل أمير المؤمنين القادر بالله على استتابة فقهاء المعتزلة، فأظهروا الرجوع

وتبرؤوا من الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام، وأخذت خطوطهم - تواقيعهم - بذلك. وأنهم متى خالفوا أحل فيهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم. **وعمل - محمود بن سبكتكين - على تنفيذ أمر أمير المؤمنين، واستن بسنته في أعماله التي استخلفه عليها من بلاد خراسان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة والاسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة، وصلبهم وحبسهم ونفاهم وأمر بلعنهم على المنابر**. وأبعد جميع طوائف أهل البدع، ونفاهم عن ديارهم. وصار ذلك سنة في ديار الإسلام. أما في - مصر - ذاتها، مقر الحاكم بأمر الله وقاعدته، فقد وصل الهيجان ذروته (سنة ٤١١ هـ = ١٠٢٠ م) حيث أظهر أهلها الكره للحاكم من سوء أفعاله، فكانوا يكتبون إليه الرقاع وفيها سبه وسب أسلافه، والدعاء عليه، حتى انهم عملوا من قراطيس صورة امرأة وبيدها رقعة، فلما رآها ظن أنها امرأة تشتكي، فأمر بأخذ الرقعة منها، فقرأها، وفيها كل لعن وشتيمة قبيحة، وذكر حرمه بما يكره، فأمر باحضار المرأة، فقيل له: «إنها من قراطيس». فأمر باحراق مصر ونهبها. ففعلوا ذلك، وقاتل أهلها أشد قتال، وانضم إلى أهل مصر في اليوم الثالث الاتراك والمشارقة، فاشتدت شوكتهم، وأرسلوا إلى الحاكم يسألونه الصفح ويعتذرون، فلم يقبل، فهددوه، ولما رأى قوتهم أمر بالكف عنهم وقد أحرق بعض مصر ونهب بعضها. وتتبع المصريون من أخذ من نسائهم وأولادهم، فابتاعوا ذلك بعد أن فضحوهن، فازداد غيظهم منه وحنقهم عليه. ثم ان الحاكم بأمر الله أوحش أخته (**ست الملك**) وأرسل إليها مراسلات قبيحة قال فيها: «**بلغني أن الرجال يدخلون إليك**» وتهددها بالقتل. فأرسلت إلى قائد كبير من قادة الحاكم. **اسمه ابن دواس**، وكان أيضاً يخاف الحاكم - وقالت له: «انني أريد أن ألقاك» فحضرت عنده وقالت له: «**قد جئت إليك في أمر تحفظ به نفسك ونفسي. وأنت تعلم ما يعتقده أخي فيك. وهو إذا ما تمكن منك فإنه لن يبقي عليك. وأنا كذلك، وقد انضاف إلى هذا ما تظاهر به مما يكرهه المسلمون ولا يصبرون عليه. وأخاف أن يثوروا به فيهلك هو ونحن معه، وتنقلع هذه الدولة**». فأجابها إلى ما أرادت. فقالت له: «إنه يصعد إلى هذا الجبل غداً، وليس معه غلام إلا الركابي وصبي، وينفرد بنفسه. فتقيم رجلين تثق بهما

يقتلانه ويقتلان الصبي. وتقيم ولده بعده. وتكون أنت مدبر الدولة - وأزيد في اقطاعك مائة ألف دينار ».

ركب الحاكم بأمر الله في اليوم التالي، على عادته، وخرج يطوف حتى وصل إلى شرقي حلوان، ومعه ركابيان، فأعاد أحدهما مع جماعة من العرب إلى بيت المال، وامر لهم بجائزة. ثم عاد الركابي الآخر. وضاع كل أثر للحاكم. فلما كان ثالث ذي القعدة، خرج صاحب المظلة - مظفر الصقلبي - وغيره من خواص الحاكم، ومعهم القاضي، فبلغوا حلوان. ودخلوا في الجبل. فبصروا بالحمار الذي كان عليه راكباً، وقد ضربت يداه بسيف وعليه سرجه ولجامه. فاتبعوا الأثر، فانتهوا إلى البركة التي شرقي حلوان، فرأوا ثيابه، وهي سبع قطع صوف، وهي مزرورة بحالها لم تحل. وفيها أثر السكاكين، فعادوا ولم يشكوا في قتله.

هكذا عاش الحاكم بأمر الله حياة غريبة، ومات ميتة أكثر غرابة (*)

كان قادة الجند والرؤساء قد أرسلوا خلال ذلك إلى - ست الملك - يسألون عن الحاكم، فقالت لهم: « ذكر لي أنه يغيب سبعة أيام. وما هنا إلا الخير ». فانصرفوا على سكون وطمأنينة. ومضت - ست الملك - إلى ترتيب الأمور. وبعثت الأموال إلى القواد على يد - ابن دواس -. فلما كان اليوم السابع؛ ألبست - أبا الحسن علي بن الحاكم - أفخر الملابس، وهو صبي، واستدعت ابن دواس وقالت له: « المعول في قيام هذه الدولة عليك، وتدبيرها موكل اليك، وهذا الصبي ولدك، فابذل في خدمته وسعك » فقبل الأرض، ووعدها بالطاعة، ووضعت التاج على رأس الصبي - وهو تاج عظيم فيه من الجواهر ما لا يوجد في خزانة خليفة، وهو تاج المعز جد أبيه - وأركبته مركباً من مراكب الخليفة وخرج بين يديه الوزير وأرباب الدولة. فلما صار إلى باب القصر.

(*) الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور ابن العزيز بالله نزار بن المعز العلوي - حاكم مصر - وسادس الخلفاء العبيديين (٣٧٥ - ٤١١ هـ = ٩٨٥ - ١٠٢٠ م) مات وعمره ستاً وثلاثين سنة وتسعة أشهر ومدة حكمه خمس وعشرون سنة. كان جواداً بالمال، سفاكاً للدماء. خلفه ابنه أبو الحسن علي بن الحاكم. بوصاية ست الملك - ولقب بلقب الظاهر لإعزاز دين الله.

صاح ابن دواس: **«يا عبيد الدولة؛ مولاتنا السيدة تقول لكم: هذا مولاكم، فسلموا عليه»** فقبلوا الأرض بأجمعهم. وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل. وبايعوا له: ولقب الظاهر لإعزاز دين الله. وكتبت الكتب إلى البلاد بمصر والشام بأخذ البيعة له. وأقيم العزاء على الحاكم ثلاثة أيام. واستدعت - ست الملك - القائد ابن دواس - وقالت له: «غداً نخلع عليك». فقبل ابن دواس الأرض؛ وفرح. وأصبح من الغد فجلس عند الستر ينتظر الإذن حتى يأمر وينهى - وكان للحاكم مائة عبد يختصون بركابه ويحملون السيوف بين يديه ويقتلون من يأمرهم بقتله. فاستدعتهم - ست الملك - وأغلقت أبواب القصر. وقالت لنسيم صاحب الستر: **«اخرج وقل للعبيد: ان ابن دواس هو قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه»** وقتل ابن دواس، وقتل معه العبدين اللذين قتلا الحاكم، وقتل كل من اطلع على سرها. فقامت الهيبة - لست الملك - في النفوس، واستقام لها الأمر. وعاشت بعد الحاكم أربع سنين وماتت.

د - ضعف من بعد قوة.

لقد ظهرت بواكير الضعف في فكر الدولة العبيدية - العلوية الفاطمية - وفي ممارسات حكامها؛ غير أنها بقيت تمتلك قدراً كافياً من القوة لمتابعة دورها. ولقد جاء الظاهر لاعزاز دين الله - والدولة في حالة انهيار، وبقيت (ست الملك) تمارس دورها بكفاءة عالية حتى توفيت سنة ٤١٥ هـ = ١٠٢٤ م، فاضطلع الظاهر بأعباء الحكم بكفاءة، وتوافر له رجال أكفاء، ففوض الأمور إلى وزيره أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي[1] وكان الحاكم في دولته أمير الجيوش بدر بن عبدالله الجمالي - والذي كان

---

(١) أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي. كان وزير الظاهر، ثم وزير المستنصر، سلك في وزارته العفة العظيمة - وكانت علامته (الحمد لله شكراً لنعمه). غضب عليه الحاكم بأمر الله، فأمر بقطع يديه من المرفقين سنة ٤٠٤ هـ. ثم استعمله في بعض اعماله سنة ٤٠٩ هـ - وأصبح وزيراً سنة ٤١٩ هـ. وتوفي سنة ٤٣٦ هـ - ومارس اعماله جميعها وهو مقطوع اليدين. ولم يعدم رغم ما اشتهر عنه من العفة، شاعراً يهجوه بقوله:

يا أجعأ إسمع وقل ... ودع الرقاعة والتحامق
أأقمت نفسك في الثقا ... ت وهبك فيما قلت صادق
أمن الأمانة والتقى ... قطعت يداك من المرافق

عادلاً، حسن السيرة. فأمكن له الاحتفاظ بمصر والشام. وكان جميل السيرة، حسن السياسة منصفاً للرعية، وساعده استقرار الأمور له، واعتماده على رجال أكفاء، للانصراف إلى ملذاته، والعيش حياة الدعة والراحة. وجاءه الموت(*) فخلعه ابنه المستنصر بالله، الذي لم يكد يبدأ عهده حتى جاء اليه **(الحسن بن الصباح الاسماعيلي)** في زي تاجر، وطلب منه الاذن بالسماح له بنشر الدعوة له بخراسان وبلاد العجم ـ بلاد فارس ـ فأذن له في ذلك، فقال له الحسن: **«ومن إمامي بعدك؟»** فأجابه المستنصر: **«ابني نزار»**. وهكذا نشأ الاعتقاد لدى الاسماعيلية بإمامة نزار.

استمر الصراع بين العباسيين والعلويين. وفي سنة ٤٣٠ هـ = ١٠٣٨ م، أعلن أمير حران والرقة ـ شبيب بن وثاب النميري ـ قطع خطبة المستنصر بالله وخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله وفي سنة ٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ م. أعلن أمير افريقية ـ المعز بن باديس ـ الدعاء للدولة العباسية، وخطب لأمير المؤمنين القائم بأمر الله، ووردت عليه الخلع والتقليد ببلاد افريقية وجميع ما يفتحه. وجاء في الكتاب الذي حمله رسول أمير المؤمنين القائم: **«من عبدالله ووليه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين، إلى الملك الأوحد ثقة الإسلام وشرف الإمام وعمدة الأنام، ناصر دين الله، قاهر أعداء الله، ومؤيد سنة رسول الله ﷺ ـ أبي تميم المعز بن باديس بن المنصور ولي أمير المؤمنين بولاية المغرب، وما افتتحه بسيف أمير المؤمنين:.. الخ»**. وأرسل إليه سيفاً وفرساً وأعلاماً، فوصلت إلى المعز يوم الجمعة، وأدخلت إلى الجامع والخطيب ـ ابن الفاكاه ـ على المنبر يخطب الخطبة الثانية. فقال الخطيب: **«هذا لواء الحمد يجمعكم، وهذا معز الدين ـ ابن باديس ـ يسمعكم، وأستغفر الله لي ولكم»** وقطعت الخطبة للعلويين من ذلك الوقت، وأحرقت أعلامهم.

(*) الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن علي بن أبي علي المنصور ـ سابع الخلفاء العبيديين (٣٩٤-٤٢٧ هـ = ١٠٠٣-١٠٣٥ م) كانت مدة حكمه خمس عشرة سنة وتسعة أشهر ونيف. خطب له في مصر والشام وافريقية. خلفه ابنه المستنصر بالله.

كان (الحسن بن الصباح الاسماعيلي) قد انصرف منذ سنة ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م لنشر الدعوة لطاعة المستنصر بالله صاحب مصر. وتبعه جمع كبير من الناس، وأظهر مذاهب أنكرها أهل بلاد ما وراء النهر. وعلم أمير البلاد - بفراجان - خبر الاسماعيلية. وأراد الايقاع بهم، وخاف أن يسلم منه بعض من أجابهم لدعوتهم من أهل تلك البلاد، فتظاهر لبعضهم أنه يميل إليهم، وأنه يريد الدخول في مذاهبهم. وأحضرهم مجالسه، ولم يزل معهم حتى عرف جميع من أجابهم، حتى إذا ما كانت سنة ٤٣٦ هـ = ١٠٤٤ م، عمل على قتل الاسماعيلية الذين كانوا في قبضته، وكتب إلى سائر البلاد بقتل من فيها. فقتلوا.

قام المعز بن باديس بإرسال اسطوله لغزو جزائر القسطنطينية (سنة ٤٣٩ هـ = ١٠٤٧ م). فظفر الاسطول وغنم وعاد. وسار المستنصر على الاتجاه المضاد، فعمل على تجديد الهدنة التي كانت معقودة بين دولته وبين الروم - البيزنطيين - وحمل المستنصر لملك الروم هدية عظيمة قابلها ملك الروم بهدية مماثلة - على ما جرت به العادة. وبات باستطاعة المستنصر توجيه جهده نحو افريقية، فأخذ في إرسال العرب إلى الغرب (سنة ٤٤٢ هـ = ١٠٥٠ م) وأصلح ما كان بين - بني زغبة ورياح من العداء إذ كان بينهم حروب وأحقاد كثيرة - وأعطاهم الأموال، وأمرهم بالسير إلى القيروان وملكهم ما يفتحونه، ووعدهم بالدعم والامدادات. ووصل العرب إلى أرض برقة وما حولها، فوجدوا بلاداً كثيرة المرعى، خالية من الأهل، لأن زناتة كانوا أهلها، فأبادهم المعز ابن باديس فأقامت العرب بها واستوطنتها، وعاثوا فساداً في أطراف البلاد. وبلغ ذلك المعز، فأهمل أمرهم استصغاراً لشأنهم واستخفافاً بهم. وبدأت العرب بالتوسع. فملكت مدينة طرابلس (سنة ٤٤٦ هـ = ١٠٥٤ م) وتتابع وصول القبائل العربية إلى افريقية، فوصلت بعد بني زغبة ورياح قبائل الاسبنج وبنو عدي. واتفقت كلمة القبائل على تنصيب (**مؤنس بن يحي المرداسي**) شيخاً عليها، تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه. وسار أمراء العرب إلى - المعز بن باديس - فأكرمهم وبذل لهم شيئاً كثيراً. فلما خرجوا من عنده لم يجازوه بما فعل من الإحسان، بل شنوا الغارات وقطعوا الطريق وأفسدوا الزروع وقطعوا الثمار وحاصروا المدن، فضاق بالناس الأمر، وساءت

أحوالهم، وانقطعت أسفارهم، ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها مثله قط، فقرر المعز بن باديس العمل ضد العرب، وكان المعز لما رأى تقاعد صنهاجة عن قتال زناتة، اشترى العبيد وأوسع لهم في العطاء، فاجتمع له ثلاثون ألف مملوك. فقادهم مع من انضم إليه من صنهاجة فكانوا ثلاثين ألف فارس ومثلها من الرجالة ـ المشاة. وسار إلى جندران ـ وهو جبل بينه وبين القيروان ثلاثة أيام. وكانت عدة العرب ثلاثة آلاف فارس، فلما رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز، هالهم ذلك وعظم عليهم. فقال لهم (مؤنس بن يحيى المرداسي): «ما هذا يوم فرار». فسألوه: «أين نطعن هؤلاء وقد لبسوا الدروع ـ الكذاغندات ـ والمغافر؟» فأجابهم: «العيون». والتحم القتال، واشتدت الحرب. فاتفقت صنهاجة على التراجع وترك المعز مع عبيده حتى يرى فعلهم ويقتل أكثرهم؛ فعند ذلك يرجعون لمهاجمة العرب، وانسحبت صنهاجة، وثبت العبيد مع المعز وكثر القتل فيهم، وعندما أرادت صنهاجة الرجوع لمهاجمة العرب، لم تتمكن من ذلك، واستمرت الهزيمة. وقتل من صنهاجة عدد كبير. ودخل المعز بن باديس مدينة القيروان مهزوماً، على كثرة من معه(*) . وأخذت العرب الخيل والخيام وما فيها من مال ومتاع. وصمم المعز على الانتقام لهذه الهزيمة، فجمع جيشاً من سبعة وعشرين ألف فارس. وأخفى استعداداته، ثم انطلق بسرعة ليسبق الاخبار. وباغت العرب وهم في صلاة عيد يوم النحر. فركبت العرب خيولهم، وقامت بهجوم مضاد. وانهزمت صنهاجة. وقتل منهم عالم كثير. ثم جمع المعز وخرج بنفسه في صنهاجة وزناتة في جمع كثير، فلما أشرف على بيوت العرب وهو جنوب جبل جندران. ووقع الاشتباك، واشتد القتال، وكانت العرب سبعة آلاف فارس، فانهزمت صنهاجة ومضى كل رجل منهم إلى منزله، وانهزمت زناتة، وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتاً عظيماً لم يسمع بمثله. ثم انهزم وعاد إلى المنصورية. وأحصى من قتل من صنهاجة ذلك اليوم، فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة. ثم أقبلت العرب حتى نزلت بمصلى القيروان. وتجددت الحرب،

(*) وفي ذلك قال بعض الشعراء:

وابن باديس لأفضل مالك ... ولكن لعمري ما لديه رجال

ثلاثون ألفاً منهم غلبتهم ... ثلاثة آلاف إن ذا لمحال

فقتل من أهل المنصورية ورقادة خلق كثير. فلما رأى ذلك المعز، سمح لهم بدخول القيروان للحصول على ما يحتاجون إليه. فلما دخلوا استطالت عليهم العامة ووقعت بينهم معركة، وحاصرت العرب القيروان. واستولى - مؤنس بن يحيى - على مدينة باجة. وطلب المعز إلى الرعية بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من العرب. وشرعت العرب في هدم الحصون والقصور وقطع الثمار وتخريب الأنهار، فيما كان المعز والناس ينتقلون إلى المهدية حتى سنة ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م. ودخلت العرب القيروان فنهبوها. وعظم شأن العرب، واشتركوا مع بلكين في حرب زناتة سنة ٤٥٠ هـ - فانهزمت زناتة وقتل منها عدد كثير. ثم وقعت الحرب بين العرب وبين هوارة سنة ٤٥٣ هـ - فانهزمت هوارة وقتل منها الكثير. وتمكن المستنصر بذلك من اشغال المعز ابن باديس بنفسه، وصرفه عن التفكير بالتعرض له.

لقد أفاد المستنصر من قوة العرب لضرب خصومه في افريقية، كما أفاد منهم للقضاء على خصومه في مصر ذاتها، على نحو ما حدث سنة ٤٤٣ هـ = ١٠٥١ م. عندما أعلن بنوقرة تمردهم على المستنصر، وأقاموا بالجيزة - مقابل القاهرة - وتظاهروا بالفساد. فوجه إليهم المستنصر بالله جيشاً لقتالهم، لكن بني قرة انتصروا على هذا الجيش، واكثروا فيه القتل، ثم انتقلوا إلى طرف البر. وعظم الأمر على المستنصر بالله، وجمع العرب من طيء وكلب وغيرهما وسيرهم في أثر بني قرة، فلحقوا بهم عند - البحيرة - فقاتلوهم، واشتدت الحرب، وكثر القتل في بني قرة، وانهزموا. وعاد الجند إلى مصر. وتركوا قوة كافية في مقابل بني قرة، لمجابهتهم إذا ما حاولوا مرة أخرى التعرض للبلاد وأهلها.

لم يلبث الخصم الأول للمستنصر بالله - وهو حاكم افريقية المعز بن باديس - (*) أن

(*) المعز بن باديس الصنهاجي - أمير افريقية (٣٩٨-٤٥٣ هـ = ١٠٠٧-١٠٦١ م). كانت مدة ملكه سبعاً وأربعين سنة، عرف عنه أنه رقيق القلب، خاشع، متجنب لسفك الدماء إلا في اقامة الحدود. حليم يتجاوز عن الذنوب العظام، حسن الصحبة مع عبيده وأصحابه. مكرم لأهل العلم، كثير العطاء لهم. ولما مات رثاه الشعراء، فمنهم أبو الحسن بن رشيق - الذي قال:

لكل حي وإن طال المدى هلك ... لا عز مملكة يبقى ولا ملك =

توفي سنة ٤٥٣ هـ = ١٠٦١ م. وظن المستنصر بالله أنه قد استراح من عدو خطير، وأن الأمور قد تستقيم له. لكن - **تميم بن المعز بن باديس** - استلم راية القيادة، وبرهن على أنه يفوق والده مراساً وبأساً. ذلك أن حكام البلاد كانوا قد طمعوا بسبب العرب، وزالت الهيبة والطاعة عن المعز في أيامه الأخيرة. فلما مات ازداد طمعهم. وأظهر كثير منهم التمرد والعصيان، وكان أولهم القائد حمو بن مليك - أمير صفاقس الذي استعان بالعرب، وسار بهم إلى المهدية ليحاصرها. فخرج إليه تميم، وصافه، واقتتلوا فانهزم حمو وأصحابه، وكثر القتل فيهم. وهرب حمو فنجا بنفسه، وتفرق عنه جنده. (سنة ٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ م). ثم سار - تميم - إلى سوسة، وكان أهلها قد تمردوا على أبيه المعز، فاستولى عليها، وعفا عن أهلها.

لقد كان لزاماً على تميم بن المعز بن باديس، احتمال نتائج الاحقاد المتوارثة، فقد توافرت لديه المعلومات (سنة ٤٥٧ هـ = ١٠٦٤ م) أن الناصر بن علناس بن محمد بن حماد - قد استعد لحربه، وقد انضمت إليهم جموع قبائل المغرب من صنهاجة ومن زناتة، بالإضافة إلى العرب من عدي وأنبج وبني هلال. وأنه - أي الناصر بن علناس - قد قرر مهاجمة تميم بن المعز في قاعدته ومستقر ملكه - المهدية - فما كان من تميم إلا أن استدعى كبار رجال - بني رياح - وقال لهم: **«أنتم تعلمون أن المهدية هي حصن منيع أكثره في البحر، لا يقاتل منه في البر غير أربعة أبراج يكفيها لحمايتها والدفاع عنها أربعون رجل. وإنما جمع الناصر هذه الحشود ليهاجمكم».**

= ولى المعز على أعقابه فرمى — أو كاد ينهد من أركانه الفلك
مضى فقيداً وأبقى في خزائنه — هام الملوك، وما أدراك ما ملكوا؟
ما كان إلا حساماً سله قدر — على الذين بقوا في الأرض وانهمكوا
كأنه لم يخض للموت بحر وغى — خضر البحار إذا قيست به برك
ولم يجد بقناطير مقنطرة — قد أرعبت باسمه ابريزها السكك
روح المعز وروح الشمس قد قبضا — فانظر بأي ضياء يصعد الفلك

ولما توفي ملك بعده ابنه تميم الذي كان قد ولد بمغرة - المنصورية - سنة ٤٢٢ هـ = ١٠٣٠ م. وولاه أبوه المهدية سنة ٤٤٥ هـ. فلما انتقل أبوه إلى المهدية. قام على خدمته، حتى إذا ما توفي المعز - سار تميم على نهجه، في حسن السيرة ومحبة أهل العلم.

فقالوا له: « **إنما تقوله هو الحق. ونحن نحتاج المعونة** » . **فأعطاهم المال والسلاح من** الرماح والسيوف والدروع والدروق. **فجمعوا قومهم وتحالفوا واتفقوا على لقاء الناصر**، وأرسلوا إلى من كان مع الناصر من اعراب - **بني هلال - يقبحون عندهم مساعدتهم** للناصر، ويخوفونهم منه أن يقوى وأن يهلكهم بمن معه من زناتة وصنهاجة، وإنما يستمر لهم المقام في البلاد، ويتم لهم الاستيلاء على البلاد بفضل الاختلاف وضعف السلطان. فأجابهم بنو هلال إلى الموافقة، وقالوا لهم: « **اجعلوا أول حملة تحملونها علينا، فعندها ننهزم بالناس، ثم نعود للانقضاض عليهم، ويكون لنا ثلث الغنيمة** » . وهكذا استقر الأمر بينهم. كما أرسل قائدهم - المعز بن زيري الزناتي - إلى من كان مع الناصر من زناتة بمثل ذلك، فوعدوه أيضاً أن ينهزموا. وسارت رياح وزناتة بكاملها للقتال. ووقعت المعركة على أبواب سبتة. وحملت رياح على بني هلال، وحمل المعز على زناتة. فانهزمت الطائفتان، وتبعهم جند الناصر منهزمين. ووقع فيهم القتل. **فكان مبلغ من قتل من صنهاجة وزناتة أربعاً وعشرين ألفاً** . وسلم ناصر في نفر يسير - وقتل أخوه في المعركة - القاسم بن علناس. وغنمت العرب جميع ما كان من مال وسلاح ودواب وغير ذلك، فاقتسموها على ما استقر بينهم. وبهذه الوقعة تم للعرب ملك البلاد. وارسل العرب إلى تميم الألوية والطبول وخيم الناصر والخيول. فردها تميم اليهم، وقال لهم: « **يقبح بي أن آخذ سلب ابن عمي - يقصد الناصر بن علناس -** » فأرضى العرب.

مضى تميم بن المعز بن باديس لدعم بنيان دولته. فقاد في السنة التالية (٤٥٨ هـ = ١٠٦٥ م) جيشاً كثيفاً، وسار به إلى تونس التي كانت قد خرجت عن الطاعة منذ أيام أبيه. ومر بطريقه على القيروان، فعرف حاكمها - قائد بن ميمون - أنه لا طاقة له بتميم وجيشه، فترك القيروان التي دخلها تميم، ثم سار منها إلى - قابس - فامتنع حاكمها - ابن خراسان - فحاصره تميم لمدة سنة وشهرين حتى أخضعه وجابه تميم موقفاً صعباً سنة ٤٧٦ هـ = ١٠٨٣ م، إذ عمل مالك بن علوي الصخري على جمع العرب، فأكثر. وسار بهم إلى المهدية. وحاصرها. فنهض له تميم بن المعز وطرده، فسار مالك منها إلى القيروان فحاصرها واستولى عليها، فوجه إليه تميم جيشاً كبيراً، مما أرغم

مالك على مغادرة القيروان والانسحاب منها.

لقد كان هذا الصراع شراً كله، وكان شر ما فيه هو استطالاته عبر البحر إلى الجزر التي كانت للمسلمين - وخاصة صقلية، حيث كان يصطرع على أرضها أصحاب حكام مصر مع أصحاب افريقية، وهو الصراع الذي وصل نهايته سنة ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م. عندما استولى الفرنج على جزيرة صقلية، وأصبح روجر ملكاً عليها. وأسكنها الروم والفرنج. ولم يترك لأحد من أهلها - المسلمين - حماماً ولا دكاناً ولا طاحوناً. وسلك طريق المسلمين في تنظيم الحجاب والحرس والشرطة وغير ذلك، وخالف عادة الفرنج الذين لم تكن لديهم معرفة بذلك. وجعل له ديواناً للمظالم. ترفع إليه شكوى المظلومين، فينصفهم ولو من ولده. وأكرم المسلمين وقربهم، فأحبوه. **وعمر أسطولاً كبيراً، وملك الجزائر التي بين المهدية وصقلية؛ مثل مالطة وقوصرة وجربة وقرقنة وتطاول إلى سواحل إفريقية.**

لم يكن الموقف على الجبهة الداخلية في مصر بأفضل مما كان على الجبهة الداخلية في افريقية. فقد انحل أمر الخلافة في القاهرة. وفسدت أحوال المستنصر بالله العلوي بسبب تحكم والدته التي كانت غالبة على أمره. وقد عينت وزيراً لها - اليهودي أبا سعيد ابراهيم التستري، الذي أشار عليها بتعيين أبي نصر الفلاحي في الوزارة ولكن الفلاحي أخذ في تدبير الأمور بمفرده، مما أغضب التستري، وخاف الفلاحي، فاصطنع الغلمان الأتراك واستمالهم وزاد في أرزاقهم. فلما وثق بهم أمرهم بقتل اليهودي فقتلوه. وغضبت أم المستنصر فأغرت به ولدها فقبض على الفلاحي فقتله. وعينت أم المستنصر بعده لوزارتها - أبا البركات حسن بن محمد، وكلفته بافساد أحوال الأتراك وإضعافهم، وشراء العبيد للمستنصر والاستكثار منهم، ثم أمرته باغراء العبيد لقتل الأتراك، فخاف أبو البركات عاقبة ذلك وعلم انه يورث شراً وفساداً، فرفض ولم يفعل، فعزلته أم المستنصر. وعينت مكانه - أبا محمد اليازوري وهو من قرية من قرى الرملة اسمها يازور - وأمرته أيضاً بذلك فلم يفعل، وأصلح الأمور إلى أن قتل. وحل محله في الوزارة - أبو عبد الله الحسين بن البابلي -. فأمرته أم المستنصر بما أمرت به غيره من الوزراء بإغراء العبيد لقتل الاتراك، ففعل. وتغيرت نيات الاتراك تجاه المستنصر. فلما

كان يوم خروج الحجاج من مصر (سنة ٤٦٥ هـ ١٠٧٣ م) ركب المستنصر لتشييع الحجاج. فتقدم بعض الاتراك بفرسه حتى وصل إلى صف العبيد المحدثين الذين كانوا يحيطون بالمستنصر، فضربه أحدهم فجرحه. فعظم ذلك على الاتراك، ونشبت بينهم الحرب، ثم اصطلحوا على تسليم العبد الذي ضرب الجندي التركي وجرحه. واستحكمت العداوة، فقال الوزير للعبيد: خذوا حذركم. فاجتمعوا في معسكرهم. وعرف الأتراك ذلك، فاجتمعوا إلى مقدميهم **وقصدوا - ناصر الدولة أبا علي الحسن بن حمدان وهو من أولاد ناصر الدولة بن حمدان بمصر، وكان قد تقدم فيها تقدماً عظيماً وأصبح اكبر قائد بمصر -** وشكوا إليه أمرهم. واستمالوا المصامدة وكتامة وتعاهدوا وتعاقدوا. فقوي الأتراك وضعف العبيد المحدثون، فخرجوا من القاهرة إلى الصعيد، ليجتمعوا هناك، فانضم إليهم خلق كثير حتى زاد عددهم على الخمسين ألف فارس وراجل. فخاف الأتراك وشكوا إلى المستنصر، فأخبرهم أنه لا علم له بما فعل العبيد، وأنه لا حقيقة لما قالوه. فظنوا قوله حيلة لخداعهم. ثم قوي الخبر بقرب العبيد منهم بكثرتهم، فأجفل الأتراك وكتامة والمصامدة وكانت عدتهم ستة آلاف مقاتل، والتقوا عند - كوم الريش - واقتتلوا، فانهزم الاتراك ومن معهم نحو القاهرة. وكان بعضهم قد كمن في خمسمائة فارس. فلما انهزم الاتراك. خرج الكمين على مؤخرة العبيد ومن معهم، وحملوا عليهم حملة منكرة، وضربت البوقات، فارتاع العبيد وظنوها مكيدة من المستنصر، وأنه قد ركب في باقي العسكر، فانهزموا. **وعاد عليهم الاتراك، وحكموا فيهم السيوف. فقتل منهم وغرق نحو أربعين ألفاً. وكان يوماً مشهوداً.** وقويت نفوس الاتراك. وعرفوا حسن رأي المستنصر فيهم. وتجمعوا وحشدوا، فتضاعفت عدتهم، وزادت حاجتهم للانفاق فيهم، ففرغت الخزائن واضطربت الأمور. وتجمع باقي الجند من الشام وغيره في الصعيد، وانضم إليهم العبيد. فصاروا خمسة عشر ألف فارس وراجل، وساروا إلى الجيزة. فخرج عليهم الأتراك ومن معهم واقتتلوا في الماء عدة أيام ثم عبر الأتراك النيل إليهم مع ناصر الدولة بن حمدان، فاقتتلوا، وانهزم العبيد إلى الصعيد، وعاد ناصر الدولة والأتراك منصورين. وأعاد العبيد تنظيم قواتهم في الصعيد واجتمع لهم خمسة عشر ألف فارس

وراجل. فقلق الأتراك لذلك، وحضر مقدموهم دار المستنصر لشكوى حالهم. فأمرت أم المستنصر من عندها من العبيد بالهجوم على المقدمين والفتك بهم، ففعلوا ذلك. وعلم ناصر الدولة بما حدث فخرج إلى ظاهر البلد، واجتمع الاتراك إليه. ووقعت الحرب بينهم وبين العبيد ومن تبعهم من مصر والقاهرة. وحلف الأمير ناصر الدولة بن حمدان أنه لا ينزل عن فرسه، وألا يذوق طعاماً، حتى يحسم الصراع معهم. واستمر القتال ثلاثة أيام، ثم ظفر بهم ناصر الدولة وأكثر القتل فيهم، وهرب من سلم منهم وزال وجودهم من القاهرة. وكان بالإسكندرية جماعة من العبيد، فلما انتهت هذه المعركة طلبوا الأمان. فأمنوا، وأخذت منهم الاسكندرية. ولم يبق إلا العبيد الذين في الصعيد. فلما خلت الدولة للاتراك، طمعوا في المستنصر، وزالت هيبته من نفوسهم، وطلبوا الأموال حتى فرغت الخزائن ولم يبق فيها شيء البتة. ولما وصل الأمر إلى هذا الحد، وعاد الاتراك لطلب الأموال» اعتذر المستنصر. فطلب ناصر الدولة ـ العروض ـ فأخرجت إليهم. وقومت بالثمن البخس، وصرفت إلى الجند. وقيل ان مخصصات الاتراك كانت عشرين ألف دينار في الشهر، فأصبحت الآن أربعمائة ألف دينار. ثم إن العبيد اجتمعوا بالصعيد وأفسدوا وقطعوا الطريق وأخافوا السبيل. فسار إليهم ناصر الدولة في جيش كثيف، فهرب العبيد إلى الصعيد الأعلى، فلحق بهم وقاتلهم فقاتلوه. وانهزم ناصر الدولة منهم وعاد إلى الجيزة بمصر. واجتمع إليه من سلم من جنده، وشغبوا على المستنصر، واتهموه بتقوية العبيد، والميل إليهم. ثم جهزوا جيشاً وساروا لقتال العبيد بالصعيد، وقاتلوهم فقتل من العبيد عدد كبير وتمزقوا تمزقاً تاماً. وعظم أمر ناصر الدولة، وقويت شوكته، وتفرد بالأمر دون الأتراك. فغضبوا من ذلك، وعظم عليهم الأمر، وفسدت نياتهم، وشكوا أمرهم إلى الوزير الخطير. وقالوا له: «كلما خرج من الخليفة مال أخذ ناصر الدولة أكثره له ولحاشيته، ولا يصل إلينا منه إلا القليل». فقال لهم الوزير: «إنما وصل إلى هذا وغيره بكم، فلو فارقتموه لم يتم له أمر» فاتفق أمرهم على مفارقة ناصر الدولة وإخراجه من مصر. واجتمعوا إلى المستنصر بالله، وشكوا، وسألوه أن يخرج عنهم ناصر الدولة، فأرسل اليه وأمره بمغادرة مصر. وتهدده إن لم يفعل، فخرج من القاهرة إلى الجيزة. ونهبت داره ودور حاشيته

وأصحابه. فلما كان الليل، دخل ناصر الدولة مستخفياً إلى القائد المعروف ـ بتاج الملوك شادي ـ فقبل رجله، وقال: «اصطنعني» فأجابه تاج الملوك: «أفعل» واتفق معه على قتل الوزير الخطير ومقدم من الاتراك اسمه ـ الدكز ـ. وأمكن قتل الوزير، إلا أن القائد الدكز تحرك بحذر وأمكن له جمع قواته من الاتراك، وركب معه المستنصر، فحمل على ناصر الدولة، وانهزم ناصر الدولة وقتل من أصحابه خلق كثير، ومضى منهزماً على وجهه لا يلوي على شيء. وتبعه فل أصحابه، حتى وصل إلى ـ بني سنبس ـ فأقام عندهم، وصاهرهم، فقوي بهم. ووجه المستنصر جيشاً لابعاد ناصر الدولة عن مصر. فسار الجيش حتى قرب من مكانه، وانقسم إلى ثلاث مجموعات للعبور. وأسرع ناصر الدولة، فقاتل المجموعة الأولى فور عبورها وانتصر عليها وقتل معظم أفرادها. ولم يعرف جند المجموعة الثانية بما حدث، فلما عبروا بوغتوا برؤية رؤوس أصحابهم وقد رفعت على الرماح، فأصاب الرعب قلوبهم، وقتل أكثرهم. وقويت نفس ناصر الدولة. وعبرت المجموعة الثالثة فهزمها ناصر الدولة واكثر القتل في جندها وأسر مقدمها. وعظم أمر ناصر الدولة، ونهب الريف، فأقطعه وقطع الميرة ـ والمواد التموينية ـ عن مصر براً وبحراً. فغلت الأسعار. وكثر الموت بالجوع. وامتدت أيدي الجند بالقاهرة إلى النهب والقتل، وعظم الوباء. حتى أن أهل البيت الواحد كانوا يموتون كلهم في ليلة واحدة. وعمل الاتراك على ارسال الرسائل إلى ناصر الدولة بطلب الصلح، واصطلحوا على أن يكون تاج الملوك شادي نائباً عن ناصر الدولة بالقاهرة، وأن يكون هو الذي يحمل إليه الأموال؛ وألا يبقى لأحد معه حكم. فلما دخل تاج الملوك شادي إلى القاهرة، خرج على الاتفاق واستبد بالأموال ولم يرسل إلى ناصر الدولة شيئاً منه. فسار ناصر الدولة إلى الجيزة، واستدعى إليه شادي وغيره من مقدمي الأتراك، فخرجوا إليه إلا أقلهم فقبض عليهم كلهم، ونهب ناحيتي مصر وأحرق كثيراً منها. فوجه إليه المستنصر جنداً باغتوه بالهجوم، فهرب ناصر الدولة، وجمع جيشه وعاد إليهم فقاتلهم وهزمهم. **وقطع خطبة المستنصر بالاسكندرية ودمياط وجميع أنحاء الريف. وأرسل إلى الخليفة ببغداد يطلب خلعاً ليخطب له بمصر. واضمحل أمر المستنصر وبطل ذكره، وتفرق الناس من**

القاهرة. وأرسل ناصر الدولة إليه أيضاً بطلب المال، فرآه الرسول جالساً على حصير وليس حوله إلا ثلاثة من الخدم. ولم ير الرسول شيئاً من آثار المملكة. فلما أدى الرسالة، قال له المستنصر: «**أما يكفي ناصر الدولة أن أجلس في مثل هذا البيت على مثل هذا الحصير؟**» فبكى الرسول، وعاد إلى ناصر الدولة فأخبره الخبر. فأجرى له ناصر الدولة كل يوم مائة دينار. وعاد إلى القاهرة وحكم فيها، وأذل المستنصر وأصحابه. وكان في كل ما يعمله يظهر التسنن، ويعيب على المستنصر تشيعه، وكان المغاربة على مذهب السنة، فأعانوه على ما أراد، وقبض على أم المستنصر وصادرها بخمسين ألف دينار، وتفرق عن المستنصر أولاده وكثير من أهله، وساروا إلى الغرب وغيره من البلاد. فمات كثير منهم جوعاً. وأراد ناصر الدولة أن يخطب لأمير المؤمنين العباسي في القاهرة، ولكنه كان يخشى من أصحاب المستنصر وقادته، فأخذ في العمل على تفريقهم في البلاد، وعرف القائد التركي ـ الدكز ـ ما يريده ناصر الدولة. فاتفق مع قادة الاتراك على قتل ناصر الدولة، فقتلوه ثم قتلوا أخاه ـ فخر العرب ـ وأخاهما تاج المعالي في ليلة واحدة. وزال حكم بني حمدان من مصر. واسندت الوزارة إلى القائد ـ أمير الجيوش بدر الجمالي(*) .

(*) أمير الجيوش بدر الجمالي (٤٠٧-٤٨٧ هـ = ١٠١٦-١٠٩٤ م) عينه المستنصر حاكماً على بلاد الشام سنة ٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ م. وقد عرف بكفاءته، غير أنه جرى بينه وبين الرعية والجند بدمشق ما خاف على نفسه، فخرج عنها هارباً، وجمع وحشد وقدم على الشام فاستولى عليه بأسره سنة ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م. ثم خالفه أهل دمشق مرة أخرى، فهرب منهم سنة ٤٦٠ هـ. وخرب العامة والجند قصر الامارة. ثم سار أمير الجيوش إلى مصر فتقدم بها، وعظم شأنه حتى وقف أشراف الناس وكبراؤهم وشعراؤهم على بابه. دون أن يحظى كثير منهم بمقابلته، وخرج يوماً إلى الصيد، فخرج الشاعر عبد الرزاق العليمي في أثره، حتى إذا ما قاربه وقف على مرتفع من الأرض، وأومأ برقعة كانت في يده، وأنشد:

نحن التجار وهذه أعلاقنا ... در وجود يمينك المبتاع
قلب وفتشها بسمعك إنما ... هي جوهر يختاره الأسماع
كسدت علينا بالشآم وكلما ... قل النفاق تعطل الصناع
فأتاك يحملها إليك تجارها ... ومطيها الآمال والأطماع
حتى أناخوها ببابك والرجا ... من دونك السمار والبياع

جابهت دولة المستنصر خطراً جديداً جاءها من الشرق. فقد كانت دمشق وساحل بلاد الشام تحت حكم العلويين ـ الفاطميين ـ. فلما كانت سنة ٤٦٨ هـ = ١٠٧٥ م توجهت قوة من الاتراك ـ الخوارزمية ـ بقيادة اتسز، وطردت أمير دمشق المعلى بن حيدرة، الذي هرب إلى بانياس ثم إلى صور ثم أخذ إلى مصر فحبس بها حتى مات. وأقيمت الخطبة في دمشق يوم الجمعة لخمس بقين من ذي القعدة (٤٦٨ هـ) لأمير المؤمنين المقتدي بأمر الله العباسي. وكان ذلك آخر يوم خطب فيه للعلويين المصريين. وتغلب ـ اتسز على اكثر بلاد الشام. ومنع الأذان بجملة (حي على خير العمل) ففرح أهل دمشق فرحاً عظيماً. فلما كانت السنة التالية (٤٦٩ هـ = ١٠٧٦ م) سار ـ **اتسز** ـ بجيشه إلى مصر. وكان أمير الجيوش بدر الجمالي قد انصرف لتدريب الجيوش وتنظيمها. لكنها بقيت أضعف من جيش أتسز فعمل بدر الجمالي على تجنب قتال اتسز عندما نزل بظاهر القاهرة. وانتشرت قوات اتسز في القرى، إلا أنها أساءت إلى الناس، وظلمتهم، وأخذت أموالهم، وفعلت الافاعيل القبيحة، فضج أبناء مصر، وأرسل رؤساء القرى ومقدموها إلى المستنصر بالله يشكون إليه ما نزل بهم، فرد عليهم بقوله: «**اني عاجز عن دفع هذا العدد**». فقالوا له: «**نحن نرسل إليك من عندنا من الرجال المقاتلة، يكونون معك. ومن ليس له سلاح تعطيه من عندك سلاحاً. وقد أمن جند هذا العدو وتفرقوا في البلاد، فنثور بهم في ليلة واحدة ونقتلهم. وتخرج أنت إليه فيمن اجتمع عندك من الرجال، فلا يكون له بك قوة**». فأجابهم إلى ذلك، وأرسلوا إليه الرجال، وثاروا كلهم في ليلة واحدة. فأوقعوا بقوات اتسز، وقتلوا جندها عن آخرهم إلا من كان في معسكر اتسز ـ وخرج جند المستنصر في حشد كبير بمن كان عند المستنصر ومن انضم إليه من العرب.

= فوهبت ما لم يعطه في دهره ... هرم ولا كعب ولا القعقاع
وسبقت هذا الناس في طلب العلا ... فالناس بعدك كلهم أتباع
يا بدر أقسم لو بك اعتصم الورى ... ولجوا إليك جميعهم ما ضاعوا

وكان في يد بدر الجمالي ـ بازي ـ فالقاه وانفرد عن الجيش، وجعل يسترد الابيات وهو ينشدها إلى أن استقر في مجلسه. ثم قال لغلمانه من أحبني فليخلع على هذا الشاعر. فخرج من عنده ومعه سبعون بغلاً يحمل الخلع والتحف. وأمر له بعشرة آلاف درهم.

واقتتلوا فانهزم اتسز وقتل أكثر أصحابه. وقتل أخ له، وقطعت يد آخر. فسار إلى دمشق وليس معه إلا عدد قليل من جنده. فوجد أن أهل دمشق قد حفظوا له أمواله وأمدوا له جنده، فشكرهم. وسار بجيشه إلى القدس، فرأى أهله وقد حاصروا الحامية التي تركها في القدس في محراب داود عليه السلام. فلما اقترب ـ اتسز ـ(*) من القدس تحصن أهله، وسبوه. فقاتلهم، وفتح البلد عنوة، ونهبه، وقتل من أهله فأكثر، حتى انه قتل من التجأ إلى المسجد الأقصى. وكف عمن كان عند الصخرة وحدها. وصار باستطاعة أمير الجيوش بدر الجمالي الانتقال للهجوم. فوجه في سنة ٤٧١ هـ = ١٠٧٨ م. جيشاً لحصار دمشق بقيادة ـ نصر الدولة ـ. وضاق الأمر على ـ اتسز ـ فأرسل إلى تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان يستمده، فسار تتش في حشد كبير من التركمان، فلما علم المصريون بقربه، أجفلوا من بين يديه، ومضوا شبه المنهزمين. وخرج اتسز لاستقبال تتش عند سور البلد، فاغتاظ تتش منه لأنه لم يخرج لاستقباله بعيداً عن دمشق، وأمر بالقبض على اتسز وقتله. وأصبحت دمشق والقدس واكثر مدن الشام تحت حكم تتش بن ألب أرسلان واقيمت فيها جميعاً الدعوة العباسية، وقطعت الخطبة العلوية.

عاد أمير الجيوش بدر الجمالي، فقاد جنده وخرج بنفسه إلى بلاد الشام (سنة ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م) ووصل دمشق التي كان يدافع عنها تاج الدولة تتش، فحاصرها، وضيق عليها، وقاتل جيشها، فلم يظفر منها بشيء، واضطر إلى رفع الحصار والعودة بجنده إلى مصر. ويظهر أن بدر الجمالي كان يريد أن يتخذ من بلاد الشام ـ أو من بعضها على الأقل ـ قاعدة متقدمة للدفاع عن مصر. ولهذا فقد وجه جيشه (سنة ٤٨٢ هـ = ١٠٨٩ م) بقيادة عدد من المقدمين، فحاصر مدينة صور التي لم تتمكن من الدفاع لعدم وجود حامية قوية فيها، فاستسلمت لجيش مصر. الذي تابع

(*) أتسز ـ أو اتشز ـ بن أوف الخوارزمي ـ ويعرف باسم الاقسيس. ولقبه المعظم. كان من كبار قادة الترك الخوارزمية، وأجودهم سيرة وأصحهم سريرة، أزال الرفض ـ التشيع ـ عن أهل الشام. وأبطل جملة (حي على خير العمل) من الأذان. وأمر بالترضي عن الصحابة أجمعين ـ قتل سنة ٤٧١ هـ = ١٠٧٨ م.

اعماله القتالية فاستولى على مدينة صيدا ثم مدينة عكا، ثم مدينة جبيل. واستعمل أمير الجيوش على هذه البلاد الامراء والعمال. الذين عملوا على اصلاح أحوال البلاد. وتحقيق الأمن فيها. وحكموا بالعدل. وعاد الجيش إلى مصر. ولكن مدينة صور أعلنت تمردها سنة ٤٨٦ هـ = ١٠٩٣ م بقيادة حاكمها - منير الدولة الجيوشي -. وأسرع أمير الجيوش بتوجيه جنده إلى صور، وثار أهل صور على حاكمهم، وانضموا إلى جيش مصر الذي دخل مدينة صور وقاتل منير الدولة وقواته وانتصر عليهم، وحمل منير الدولة وكبار قادته إلى مصر. فتم قتلهم. مات - أمير الجيوش بدر الجمالي - وقد أعاد للدولة بعض هيبتها وبعض قوتها. وتبعه بعد أشهر قليلة المستنصر بالله. وورث الفضل بن بدر الجمالي الوزارة عن أبيه. فعمل على تنصيب أبي القاسم أحمد المستعلي بالله لخلافة أبيه المستنصر بالله (*) . وكان على الأفضل بن بدر الجمالي - في عهد المستعلي بالله أن يجابه الصليبيين الذين استولوا على القدس سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م. وبدأت بذلك مرحلة جديدة من الصراعات والحروب.

(*) المستنصر بالله أبو تميم معد بن أبي الحسن علي الظاهر لاعزاز دين الله العلوي صاحب مصر والشام (٤٢٠-٤٨٧ هـ = ١٠٢٩-١٠٩٤ م) وهو ثامن خلفاء العبيديين. جابه في حياته خطوباً جساماً، وأشرف على الهلاك، واحتمل الكثير من المحن والنوائب. وكانت مدة خلافته ستين سنة وأربعة أشهر. وكان قد أوصى بالخلافة لابنه الاكبر نزار. ولكن الأفضل بن بدر الجمالي خلع نزاراً وبايع للمستعلي بالله - أبي القاسم - الذي كان قد ولد سنة ٤٦٧ هـ = ١٠٧٤ م. فهرب نزار إلى الاسكندرية، ولجأ إلى حاكمها - الفتكين - وبايعه أهل الاسكندرية، وسموه المصطفى لدين الله، فسار إليه الأفضل، وحاصر الاسكندرية إلى أن تم له الاستيلاء عليها، وأخذ - الفتكين - وقتله. وتسلم - نزاراً - فبنى عليه حائطاً فمات. ونزار هذا هو الذي يدعو له الاسماعيلية وفقاً لوصية أبيه المستنصر. أما المستعلي بالله - والذي هو تاسع الخلفاء العبيديين، فإنه لم يعمر طويلاً. وتوفي سنة ٤٩٥ هـ = ١١٠١ م.